رواية

للموت عيون ملوّنة

عبد الحكيم القادري

مكتبة نوميديا

نوفل

رواية

للموت عيونٌ ملوّنة

عبد الحكيم القادري

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **Lyn Randle / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-935-5
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-936-2

الإهداء

إلى من رأى النور في أيلول مرّتين.

شهاب عون...

جميع الشخصيّات والأحداث السياسيّة الواردة في هذه الرواية هي من نسج الحقيقة. وطوبى لمن بمقدوره أن يتخيّل أنّ هناك حقيقةً، وأنّ الضّوء حين يمرّ عبرها لا ينكسر ألوانًا ودرجات، بل يصل إلى عيوننا نقيًّا، طاهرًا كالماء.

«أيُّها النّسّاجون: أريدُ كفنًا واسعًا لأحلامي.»

محمّد الماغوط

عتبات

«لأنّنا نتقن الصّمت، حمّلونا وزر النّوايا.»

غادة السمّان

1

للّيلة الخمسين على التّوالي، تحبك أمّ بدر الرّداء الأزرق السّماوي خلف ظهرها، تُسقط يديها في كَفَّي لاتيكس، تُثبّت رباط الكمامة حول أذنيها، تربط شعرها المصبوغ في كعكة، تعتمر غطاء الرّأس نصف الشفّاف، وتدخل الغرفة رقم 3 في قسم العناية المركّزة، حيث ترقد ابنتها لا حيّة، ولا ميتة.

لقد اعتادت جوّ هذا المكان؛ تماهت وطلاؤه الباهت، إنارته النّعسى، وعبق تعقيمه البغيض. بخُطًى متثاقلة، تدنو من السّرير. حول رسغ ابنتها تلتقط عيناها سوار التّعريف بالمريض: لميا خليل خولي – بشحمها ولحمها اللذين لم يبقَ منهما شيء يُذكر. رغم جهلها فكّ الحرف، تستغرق في النّظر إلى حروف الاسم، فيُغرقها الدّمع.

تلتصق بطرف السّرير. ينشُج قلبها. ترنو إلى وجه لميا؛ رغم فارق العمر ترى فيه وجهها – ستّينيًّا، يذوي قهرًا. للحظة، تخال أنّ المضخّة على نصفه الأدنى توقّفت عن إيصال الأوكسيجين. تلتفت هلعةً إلى شاشة القلب الإلكترونيّة تريد أن تطمئنّ. النّبض مستمرّ، ثابت. تهدأ.

للّيلة الخمسين على التّوالي، بحكم العادة والنّدم، تكرّر على مسمع لميا ذات الأسطوانة:

– ماذا حلّ بك؟ أما آن أن تعودي؟

تشدّ على يدها:

– بيدي طرحتك على فراش الموت. بيدي الملعونة زَفَفتُكِ لقمةً سائغة لمختلٍّ سحق صباك. وكلّ ذا من أجل ماذا؟ المال، والجاه، والمركز. تبّت يدي!

تجهش. تحسّ بثقل هائل يضغط على عظام ساقيها نزولًا. تجثو:

– إن كنت تسمعينني يا عمري، فاضغطي على يدي.

لا صوت لمن تنادي. لا حسّ. لا حركة. رنين الشّاشة، وصوتها المبحوح، طاغيان على جوّ الكآبة:

– برضاي عليك يا لميا سامحيني.

رغم محاولاتها اليوميّة استثارة شفقة ابنتها، صارت أمّ بدر تعي أنّ النّدم مركبٌ فاتها، إذ لا أحد يدري ماهيّة العالم الذي تجول فيه روح لميا الآن، لا أحد يعلم إن كانت سترجع إلى دنيا عافتها، فطلّقتها. حتّى الأطبّاء لا يعلمون شيئًا. يزوّدونها بأمل كاذب كلّ يوم. يستقبلون أسئلتها بابتسامة مزيّفة. يستفيضون أمامها بشروحات طبّية عن حالتها، لا تزيد أُمًّا مكسورة مثلها إلّا تعاسة. ويعدونها. يعدونها بأنّها ستتحسّن. بأنّها ستستيقظ. بأنّها ستربح المعركة. «الأمر يتطلّب وقتًا فقط»، يقولون، «يتطلّب انتظارًا وصلاةً وصبرًا، ستستيقظ، لا داعي للهلع». تستذكر قولهم الممجوج هذا، فتهتف بلا وعي، خائرة القوى:

– متى؟

تقف من جديدٍ بشديد الصّعوبة. تسوّي من فوق غطاء النّايلون رباط شعرها، ناظرةً إلى وجه لميا. يُخيّل إليها أنّها تبتسم، فتناجيها:

– أسعيدة حيث أنت الآن؟ أين أنت يا ترى؟ عودي. لا تتركي أمّك وحدها. تكفيها كلّ تلك الخسارات والانكسارات. عودي، فلن تستطيع تحمّل غيابك.

تُقأقئ بدمعها:

– أُمُّك تحبّك. تؤثرك على باقي أبنائها. كيف لا وأنت نهاية العنقود التي لم تشِ بقدومها؟ جئتِ كنسمة آذاريّة أحيت ما كاد يُميته شباط. هنيًّا كان خروجك من هذا الرّحم بعد ثلاث ولادات عسيرة. ما زلت أذكر كيف طلبتُ إلى القابلة القانونيّة أن تسرع بك، ففاجأتني بقولها إنّ الأمر انتهى. لن أنسى أنظار الجارات المجتمعات آنذاك. خفت عليك من الحسد. سحرتهنّ سمرتُك. رأيت ذلك في أحداقهنّ. ورُحن يمجّدن الخالق وهُنّ يحدّقن بفيروز عينيك، وشفتك اللمياء. عودي يا لميا، فمن بعدك لن يعود لحياة أمّك طعم، ولا لون، ولا سبب.

بعد أن تفرك عينيها، تواصل:

– جميعهم يا شمسي أوغلوا في الغياب. أفَيَهون عليك أن تتركيني وحدي؟ لم يبقَ لي أحدٌ سواك. أبوك خليل، رحم الله ترابه الطّاهر، تركني منذ ثلاثة عشر عامًا. كم أضناني رحيله يا ابنتي. وأخوك بدر، ربّنا يهديه ويصلح باله، ابتعد عني، أتعرفين لم غادرني إلى صيدا قبل سنتين؟ لا لأنّه وجد هناك عملًا آخر يدرّ عليه مالاً أكثر كما كذبت عليك، لا يا لميا، بل لأنّه صار خاتمًا في إصبع خديجة، زوجته الـ.. أستغفر الله العليّ العظيم... التي عرفت من

أين تؤكل كتفه. أمّا ندى، أختك، فصارت... صارت إنسانةً أخرى، أكاد أجزم بأنّي لم أعد أعرفها. تخيّلي! ثلاث عشرة سنة من القطيعة بيننا، ويرنّ هاتفكِ في يدي قبل خمسين يومًا. يأتيني صوتها وأنا في مدخل الطّوارئ يسألني عنكِ. كما تعلمين يا ابنتي، أنا، بعكس شقيقك بدر، كنتُ لِنْتُ تجاهها، وربّ السّما ما عاد قلبي يكنّ لها الكراهية إزاء خطيئتها السّالفة. عن كلّ طيب خاطر وجدتُني أخبرها بالمصيبة التي حلّت بكِ، ثمّ أستقبلها خارجًا في الكوريدور، باسطةً لها ذراعيّ على وسعهما. تصوّري! ظننتُ أنّها سترتمي بينهما بلامبالاة، ظننتُ أنّها ستنهشهما قُبُلات. ظننتُ أنّ غيبوبتك هذه ستعيد لـمّ شملنا كعائلة. لكنّ ما حلّ بك يا لميا شتّتنا أكثر وأكثر وأكثر. يجب ألّا أطيل عليك ذكر ندى، فالأمر قد يزعجك. أجل، إنّه يزعجك، تبًّا لحماقتي، انظري لنبضاتك كيف اضطربت! اهدئي. أعدك لن أذكرها مجدّدًا. لكن قبل ذلك، أعتقد أنّ ندى لا تلومك على ما لحق بابنتها حياة. أساسًا لا يحقّ لها. فأنت بدورك دفعتِ الضّريبة. دفعتِها مرّتين. عنكِ، وعن سوسن. لا بأس يا لميا. ابنتك الآن عصفور في الجنّة. ملاك طاهر بجناحين، وعينين ملوّنتين. ومن المؤكّد أنّها تريدك أن تستيقظي وأن تقفي على رجليك مجدّدًا. هيّا أثبتي لها أنّك ما زلتِ قويّة، وأنّك ستحيين لأجلها. لأجلها يا لميا قومي. هيّا.

فجأةً، يلوح في ذاكرتها صوت أختها حسنا يخبرها أن لا فائدة من محادثة لميا، وأنّ إسماعها كلام الله عِوَضًا لا بدّ سيريحها. فتكفّ عن الكلام، وتشغّل الرّاديو الذي جلبته أختها صباح اليوم، لينساب من الكاسيت صوتٌ مهيب يُرتّل القرآن:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ من القول وهُدُوا إلى صراط الحميد﴾.

2

لفرط مصائبها، خسرت مهارة البكاء. وجدت البديل لها مع الأيّام: الضّحك. فجلد المرء كما الإسفنج، له سَعَة لتشرّب المصائب. حين تتخطّى خلاياه هذه السَّعّة، لا يبقى لأيّ مصيبة إضافيّة من مستقرّ. تغدو مدعاة سخرية فقط.

في سيّارتها الرّماديّة (تويوتا كارينا) المقسّطة الثّمن، تقود ندى من السّوبرماركت نحو المستشفى. تتساءل وهي تُغَضِّن بيُمناها فاتورة مشترياتها، عمّا يمكن أن يُضاف بعد إلى فاتورة حياتها، تلك التي تضمّ دون حصر المصائب التّالية:

1– اختفاء عمر، الرّجل الذي أحبّت وأنجبت منه حياة، قبل ثلاثة عشر عامًا.

2– خرس، أو صمت (أو مهما تكن الكلمة) ابنتها حياة من بعد اغتصاب هلال لها طوال عامين، زوج أختها الحقير الذي كان قد استرجعها قبل أربع سنوات من الميتم وتكفل برعايتها في منزله ريثما تستقرّ أحوالها.

3– دخول أختها لميا في كوما منذ واحدٍ وخمسين يومًا، بعد مصرع ابنتها سوسن برصاص زوجها هلال القابع الآن في السّجن بانتظار

انتهاء محاكمته.

4– امتناع شقيقها بدر عن رؤيتها، هو الذي كان يريد ذبحها، بصفتها زانية.

5– فشل باكورة أغنياتها شعبيًّا رغم المساومات التي تطلّبت ولادتها.

تتساءل أحيانًا: أيّ المصائب ستأتي سادسًا؟ الموت؟ قد يكون الموت راحةً أبديّة!

تتنهّد. تجلب الرّاديو إلى الحياة. بالموسيقى تفضّ غيوم فكرها. أغنية فيها من المكوّنات ما يخوّلها أن تكون كلّ شيء عدا أغنية. تغيّر الموجة. تنساب واحدة أخرى، نسخة توائم الأولى، بكلام لا يعدو كونه معجمًا لغويًّا لكلمة «حبّ»، وجملة لحنيّة مستهلكة، تُعاد فور انتهائها. يُستحسن إذن (تراودها الفكرة على أحد المنعطفات) أن تعود إلى غناء ما يطلبه المستمعون، وما من حاجة لهدر المال والأنفاس على عمل مشغول بأناة، لا يهزّ الصّدور أو الخصور.

بعد الخوض في زحمة كثيفة سببها أعياد نيسان المجيدة، تصل إلى المستشفى. تركن سيّارتها في الموقف القريب، وتمشي تحت مظلّتها شرقًا، نحو مدخل العناية المركّزة؛ امرأة مفجوعة تعترضها نائحةً على مدخل الطّوارئ، محاولةً اللحاق بعناصر من الصّليب الأحمر يحملون رجلًا على النّقّالة. المشهد لا يمسّها كثيرًا. تستأنف سيرها حتّى يطالعها وجه أمّها الأسمر على باب الغرفة رقم 3.

– هل من جديد؟

يخرج منها السّؤال ناشفًا.

– الوضع على حاله.

تتساقط دموع أمّ بدر. تكرّ على الزّجاج الخارجيّ وعيناها الملتصقتان به تهدهدان لميا في سريرها. غير أنّ ندى لا تبالي لهذه الدّموع. تسترخصها. ترى فيها تمثيلًا مبتذلًا، مشهدًا مثيرًا للضّحك في مسلسل مكسيكيٍّ رديء الدّبلجة. فتودّ لو يناولها أحد ريموت كونترول لتخرس به الصّوت، لتحذف القناة عن الشّاشة.

– يا ابنتي لم كلّ هذا التّجهّم؟ ما الذي غيّرك معي هكذا؟

تتلمّظ ندى إزاء سؤال أمّ بدر الذي صار يتكرّر كلّما زارت أختها. هذه المرّة أيضًا، تأبى أن تحير جوابًا. تتصنّع الصّمم خابطةً البلاط برأس مظلّتها، خبطة إثر أخرى أقوى. لِـمَ تُتعب حنجرتها بالإجابة عن سؤال ذي شقّين، يستدعي كلاهما توقّفًا طويلًا عنده؟ والله لن تستوعب من أين لهذه المخلوقة بعد أعوام خلت كلّ تلك الصّفاقة لتناديها «يا ابنتي». متى تفهم أنّ وقفتهما جنبًا إلى جنب في هذه اللحظة لا تعدو كونها فريضة ظرف راهن؟ متى تفهم أن لا شيء يجمعهما سوى تلك الميتة سريريًّا؟ وأنّه لحظة تسكت في الدّاخل شاشة الـECG، ويستقيم وسطها الخطّ الأخضر، لن تتلاقى عيونهما مرّةً أخرى؟ هذا في ما يخصّ الشّق الأوّل من السّؤال. أمّا بالنّسبة إلى الشّق الثّاني، فلا جواب لديها أكثر اختزالًا لمشاعرها من أغنية أمّ كلثوم: «اسأل روحك».

– ندى، كم مرّةً عليّ أن أقول بعد إنّي آسفة؟ دعينا نجلس معًا في الكافيتيريا ونتحدّث. لقد اشتقتك. اشتقت سماع صوتك. لا أطلب منك سوى بضع دقائق. أرجوك. كرمى للميا.

تستدير ندى نحو أمّها موجّهةً إليها مخارز عينيها. تتوقّف عن خبط الأرض بمظلّتها، وترفعها من وسطها إلى مستوى بطنها، كما

لو أنّها تتحضّر لشنّ هجوم؛ عيناها في عيني أمّها. وبضعة سنتيمترات بين جسديهما. من سيصمد طويلًا في هذه المواجهة؟ أيّ الشّوكتين ستنكسر؟! ثوانٍ وتعلو شفتي ندى ابتسامة هازئة منتشية بانتصار مُعلَن، حين تشيح أمّ بدر وجهها بقنوط وتنزله جهة الأرض.

أخبريني يا امرأة، ما طعم الدّموع التي تذرفين؟ لا طعم لها، أستطيع الجزم، لأنّ كلّ ما هو مصطنع بلا طعم. بالله عليك توقّفي عن البكاء. ألا تخجلين من نفسك؟ من سنواتك السّتّين؟ تبكين وأنتِ أصل البلاء؟ لولا زرقة دمك يا ستّ هيام، لما حدث كلّ هذا. أنت سبب هذه اللعنات. أجل ابكي. لعلّ دموعك الوضيعة تكفّر بعضًا من ذنبك، إن كان يُكفَّر. أودّ لو أعلم جنس الطّينة التي جبلتك. أودّ لو تمضين عمرك في البكاء. هيّا ابكي. قلتُ ابكي! تهاجم ندى أمّها، تجأر أقذع الشّتائم في أذنها، تفرغ في لحمها كرهًا دفينًا تكنّه لها، تبصق في وجهها، تدمي أنفها، تنتر ياقة قميصها، وتدفع بها إلى الزّجاج فيتهاوى عليها قِطعًا تحزّز عنقها. الشّماتة تمور في صدرها. ياه، ما كان يجب أن تنتظر حتّى اليوم لتستمتع بمنظر كهذا!

– ندى أتسمعين؟

يجتذبها علوّ نبرة أمّ بدر من حلم اليقظة الذي باغتها خلال بكاء الأخيرة. تودّ لو أنّ هذا الحلم يغدو حقيقة.

– ما قولك؟

تهزّ ندى رأسها التّائه عن فحوى الحديث. فتوضّح أمّها:

– كنت أقول... إذا طالت غيبوبة لميا، فقد يضطرّون لفصل الماكينات عنها.

تتملّاها ندى مليًّا. بقرف لاذع:

– من أخبرك؟

– خالتك حسنا. كانت هنا البارحة.

– أخبري السّت حسنا أن ترتاح وتعيرنا سكوتها.

تسكت أمّ بدر؛ تشيح برأسها البيضويّ مخافة نظرات ابنتها. فندى اليوم – كما بدت لها منذ التقتها في شباط الماضي عند دخول لميا العناية – أقوى ممّا مضى. أقوى بمئة مرّة. لم تعد كما كانت قبل هروبها من تحت جناحها: قطّة مُدجّنة في الثّامنة والعشرين، يُبتلع رأسها بسهولة؛ بل غدت نمرةً أربعينيّة شرسة.

– جناب ابنك لن يشرّفنا بحضوره؟

تتوجّه إليها بِتَعالٍ.

– بلى... (تقول أمّ بدر وهي تداري انكسارًا)، أتى ليل البارحة.

– تمزحين! بعد خمسين يومًا على غيبوبة أخته، قرّر المجيء؟ بكّير والله.

تودّ لو تردف وتخبرها أنّ بدر يضاهيها حقارة. تودّ لو تسخر منها، وتشمت بها، هي الأمّ التي لم ترَ الدّنيا إلّا من أحداق ابنها، من فتحة مؤخّرته لتكون أدقّ! **أهذا بدرك سلطان عمرك يا امرأة؟ الطّفل الذي دلّلتِه وكبّرتِ في رأسه الخسّة؟ جعلتِ منه نسختك الذّكوريّة. فانظري إليه كيف يُجازيك. تفضّلي ثمن تربيتك النّجسة. ادفعيه نقدًا.** لكنّ الاشمئزاز المتنامي داخلها يحملها على مجرّد قول:

– طَمئني الأفندي أنّ تكاليف المستشفى عليّ أنا (تضرب على صدرها بصفاقةٍ مُخاتلة)، أنا التي سأدفعها.

وقبل أن تهبّ مغادرةً، تقوّس شفتيها كأنّما تذكّرت شيئًا، ثمّ تقول في تبرّم، مشيرةً إلى صدر أمّها بسبّابة منتصبة:

– هذا اخلعيه. لميا لم تمُت بعد لتلبسي الأسود. حتّى ذاك الحين الله بيفرجها. Au revoir يا... ماما.

3

لن يقضي بقيّة حياته في زنزانة. بين أربعة جدران. لصق زاوية. يحاول صدّ الماضي الذي يأبى حسيسه المهادنة. من الأشرف له أن يغرز سكّينًا في صدره، على أن يحجبوا عنه ضوء الشّمس. الشّمس خُلقت له. للنّاس أمثاله. ولا يحقّ لأيّ مخلوق أن يسلبه إيّاها مجدّدًا.

حتّى اللحظة، ما زال هلال يرفض شاجبًا أسباب اعتقاله. يسائل نفسه مرارًا، بل يجاهر أمام القاضي والمحقّقين بالسّؤال: ما الجريمة العظيمة التي ارتكبها ليضجّ البلد باسمه، وتُذاع صوره على شاشات التّلفزة؟ ألأنّه خلّص أولئك الأطفال من الظّلمة؟ إنّ أجمل ما قد يحدث للمرء هو أن يموت صغيرًا. قبل اختزان المزيد من أوجاع الدّنيا. أن يموت وهو على علم بأنّ ما ينتظره في المقلب الآخر لَهُو حتمًا أجمل – هكذا جاءت إفاداته في المحكمة. على الكلّ، وأوّلهم محاميه الذي وجد في إفادته مادّة دسمة لمرافعته، أن يفهم أنّ قتل الأطفال نابعٌ بالفعل من رأفته، لا من قسوته. من خوفه على طفولتهم، لا من حقده عليها. فطفولتهم كانت ستستحيل في المستقبل جحيمًا إن بقوا على قيد الحياة. لهذا

استبق القادم من عذاباتهم وسلبهم الحياة. فحيث هم الآن أضحوا سعداء، أسعد ممّا كانوا سيصبحون عليه لو أبقاهم – بعد ممارسة الحبّ معهم – أحياءً. لكن، من العاقل الذي سيصدّق اعترافاته هذه؟ برأيه لم يعد ثمّة عقلاء. كلّهم مجانين. كلّهم مجرمون. يرمون في سجونهم مظلومي الأرض، والظُّلّام خارجًا يسرحون.

يجب أن يخرج. يجب أن يُسكِتَ هذا الصّوت. أنّى يَسكتُ هذا الصّوت؟ وذاك السّوط، من يلجم في أذنيه ذاك السّوط؟

– أخرجوني يا كلاب!

يقوم من أرضه تتلقّفه الجدران، تشدّه يمينًا، ترميه يسارًا، تتقاذفه ككُرة نارٍ تزداد احتراقًا، لا شيء غير الظّلام يعمّ المترين في أربعة، لا صوت غير السّوط يصكّ مسمعه، ودعسات الجزمة، واحتراق السّيجارة، وأصداء القهقهة!

– أريد الخروج حالًا!

يكاد يُجنّ. لا يبقى في السّجن مخلوق لا يسمع صدى صوته. إلّا أنّه – رغم كلّ هذه المقاومة التي لم تخبُ فيه منذ واحدٍ وخمسين يومًا على اعتقاله – على علم بأنّ خروجه من هنا لا يعني الخروج من قبو الذّاكرة. لا أحد يستطيع الخروج من قبوها، تلك السّاديّة العاهرة.

4

فور خروجها من قسم العناية المشدّدة، ارتمت ندى على مقعد سيّارتها الرَّطِب وطلبت رقم الطّبيب المشرف على أختها:

– معك ندى.

لا ترحّب به، لا تنتظر أن يرحّب بها، تلج الموضوع مباشرةً ونقر المطر يزداد حدّةً مع نبرتها. تطلب منه ألّا يعتبرها شقيقة لميا، أن يحكي معها بصفتها أخته، أن يخبرها بشفافية إن كانت مريضته ستعيش:

– رجاءً دكتور، دعك من دبلوماسيّة الأطبّاء واترك قلبك يتكلّم. لميا لن تستيقظ. لميا ستموت، صحّ؟ لا تخف، قُلها، هذا الجلد قد اخشوشن لفرط المصائب التي حرثت فيه. أختي ستموت، أعلم هذا.

– مدام ندى أنا لست عالم غيب. الطّاقم الطبّي يقوم بواجبه كاملًا، والباقي على الله. أختك يمكن أن تستيقظ الآن، أو تبقى في الغيبوبة لوقت طويل، أو، وهذا ما لا نتمنّاه، ترحل. (نفس عميق يتابع بعده) حضرتكم لديكم الخيار أيضًا.

– أتقصد...؟ مستحيل!

احتدام نبرتها ينمّ عن غضب يقيس مدى رفضها لفصل الماكينات عن أختها إن طالت الغيبوبة. فهذا برأيها جريمة بحقّ حياة ليست ملكها، ولا ملك أحد آخر. جريمة بحقّ الرّحمة والإنسانيّة. وهي ليست بِوارد ارتكاب المزيد من الجرائم، حتّى لو تطلّب ذلك منها أن تشحذ على أبواب النّاس لتسدّ فاتورة المستشفى الباهظة.

– إن كان نقل لميا إلى مستشفى الجامعة الأميركيّة أو حتّى إلى أميركا يردّها إليّ، أخبرني، بدفع اللي فوقي واللي تحتي، آخر همّي.

– لو كان هناك داعٍ لنقلها لفعلت بنفسي. دعينا ننتظر. عساه خير.

خير؟ منذ متى يأتي الانتظار بخير؟ لو يعلم هذا الطّبيب كم تودّ أن ترجع أختها الصّغيرة إليها. كم تودّ أن تستقبلها كما استقبلتها هي عام 2000 بعد فراق دام أعوامًا، حين بسطت لها ذراعيها بكلّ إخاء، وضمّتها إلى صدرها بلا عتب ولا مقدّمات. للحظة، تكاد تقفل الخطّ في وجهه، لكنّها تتمالك أعصابها، وتكتفي برمي سلام ناشف عليه.

هكذا هم الأطبّاء (ترجع رأسها للخلف تفكّر)، همّهم الوحيد أن ينتفعوا من مرضاهم. باتوا مثل معظم لبنانيّي اليوم، سماسرة وحيتاناً وثعالب.

تتحقّق من ساعتها وتنطلق إلى عيادة تقويم النّطق حيث تُعالج حياة. اليوم هو التّاسع لابنتها هناك. وزارة الصّحّة تكفّلت بنفقات العلاج كاملةً إثر مجيء الوزير بشخصه إلى المستشفى، قبل خمسة وأربعين يومًا (شباط 2004)، وسط حشدٍ حافل من الصّحافيّين طمأنها أمامهم، فيما الكاميرات تلتقط عظمة اللحظة،

أنّه سيكون بإمرة ابنتها كلّ ما تحتاج إليه من أطبّاء وأدوية، وكلّه على نفقة الوزارة، كرّر القول مرّتين، وبنبرة عالية، وهو يصافحها بحرارة. بعد ذاك اليوم، وتزامنًا مع تداول الإعلام جرائم هلال وبثّه تقارير مفصّلة عنه وعن سير محاكمته، غدت ابنتها أحد أحاديث البلد. ولاحقًا، بعد تحديد هويّات رُفات الأطفال المغدورين، زارتها في بيتها لجنة من ذويهم، يرأسها قصي الطّويل، شابّ اغتُصب شقيقه المعوّق البالغ عشرة أعوام. طلب أعضاء اللجنة منها أن تؤازرهم في تحرّكاتهم الدّاعية إلى إعدام هلال، لكونها والدة الشّهيدة الحيّة – اللقب المستهلك الذي أطلقته أقلام الصّحافة على حياة. إلّا أنّها صدّتهم برفضها رفضًا نهائيًا. نصحتهم بالمضيّ قُدمًا في حيواتهم، معتبرةً أنّ من واجب الدّولة الاستجابة لمطالبهم دون أن تحوجهم للنّزول إلى الشّارع.

– لكنّ الإعدام ليس ساري التّنفيذ في لبنان، رغم أنّ القضاء ما زال يستصدر فيه أحكامًا. ونحن بحراكنا المستبق صدور حكم الإعدام بحقّ هلال، بإمكاننا يا مدام ندى أن نشكّل قوّةً ضاغطة على الدّولة، لتعديل قانون العقوبات وتعليق مشنقة المجرم فور صدور الحكم، ودون مماطلات تزيد قلوبنا حرقة.

– المعذرة أستاذ قصيّ. لن أنزل إلى الشّارع وأحرق أعصابي لألفت انتباه دولة لا تنظر إلى شعبها سوى في المناسبات. لِمَ أهتمّ بقضيّة لست واثقة إن كانت ستجلب لي أو لحياة نتيجة؟ أريد أن تكمل ابنتي حياتها في سكينة. لا أريد أن أتعبها. كفاها كلّ ذاك التّعب.

– تؤثرين السّكوت على المطالبة بحقّك؟ انظري إلى ابنتك، أيرضيك ما حلّ بها؟ ألا تريدين محاسبة من أسكتها للأبد؟

– ما دام سيتعفّن في السّجن، أعتبر أنّ حقّي وصلني.

– وحقّ حياة، هل وصلها!؟

– ابنتي لن تأخذ حقّها إن أُعدم هلال. حقّها ليس معه. إنّه بيد شخص آخر، وسأنتقم لها منه أيّما انتقام. أنا أقدّر جهودك، لكنّي أخشى أنّك تضيّع وقتك معي. حظًّا موفّقًا أستاذ قصيّ.

فضلًا عن ذلك، رفضت تلبية دعوات المحطّات التّلفزيونيّة للظّهور في برامجها الحواريّة، لأنّها لا تحبّذ ترك حياة بمفردها مع المستخدمة الفيليبّينية، ولأنّ ما خبرته في الوسط الفنّي يجعلها مدركة أنّ حياة، لدى مديري البرامج، مجرّد مادّة دراميّة تستجدي تعاطف النّاس، وتجلب نسب مشاهدة مرتفعة. وهي تأبى أن يستغلّ كلّ من سوّلت له نفسه ابنتها، لقد استُغلّت كفايةً حتّى الآن.

في العيادة المكتظّة، ترحّب بها السّكرتيرة:

– تفضّلي ارتاحي. أوشك الدكتور أن ينتهي.

تبتسم ندى وتجلس على كرسيٍّ أسود لصق الزّاوية.

– وجهك ليس غريبًا عنّي.

تقول السّيدة الثّلاثينيّة الجالسة عن يمينها تتفحّصها.

– حضرتك مطربة، إذا مش غلطانة؟

يفترّ ثغر ندى عن ابتسامة تقول «حمدًا لله، ما زالت هناك آذان في البلد».

– غنّيتك الجديدة بتعقّد، والحلو أنّك لا تسيرين خلف موضة الخلاعة الدّارجة. وغلاوة إبني اشتقنا للفنّ.

تودّ ندى شكرها على إطرائها. تفتح فمها وتقفله. المرأة تجترّ الكلام دون انقطاع. متى تأخذ نفسًا؟ تكتفي ندى بالابتسام. تهزّ

رأسها صعودًا، ثمّ تُنزله.

– بالمناسبة، من لديك هنا؟ العمى ما هذا الزّمن؟ قديمًا لم نكن نسمع سوى بالحمّى والتّيفوئيد. هلّأ كلّ يوم بيطلعوا الدّكاترة بفنّة جديدة. الله يستر، قرّبت يا ستّ... لا تؤاخذيني، نسيت إسمك...

– ندى.

تهمس لها. لكنّ المرأة لا تكترث حتّى لسماع الاسم. تواصل الحديث:

– الله وكيلك إبني صار تسعة، على عدد هالصّبيع (تنشب تسعة أصابع غليظة)، ولليوم ما بيعرف يقول كلمة على بعضها. (تمسك بيمناها كتف الصّبيّ الجالس بجوارها ساكتًا، يتأمّل رسوم البلاط الكاريكاتوريّة، وتردف بالوشوشة) أوقات بيفضحني. لا يمرّ يوم إلّا تجدينه راجعًا من المدرسة عينه متورّمة، وبيده إنذار من الإدارة. يعني بلا مؤاخذة، لولا معارف زوجي الواسعة الله يحميه، لما قبلته مدرسة. ربّي أَعِنّي على حياتي. النّحس سيركبني إلى التّابوت. لقد تأخّر الدّكتور إيه؟ أأزعجتك بكلامي؟ يبدو أنّي فعلت. خلص، سأسكت.

لا تلبث ندى أن تَشيل برأسها سلبًا، فتعاود المرأة مقاطعتها:

– آه ابنك أو بنتك جوّا مع الدّكتور. لأنّي لا أرى أحدًا معك. تأتأة أيضًا، أم خرس؟ (تضحك مُربِّتةً كتف ندى) إنّي أمزح، أعتذر، دمي يثقل عند الضّجر.

تواصل المرأة قهقهاتها وكلامها العشوائيّ، حتّى تكاد ندى تخبرها أنّ ما تبحث عنه لن تجده هنا. فصغيرها لن يكون متمرّسًا في النّطق، ما دام لسانها يتكلّم نيابةً عنه. لكن سرعان ما تتذكّر أنّها ليست أفضل حالًا منها، وأنّه لا يحقّ لمن في مثل وضعها أن

يوزّع الأحكام، فتلزم الصّمت، وتعدّ الثّواني بنفاد صبر، إلى أن يُفتح الباب عن السّكرتيرة، خلفها حياة حانية الظّهر، مُسبلة العينين، في كنزة رماديّة وبنطلون جينز وجاكيت سوداء تبرز نحولها.

– دكتور شمعون يريدك في أمر هامّ.

تقول السّكرتيرة حين تهمّ ندى بأخذ يد حياة.

– انتبهي إليها.

تومئ السّكرتيرة تأكيدًا، فتطلب إلى حياة الصّامتة كغيم بيروت في الخارج الجلوس على كرسيٍّ لصق مكتبها، فيما تدخل ندى مكتب الطّبيب آملةً الخير.

بعد الترحيب والمصافحة يقول الطّبيب:

– لن أطيل عليكِ مدام ندى. أودّ إعلامك بأنّ حياة ستتكلّم، أو بالأحرى، تتكلّم.

يعلو حاجبا ندى فوق عينيها البنّيّتين الصّغيرتين، فيتقوّس في جبينها خطّا تجاعيد متوازيان:

– كيف؟ أحاول أن أحكيها كلّ يوم، لكنّها لا تردّ. وإن فعلت، تهزّ رأسها وحاجبيها فقط، أو تتلفّظ بكلمات صغيرة متشابهة. لا أعرف. أعتقد أنّ حياة صارت عمياء، أو صمّاء، أو بكماء، أو... كلّها معًا.

– لا تخافي. (مع ابتسامة) ليس هناك شيء ممّا تهجسين به. لقد اكتشفت من الفحوص وتحاليل الأشعّة وجلسات العلاج أنّ ابنتك لا تشكو من شيء، على مستوى وظائف الجهاز الكلاميّ طبعًا.

يدرك الطّبيب الأربعينيّ الوسيم أنّ ندى لم تفهم، إذ يلحظ في لغة جسدها نفيًا أقرب منه إلى استهجان. يوضّح:

– ببساطة، حياة قرّرت أن تسكت. حالة سيكولوجيّة نادرة تحدث غالبًا نتيجة تعرّض الطّفل لموقف منفّر، اسمها Selective Mutism أو... الصّمت الانتقائي. المصاب يحكي بشكل عاديٍّ جدًّا، لكنّه يختار السّكوت بمحض إرادته لدى وجوده في مكان ما، في موقف ما، أو مع أشخاص محدّدين. (تختفي ابتسامته) يعني في حالة حياة، للأسف، مع حضرتك.

صمتٌ... انتقائيّ؟ ترتعد ندى للمصطلح. تتذكّر تلك الكلمة في أوراق حياة، السّكين التي ستظلّ تنحرها: «أكرهك».

– أتعني أنّ حياة... ابنتي... تكلّمت معك؟

– في أوّل جلستين لم أستطع استنطاقها. بطبيعة الحال، ظننت أنّ مشكلةً ما أصابت حبالها الصّوتيّة، أو أنّ في اللارينكس ورمًا أو ضررًا أو ما شابه. لكن ابتداءً من الجلسة الثّالثة، وفي تلك المرحلة كنتِ توقّفت عن حضور جلسات العلاج، صار كلام حياة يتزايد تدريجًا. معي، ومع سائر طاقم المركز. صار يتزايد على نحو فجائيّ لا ينمّ عن وجود ضرر فيزيولوجيّ. طبعًا أنا لم أودّ إخبارك، إلّا بعد أن اطّلعت على ما يكفي من مراجع، وصرت متأكّدًا ثمانين في المئة من طبيعة الحالة. (يلحظ الطّبيب دموعًا فارّةً من مآقي ندى، فيلطّف نبرته) الموضوع للوهلة الأولى مخيف. لكن اطمئنّي. علاج حياة ليس فيزيولوجيًّا، لأنّ الضّرر نفسيّ. ورغم تشخيصنا للحالة في سنٍّ متأخّرة كهذه، من الممكن ألّا يطول العلاج، لأنّ الاحتكاك المباشر بالمريض، أي حياة، بمسبّب المرض، أي أنتِ، حصل من حوالى شهرين فقط. وهذا قد يوفّر على المعالج النّفسي جهدًا مضاعفًا.

يروح الطّبيب يشرح باقتضاب عن المرض، فيما ورق الجدران المزخرف يستحيل في عيني ندى صفحات بيضاء، تُحبَّرُ بالكلام في مذكّرات حياة، الكلام الذي لفرط ما قرأته حفظته عن ظهر قلب، وصار كالوشم مرسومًا على عدستيها.

– سأبدأ بالتّنسيق مع الوزارة لتكليف معالج نفسيٍّ، ونقل ملفّات حياة إليه، وتشكيل فريق عمل معه لوضع خطّة علاجيّة.

– دكتور أخشى أنّني ضعت...

– اسألي. لعلّ الصّورة تتوضّح.

– حياة قرّرت الصّمت لما تعرّضت له من تهديد وترهيب واغتصاب؟

– قديمًا، كان الأطبّاء يعتقدون أنّ الصّمت الانتقائي ناجم إمّا عن تحرّش أو إهمال أو صدمة. لكنّ الدّراسات الحاليّة تشير إلى أنّه ما من دليل قاطع على ذلك.

– إذن ما السّبب؟

– سأسمح لنفسي بالقول إنّ ما ذكرتِ، إضافةً إلى أنّ حياة بطبعها فتاة خجولة انطوائيّة قلقة اجتماعيًّا، وأنّ حضرتك قرّرت فجأةً استرجاعها وهي في حالة متأزّمة، بعد ثلاثة عشر عامَ فراقٍ لم يتخلّله حديث واحد بينكما، كلّ هذه العوامل أسهمت في انتقاء ابنتك الصّمت.

– لا أفهم...

– الإنسان تركيبة كيميائيّة معقّدة مدام ندى، اضطرابها سببه غالبًا الطّفولة الـمُعذَّبة. دعيني ألخّص لك بيولوجيا الصّمت الانتقائي. هذا المرض، الذي قلت إنّه نتيجة عدّة مسبّبات، تُفَسَّر عوارضه بأنّ حاملها ذو عتبة اهتياج منخفضة في منطقة من الدّماغ

تدعى أميغدالا. حين يُجابَهُ المريض بعامل مخيف، تتلقّى هذه المنطقة إشارات خطر محتمل، فتبدأ بإطلاق سلسلة من ردّات الفعل لتمكّن الفرد من حماية نفسه. وفي حالة حياة، العامل المخيف هو... أنتِ؛ عيناكِ، وجهكِ، وربّما... صوتك.

بعد إطراقة صامتة:

– أفهم أنّ حياة آثرت الصّمت كطريقة لتجنّب القلق الذي تشعر به معي، أنا التي أتوقّع منها أن تكلّمني، بعدما انتظرتني هي عمرًا طويلًا لأكلّمها بلا جدوى؟

– بالضّبط. وانتظارك منها أن تتكلّم يفاقم شعورها بالخوف وعدم الأمان، فيما تتلاشى فيها هذه المشاعر جزئيًّا أو كلّيًّا حسب الأشخاص حولها. فمعظم المرضى، حين يجدون أنفسهم في بيئة مريحة، يعودون طبيعيّين نفسيًّا وسلوكيًّا.

– وهل أنا الوحيدة التي تشعرها بالخطر لتختار السّكوت في حضوري فقط؟

– ليس بالضّرورة. إلّا إن كانت لديك معطيات جديدة لا نعرفها، تثبت العكس.

– ...

– يشكّل كلّ مريض بالصّمت الانتقائي حالة خاصّة. فالعوارض قد تختلف بين مريض وآخر. يمكن مثلًا لأحدهم أن يصمت في المدرسة ويتكلّم بطلاقة في البيت، ويمكن العكس تمامًا، ويمكن أن يصمت أمام كلّ النّاس، أو أمام البعض، ويمكن أن يتواصل عبر الكلام أو الوشوشة.

– إذن كيف أعرف إن كنت وحدي من يخيف حياة؟

– هل أعلمك أحد أنّ ابنتك تكلّمت معه؟ كالخادمة أو صديقتك أو أمّك؟

– حتّى الآن لم يحدث أن كان أحد أصدقائي أو معارفي وحده مع حياة. منذ أن حلّت المصيبة، وهي نصب عينيّ. يندر أن تغيب عنهما. وإن حدث واضطرّني مشوار أو عمل يستوجب قضاؤه لمفارقتها، لا أغيب عنها أكثر من ساعة. نهاراتي ولياليّ غدت مكرّسة لها. هل هذا يلحق بها مزيدًا من الأذى؟

– ليس بالضّرورة. كما أخبرتك، احتكاكما المباشر لم يزل في بدايته.

تسبل ندى هامتها وتقول:

– لو أنّ أختي لم تخبر حياة أنّي أمّها، لو لم تُرِها وجهي في الصُّوَر، لما تطوّر خوفها هذا. (ثمّ تتحوّل إليه وتضيف من دون أن تنتظر جوابًا) تُرى، في أيّ صورةٍ تراني ابنتي؟ غوريلّا؟ غولة؟ أم... سفّاحة؟

تغادر ندى العيادة مرتجفةً كمن صعقته الكهرباء. لا تدري متى تسترجع الإحساس بأطرافها. تنزل برفقة حياة إلى موقف السّيّارات، وتعود أدراجها نحو المنزل.

– حبيبتي...

تخرج الكلمة من قطران حنجرتها مكسورةً، مجبولة بألف كلمة مُستترة. ثمّ تدهمها رغبة في النّزول عند قدمي حياة وتقبيلهما، توسّلهما أن تدهساها، أن تكسرا عظم يديها اللتين أوصلتاها إلى هذا. يا للمسافة التي تزداد يومًا تلو يوم بينهما. كأنّما حبل الوريد الذي ربطهما ثمانية أشهر لم ينقطع، بل بقي يطول، ويطول، لثلاثة عشر عامًا، دون توقّف.

في طريق العودة، يهطل المطر رشيقًا. تشاء حين تشغّل مسّاحات الزّجاج لو تمتدّ يد حياة إلى وجهها لتمسح عنه الدّموع. منذ واحدٍ وخمسين يومًا وهي تشاء وقوع معجزات كهذه، لكنّ كلّ ما تشاؤه يضيع سدى. أينه الآن يا ترى؟ أين يختفي حين تعوز معجزةً تردّ الرّوح؟ منذ زمن وهي تطرق الأبواب بحثًا عنه، بابًا تلو باب، وبلا كلل؛ لم يبقَ باب لم يُغلق على أصابعها. منذ زمن وهي تبحث عن سبيلٍ إلى رحمته؛ لم يبقَ سور أمامها لم يَشهَق. يا باسط الأرض ورافع السّموات، ألم تسأم بعد كلّ هذا الكرّ والفرّ؟ ألا ترى أنّ هذه المرأة المسحوقة سئمت البكاء طوال الليالي؟ سئمت مناجاتك عسى ترنو لهوانها لحظةً؟ هذه المرأة التي أسقمتَها قد سئمتك! الكفر يمور في قلبها، وغشاوة غضب مهشّم تعمي بصرها. لا أحد (يحتدّ صراخ أعماقها) كما يدّعي كثرٌ، فوق، كي يسمعها. إنّها، شأن كلّ الناس، وحدها. وما من كائنٍ سامٍ، ما من سماءٍ سابعة، إنّها سماء واحدة ضاقت بها، وكلّ ما عداها محض كذبة! ها هي تحسم الآن قرار إلحادها. تحسمه لا لأنّها تتأكّل من الدّاخل كبنزين السّيارة، بل لأنّها وصلت مع الله إلى طريق مسدود. القرار نتاج ليالٍ من الشّكّ والبحث والتّأمّل، تحصيلٌ حاصلٌ لكلّ ما اكتشفت وخبرت وقاست منذ زمن. اسمع يا أيًّا من تكون (تقرّر وضع حدٍّ نهائيٍّ للمعركة الدّائرة في رأسها)، مهما كان سبب إيجادك لهذه الحياة، فاعلم أنّه أوهن، بل أسفه، من أن يكون!

مع توقّف المطر، ينسرب إليها شيء من هدأة ما بعد العاصفة. وفي التفاتة خاطفة إلى حياة، تجدها – كما عهدتها منذ واحد وخمسين يومًا – في عالم آخر، لوح ثلج، تنظر بغموض خارج

زجاجها المغبّش، شعرها الأسود النّاعم يغطّي جزءًا من وجهها، وشعرتان بيضاوان لم تلحظهما قبلًا تلوحان لطرْفها. جسدها المتفتّح جامدٌ هو أيضًا، لا يتجاوب حتّى مع انعطاف السّيّارة أو كبح الفرامل عند مطبٍّ يظهر من العَدَم. أَسَواءٌ يا حياة أمُّك والعَدَم؟

يعود المطر. يعود على شكل حبّات بَرَد صلبة تكاد تخترق أجسام السّيّارات العالقة في زحمة. الزّحمة خانقة. هذا يتذاكى ويجتاز يمينها ليشكّل صفًّا آخر متسلّقًا الرّصيف، وذاك يطلق العنان لزمّور لا يقدّم ولا يؤخّر. ضجّة. ضجّة بشعة تلوّث سمعها، فتضع شريطًا لأسمهان في مشغّل الكاسيت، وترفع الصّوت عاليًا:

يا طيور غنّي حبّي وانشدي وجدي وآمالي
للّي جنبي واللي شايف ما جرى لي
أشتكي له يبتسم ويزيد ولوعي...

ماذا ستتكبّد تلك التي جنبها يا تُرى، تلك التي تغنّي لها وجدها وآمالها، تلك التي تراقب بصمت قاتل كلّ ما يجرى لها، تلك التي تشكو إليها سدًى وهنها ويأسها، ماذا ستتكبّد لو أنّها ابتسمت، ابتسمت فقط؟

يا لخامة أسمهان وإحساسها اللامتناهي بالكلمة واللحن. أحيانًا تشعر كما لو أنّ أغنياتها تخاطبها هي بالذّات. تخاطب حياتها، من المهد حتّى الآن:

لو كان بيعشق ونابه حظّي وانا سهران
لا كان بكى من عذابه وناح مع الكروان...

الموسيقى؛ هذا هو دينها. لقد حسمت للتّو هذا الأمر أيضًا. ألم يكن أجدى أن تعتنقه منذ سنوات؟ كم كان سيوفّر عليها من

مشاقّ!

تحين منها التفاتة أخرى إلى اليمين، لعلّها تلمح في عيني الصّامتة سراب تفاعل مع لحن السّنباطي. لكن لا مستجدّات. عدم. حياة في عالم يفيض بالعدم. لو أنّها تستطيع دخول هذا العالم. لو أنّها تستطيع الاقتراب من أسواره.

يمضي ربع ساعة. عجلاتها لم تتجاوز الخمسمئة متر بعد. لقد تأخّرت عن الموعد. وستتأخّر أكثر إن بقي السّير على هذه الحال. رسالة أخرى من كريم – مدير أعمالها الجديد – تصل إلى جوّالها. «أينك؟ ستّي صارت واصلة من القبر!». تبتسم. تحبّ روح النّكتة لديه، أو بالأصحّ نبرته وتعابير وجهه الهزليّة عندما يُلقي بالنّكات. لهذا ربّما وثقت به، لهذا آمنت بأنّه لن يستغلّها كما فعل البغيض أدهم وهبي – مدير أعمالها الأسبق.

بعد أمتار يتّضح لها سببٌ للزّحمة آخر. كيف لم تحزر؟ إنّه الأفندي شرطي السّير، يقف وسط التقاطع ولا أحد يقيم لزيّه وزنًا، وبدل أن ينظّم المرور، يزيده تشابكًا. مع كريم كلّ الحقّ حين يشتم أمامها هذا البلد ويقول إنّه عفن، كلّ شيء يجري فيه بالمقلوب، هذا البلد الذي لا يستطيع المرء إلّا أن يكرهه ويحبّه بذات القدر. «حبّ حمّاري»، تستذكر وصفه، وتضحك.

يقرّر المطر أخذ استراحة، فتبدأ جموع السّيّارات الغفيرة بالانفضاض. أخيرًا، يُفرج طريقها. تنعطف يسارًا، من شارع أحمد الأسعد إلى الأوتوستراد البحريّ؛ البحر مهتاجٌ، ثائر، والموج يعلو فوق حاجز الكورنيش مُغرقًا الطّريق. بضع دقائق تصل بعدها إلى بيتها في شارع إميل سلهب.

– يلّا يا قلبي.

تأخذ بيد ابنتها. كأنّها درجتان تحت الصّفر. معًا تقطعان الطّريق، وترتقيان درج المنزل.

كريم ينتظرها في مقهى قريب للتّباحث معها في موضوع اكتفى بوصفه بالـ«سوبر هامّ». لذا ستضطرّ لأن تستودع حياة ماريبل، المستخدمة الفيليبينيّة المتخصّصة برعاية الأطفال (كلفتها أيضًا على عاتق الوزارة)، وتنزل لتلاقيه بسرعة.

مدخل شقّتها في الطّابق الثّالث.

ترنّ الجرس. مرّةً، اثنتين، أربعًا. أين ماريبل لا تفتح؟ تبحث وسط فوضى محفظتها عن المفتاح. حياة خلفها مُطرقة، يداها مشبوكتان أسفل بطنها، حتّى صوت نفسها غير مسموع. ها هو اللعين! تجده متدثّرًا بين فوطتين صحّيّتين. تضعه في الباب. تدفع الباب بمرفقها و...

– Happy birthday to you..

تنفجر في وجهها قصاصات ورق مزركش.

– Happy birthday to Nada!

وسط مجموعة من معارفها، يقع نظرها على كريم الذي يباغت دهشتها ويهرع نحوها. يستقبلها بضمّة. وقبلة. على خدّها.

– كلّ عام وأنت بألف خير يا حلوة.

صحيح. في مثل هذا اليوم حلّت أكبر لعنة على خليل خولي وهيام قصب. اللعنة التي من بعدها لم تتوقّف اللعنات. فكيف لها أن تنسى؟

لا تجد ما يُقال والكلّ يغنّي احتفاءً بها. حتّى صديقتها دلال التي هاتفتها قبل مدّة قائلةً إنّها لن تأتي السّنة إلى لبنان لانشغالاتها الكثيرة، حاضرة هنا. كم تصغر أمام كلّ من يكترث، ويُبدي لها حبّه

دون مقابل. يخطر لها أحيانًا أنّها لا تستحقّ كلّ هذا الحبّ، لا تدري لمَ، لكنّها تكره الشّعور حين يُضرم خجلها.

– مش من قيمتك طبعًا، بس ماشي الحال. مش رح ننكسر أكتر ما مكسورين.

يتناول كريم من جيبه هديّة ملفوفة بأناة ويقدّمها لها، فتزدان وجنتاها احمرارًا يتضاعف عندما يهتف الجميع بصوت واحد:

– افتحيها! افتحيها!

تسترق نظرةً إلى حياة ناسيةً لوهلة أنّها متسمّرة – مئة وخمسون سنتمترًا مع انحناءة – قربها؛ تجد ملامحها خالية إلّا من تعبير بالتّبرّم، تعزوه إلى كونها متضايقة من الضّجة. إلّا أنّ هذا لا يسلبها فرحتها، ولا يمنعها من الابتسام والنّزول عند إلحاح الجميع على فتح الهديّة.

في العلبة ما يلمع. تستلّه. خاتم فضّي مرصّع بماسة. وكريم جاثيًا:

– أتتزوّجينني؟

يبهتها صخب الحاضرين. عيونهم فرحة، تفوق الخاتم إشعاعًا. تلبد مكانها. ومن ذاكرتها، تُمحى الأبجديّة. إلّا ثلاثة من حروفها.

5

السّجن ليس الثّمانية أمتار مربّعة التي يقبع فيها منفردًا. لا. إنّه هنا. في ذاكرته. ذاكرته هي السّجن، والسّجّان، هي الجُحر الذي لا مفرّ منه سوى بكفالة قدرها حياته. لكن، لبؤس حظّ البعض، حياته لم تزل طويلة أمامه، وفيها أشياء كثيرة معلّقة، لم يُسوِّها بعد.

– هلال خولي. زيارة.

يُفتح الباب الحديديّ المتآكل عن حارس يقتاده مكبّلًا إلى حيث كان محاميه ينتظر. المحامي من أمهر محامي العاصمة. شيطان المحامين، كما هو متداول. سبق أن وكّل إليه جملة قضايا عقاريّة تخصّه، صدر الحكم فيها سريعًا لمصلحته. الرّجل داهية، ذلق اللسان، مُحنّك، ولديه علاقات جمّة في أوساط السّلطة القضائيّة. كيف لا وله ظهر وعنق وحبل شوكيّ لدى أحد الأحزاب السّياسيّة الكبرى، الـمُدلية بيديها ورجليها فوق معظم مرافق الحياة العامّة؟

– صباح الخير سيّد هلال.

يبادره المحامي الخمسينيّ بنبرة واثقة، جالسًا على كرسيٍّ بلاستيكيّ، إلى طاولة خشبيّة، في إحدى الغرف الرّماديّة. ينتظر

هلال خروج رجل الأمن وتمترسه على الباب ليقول:

– من الأخير، متى ستخرجني من هنا؟

– قريبًا صديقي.

– ومتى يكون ذلك؟ بعد شهر؟ شهرين؟ سنة؟!

وإذا به يتوسّل إليه ليخرجه من هنا. يكاد يجثم تحت قدميه لولا الأصفاد التي تكبّله. سيعطيه كلّ ما يطلبه (يقول له)، أموالًا، أراضيَ، فيلّا، كلّ ما يشتهيه، شرط أن يغادر هذا المكان الذي طال فيه مكوثه!

– سوف تخرج يا صديقي. لست أنا من يخلّ بوعد. لكنّ قصّتك كما تعرف حسّاسة بعض الشّيء، وتحتاج إلى وقت. ثمّ، لا ينبغي أن أظلّ أذكّرك، هناك ما يقرب من عشرين ضحيّة، والقضيّة أخذت حجمًا إعلاميًّا كبيرًا.

يحاول المحامي طمأنته بإطلاعه على بعض الإجراءات الجهنّميّة التي سيقوم بها تباعًا. يخبره أن يضع رجليه ويديه في ماء بارد، لأنّ اعتصامات ذوي الأطفال الضّحايا الـمُطالبة بتعليق مشنقته ستفقد مع الوقت الرّهج الإعلاميّ الذي خطفته، ولا سيّما أنّها خسرت دعم جمعيّات المجتمع المدني المختصّة بحقوق الإنسان وقضايا التّحرّش بالأطفال، لمعارضة الأخيرة فكرة الإعدام من أصله. كما أنّ البلد مشغول بأمور أسمى، كالانتخابات النّيابيّة والرّئاسيّة المقبلة، والمشاحنات المتفاقمة في كواليس السّياسة بين الرّئيس إميل لحّود المدعوم من سوريا، وحكومة الرّئيس رفيق الحريري المعارضة.

– فضلاً عن أنّ الإعدام أُوقف تنفيذه في تسعينيّات القرن المنصرم، لأنّه يحتاج إلى إمضاء رئيس قويّ للجمهوريّة، لا يتأثّر

بضغوط السّاسة ورجال الدّين، وهذا يُعدّ في بلد كلبنان مستحيلًا. لذا فإنّ مطالبهم أشبه بالصّراخ في الفضاء.

– لا يهمّني كلّ هذا. أريد أن أعرف بالشّهر واليوم متى سأخرج!

– ليه بصلتك محروقة؟ خروجك من هنا يا صديقي رهن بضعة أيّام لا أكثر. خذ منّي هذه البشارة. منذ الغد، ستنتقل إلى زنزانة خمس نجوم، فيها أفضل خدمة ومعاملة. كيفني معك؟

– مش منيح. سبق أن وعدتني بهذا منذ أوّل أسبوع لي هنا!

– يا هلال، أتودّ أن أذكّرك بأنّ كلّ الأدلّة تدينك؟ لكنّ روايتك الخاصّة للأحداث، وأرى أنّها كانت لعبة جهنّميّة منك، أوجدت لنا باب خلاص كان من الصّعب إيجاده. لذا فلتحمد ربّك على ما يغرقك فيه من نِعَم، لأنّ بنِعَمِه باب الخلاص سيُفتح. بكلّ صراحة وشفافية أقولها؛ دولاراتك خلاصك. فحافظ على هدوئك، لأنّي أنا تسلّمت القضيّة، وأنت تعلم ما يعني – لا يعنيني أن أتبجّح – أن يتسلمّ ربيع برّي قضيّة.

شيءٌ من الهدوء يعود إلى قلب هلال عندما يسمع تطمينات وخططًا ومستجدّات على مسار القضيّة، لكنّه لا يتمالك أن يتفوّه بسؤال عالق في حلقه يؤرّقه:

– وأنت تكفل ألّا يكون القاضي ممّن يريدون إقامة العدالة؟

يصدح ضحك المحامي البدين عاليًا، عاليًا حتّى يتّسع مَنخِراه، وتبزغ شعيرات أنفه الطّويلة:

– يا هلال يا حبيبي، لا أعتقد أنّ الواحد فينا يختلف على أنّ العدالة أجمل قتلانا. ولكنّنا حين نتناقش في ما بيننا بقضيّة القتل نفسها، ننقسم ثلاث فرق. الأولى هي أحمقها. مستعدّة حتّى الأبد لأن تنبش الأسباب وتتحرّى عن المجرمين والمتواطئين في

الجريمة. قد يذهب النّاس في هذه الفرقة أحيانًا كثيرة حدّ التّطرّف، فيلبسون الأسود حدادًا، ويشقّون الجبين لوعةً، ويوزّعون أصابع الاتّهام كيفما اتّفق، ظنًّا منهم أنّ تلك العدالة القتيلة سترجع يومًا لتنصفهم على حملهم قضيّتها برموش العينين. أمّا الفرقة الثّانية، فتعيش في المستقبل. حمقاء أيضًا، لكنّ حماقتها تستوجب الحذر. النّاس في هذه الفرقة يصبّون جامّ جهودهم في ابتكار كلّ الوسائل الممكنة لا لإيقاظ القتيلة، فهم واعون لحقيقة أنّ الموتى لا يعودون، بل لإنعاشها في الضمائر. إذن فإنّ إيمان هذه الفرقة ليس فارغًا، بل حقيقيّ هادف. ومن هنا يحبّذ على الفرقة الثّالثة أخذ الحيطة.

– وبالطّبع تريد أن تقول لي إنّك أنت من تلك الأخيرة!

– أحسنت. الفرقة الثّالثة يا صديقي ابنة اللحظة. لا ترحّب سوى بالأذكياء والدّهاة ومغتنمي الفرص. ولا تضمّ إلى صفوفها البكّائين والمتحسّرين ولا القانعين والقائلين لا لمصلحة. هذه الفرقة لا تبالي بماضٍ ولا بمستقبل، وآخر همّها معرفة هويّة الجناة أو إحياء القتيلة. وأمثالنا يا صديقي من هذه الفرقة. لم نجد في سواها ما يلبّي طموحاتنا. لذا، في غفلة من الحمقى الآخرين، سرقنا الجثّة وخبّأناها، بل تقارعنا نخبها وأقمنا على شرفها المآدب. شطارى، وكما يقال عنّا، صحّتين على قلب كلّ شاطر.

– أجل ولكن قضيّتنا...

– سنربحها! ولكن سيكون عليك أوّلًا التّخلّص من الخوف والشكوك، فإنّي أراها قد بدأت تلتهمك، وهذا ليس من شيم فرقتنا. نحن يا صديقي من يضحك في البدء والنّهاية. مفهوم؟

6

قبالة أمّه، يجلس بدر إلى طاولة مستديرة لصق جدار الكافيتيريا:

– خير؟ ما الموضوع الذي لا يُحكى على التّليفون؟

تردّ أمّ بدر وفي صوتها شجنٌ لا يتكلّف ابنها بمداراته:

– يا أمّي أنا خائفة عليك. ومنك. جافيتَني منذ سنتين لسبب لا أعرفه. أفهم أنّك أخذت موقفًا من لميا، لكن أنا أمّك، حرام أن تحرمني رؤيتك ورؤية أولادك. يا سيدي، إن كان السّبب الخانم زوجتك، فكرمى لك، سأذهب إليها الآن، سأستسمحها وأستغفرها وأقبّلها بين عينيها...

كمن يرغب بوأد الحديث في مهده، يكشّر بدر، يعرّض صدره، ويقول بصوته الغليظ:

– سبق أن نبّهتك إلى أنّكِ لحظة تدخُلين بيت لميا الذي آوت فيه ابنة الزّنا، لن تكوني راضية. (يردف مغتاظًا) تفضّلي انظري إلى ما فعلت بنفسها لتربّي ابنة أختها. خرّبت حياتها، قتلت ابنتها، والله العليم إن كانت ستعيش مجدّدًا!

تشهق أمّ بدر بالبكاء. تُبهت بالرّجل الذي كان طفلًا صغيرًا تتلقّفه يداها، فشابًّا بارًّا يمتثل لكلامها. لقد نذرت حياتها لأجله. ربّته

وكبّرته شبرًا بشبر، لتراه أمامها اليوم، بلحية كثيفة شعثاء، وشاربين محفوفين، يحاضر بها قائلًا:

– ومكَروا ومكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين.

ثمّ يعاجلها وينهض بقدّه المتين قائمًا، فور إتيانها على اسم ندى:

– بالله عليك، لمَ تصرّين على أن تسقميني بسيرة التي لا تُسمّى؟ خلصنا بقى!

تمدّ يدها الـمُعرَّقة لتستبقيه، لكنّها لا تطاله وهو يبتعد عن الطّاولة:

– يجب أن أغادر. لديّ مناوبة. (وكمن تذكّر شيئًا يعاود الاستدارة) فكّري بموضوع الحجاب. لا تدرين. يمكن أن يكون الحلّ. سلام.

ويمضي...

لا. هذا ليس بدر الذي تعرفه حقّ المعرفة. إنّه – رغم مكابرته وعناده – ذو قلب يُخدش بسهولة. لا يمكنها أن تخسره هو الآخر للأبد. لن تحتمل خسارةً أخرى. لم تزل تذكر ردّة فعله لحظة أخبرته قبل ثلاث سنوات، أنّ لميا التقت بندى في أحد مطاعم بيروت، وأنّها قرّرت وهلال رعاية حياة مؤقّتًا في قصرهما في برمّانا. غضب عند ذاك وثار، وكاد يلمّ الجيرة على صوته:

– اسمعي يا خديجة الأخبار الطّيّبة، اسمعي ما ينوي فعله الحمير لميا وهلال!

صاح مناديًا لزوجته التي (اللهمّ إنّ بعض الظّنّ إثم) كانت تسترق السّمع.

– شو؟ خير انشا الله؟

في لحظة كانت خديجة أمامهما، بلا حجاب، تفتعل الصّمم.

– من أين يجيء خير ولميا ستستقبل ابنة أختي الزّانية في بيتها؟ (ثمّ وجّه إصبعه الثّخين إلى صدر أمّه) قسمًا عظمًا، لو حدث ما قُلتِه، لا لميا أختي، ولا أنا أعرفها.

ومضى...

لم تدخل معه في أيّ سجال آنذاك. اعتبرت الأمر فورة دم آنيّة تخمد مع الوقت. إلّا أنّ توقّعاتها لم تُصِب، إذ بقي بدر متشبّثًا بموقفه، وكما صرّح، وضع حدًّا نهائيًّا لزياراته، النّادرة أساسًا، للميا. وفي السّنة التّالية، عام 2002، حين ألمّ بلميا المرض العصبيّ، صارت تتردّد أسبوعيًّا إلى قصر ابنتها لمساعدتها في أعمال الطّبخ والتّنظيف وللاعتناء بسوسن وحياة، فكان ذلك بمثابة الشّرارة التي أشعلت المعركة الكبرى بينها وبينه:

– إلى أين، من غير شرّ؟

فوجئت بخديجة توضّب حجاباتها في حقيبة ثياب، لدى عودتها من عند لميا بالتّاكسي.

– إلى صيدا.

أجابت الحرباء دون أن تعيرها نظرة.

– ومن لديك في صيدا يا حلوة؟

التفتت خديجة إليها وعلى وجهها ملامح شماتة مستعرة:

– أتظنّين أنّي سأحرد مثلًا؟ (وعلا ضحكها الذي يذكّرها بقرقعة شرشبيل في مسلسل السّنافر) لا ما حزرتِ يا حماتي!

عندها أدركت أمّ بدر ما ترمي إليه ابنة علي حلّاق الممسوخة نفسيًّا. بدا لها من ثياب بدر الموضّبة أنّ الأمر يخصّ شخصها بالذّات. وكمن قرأ علامات استفهام ذهنها، شرحت الكنّة:

– أنا وابنك سننتقل إلى صيدا بعد غد. وجدنا شقّة مفروشة استأجرناها. من دون علمك طبعًا. أتحبّين أن توصينا بشيء؟

طار عقلها. أكانا يخطّطان للانتقال دون معرفتها؟ أيقنت إذّاك أنّ كلّ قرار خائب صار بدر يتّخذه سببه وسوسات زوجته الأفعى – يا الله كم تثير اشمئزازها! حتّى اليوم، لم تزل تجهل السّبب الذي جعل بدر يلهث وراءها. فلا جمال، ولا منطق، ولا أخلاق تتحلّى بها. كارها الوحيد هو الاحتيال والمخاتلة. لقد فعلت الحرباء المستحيل لتحشو رأس بدر بالكراهية تجاه عائلته. عام 1992، بعد سنة على هروب ندى وطفلتها اللقيطة من المستشفى، كانت العاصفة قد هدأت في صدر بدر، لأنّ حناجر النّاس كلّت من تناقل الفضيحة وكادت تنساها تقريبًا. عامذاك، دخلت خديجة بيت العائلة بعد خطوبة دامت عامين، رغم أنف أمّ بدر التي اعترضت عبثًا على خيار بدر المفتقر للذّوق، ومع دخولها غدا الأخير خلخالًا يزنّر قدمها، تلبسه وتخلعه متى شاءت، وهو راضٍ حتّى الثّمالة. كيف لا وعيناها في حضرته لا تتوقّفان عن ذرف الدّموع إثر كلّ مشكلة تفتعلها في غيابه؟ إنّها حيّة بمئة رأس، ممثّلة من الطّراز الرّفيع، تمتهن الإغواء والتّرويض، وتتقن التّصويب إلى مكامن الضّعف. هذا ليس غريبًا عنها حفيدة إسحق حلّاق! حفيدة بقّال الضّيعة الذي علم النّاس إزاء مقتله الغامض عام 1981 أنّه عميلٌ إسرائيليٌّ متخفٍّ! خديجة... خديجة لا وجود لكلمات تفيها الوصف، حتّى لو بقيت دهرًا تبحث في المعاجم. إنّها الوسواس الخنّاس، الذي لا ريب سحر ابنها لينفّذ كلّ طلباته ومن ضمنها تجديد البحث عن ندى وحياة. وحين رُزقت عام 1993 بأوّل طفل، أبت إلّا أن تسمّيه على هواها، من دون أيّ اعتراض من بدر، فخديجة بنظره أمّ الصّبي،

يحقّ لها أن تفرح بتسمية ابنهما البكر «عليّ»، تيمّنًا بأبيها، ثمّ إنّ الاسم (راح يقنع أمّه) فتيٌّ ومحبّب، ولا ضير من تسمية الصّبيّ الثّاني «خليل»، على اسم المرحوم أبيه. غير أنّ خليل لم يأتِ إلّا بعد سارة، فبتول، فعائشة، وهذا ما فاقم كرهها لخديجة ونفورها من عليّ، فالصّبي برأيها «خنطق منطق» من أمّه. «بزقة وبزقتها!» بطنًا تلو بطن، صارت خديجة تمسك بدر من سلسلة ظهره بقبضة أقوى، حتّى استطاعت أن تزرع في مخّه أنّ أمّه متضايقة من وجود ذاك الكمّ من الأولاد في أرجاء بيتها، وأنّها تنبّ في وجوههم كلّما عادت من مرعى أغنامها، وتكشّهم عنها بلؤم إذا ما اقتربوا لملاعبتها. وبعد بيعها عام 1998 رؤوس الماشية لتفتح دكّانًا قرب المنزل، ازدادت مشاكلها مع خديجة، واستفحل التّوتّر في دار العائلة، وهي ساكتة عن تصرّفات الكنّة، دائمة الاعتذار إليها في حضرة بدر، ودائمة التّودّد إليها في غيابه، عسى تلقى ولو رغيفًا من خيرها. لكنّ محاولاتها باءت جميعها بالفشل، فلخديجة أجندة خفيّة كانت – كما يبدو لها اليوم – تعمل عليها منذ زمن، وقد نجحت في تحقيقها، إذ عقب اتّصال لميا عام 2001 طالبةً إلى بدر وأمّه الحضور على الغداء وحدهما، واعتذار بدر عن تلبيتها معتبرًا أنّ في دعوتها تحقيرًا لوجود خديجة، ثمّ اكتشاف أمّ بدر حول المائدة أنّ الفتاة الجديدة في القصر هي حياة (ابنة الزّنا، كما لم يمسك بدر يومًا عن وصفها)، صارت مكسر عصا لا لخديجة فقط، بل لبدر أيضًا، الذي اتّهمها لاحقًا بالفسق لوجودها في ذات المكان مع ثمرة حرام، هي التي (حسب قوله الصّادق للأسف) كانت تريده منذ أعوام أن يئدها، ويمزّق الرّحم الذي أنبتها... وفي ذاك اليوم المشؤوم من 2002، بينما كانت خديجة لا تزال توضّب الحقائب،

فرحةً حتّى أذنيها الكبيرتين بأنّ أجندتها الخفيّة نجحت أخيرًا، خُيّل إلى أمّ بدر أنّ الفاجرة تمدّ لها لسانها، فاستشاط غضب الشّياطين في صدرها المحموم، وخلال لحظات كانت بين خصل شعرها، تشدّها بحنق تخمّر فيها مدّة عشرة أعوام. لكن، ما إن رفعت يدها لتلقّنها صفعةً تنسيها تاريخها، حتّى ارتمت الفاجرة فوق السّرير، فاقدةً الوعي. قرصتها في خدّها لتكفّ عن استعراض قدراتها التّمثيليّة السّخيفة، لكنّ خديجة أبت الاستجابة حتّى للأكفّ التي انهالت على وجهها. فخشيت أمّ بدر أن تكون التّمثيليّة حقيقة، واتّصلت فورًا بمعمل الخياطة مستنجدةً ببدر الذي أتى على بساط الرّيح. جسّ نبض زوجته، فوجده طبيعيًّا. ثمّ زأر بأمّه طالبًا كأس ماء فاتر رشّ منه قطرات فوق وجه السّافلة، السّافلة التي فتّحت عينيها ببطء، كما لو أنّها تعود من الموت، ونهضت على نحوٍ دراميّ استدرّ دموعه. وعندما استدار إلى أمّه المسمومة من المنظر، واجهها بعصبيّة:

– خلص! الوضع ما عاد ينحمل. كنّا سنترك لك البيت بعد غد. لكنّي لن أنتظر. سننقلع من هنا حالًا لترتاحي!

ثمّ التفت إلى خديجة التي كان الدّمع يسيل على وجنتيها:

– سأذهب لإحضار الأولاد من السّاحة. اعملي معروف، أسرعي بالشّنط.

عاجلت خديجة خروجه الثّوري وهرعت تكمل التّوضيب تدندن وتتمايل تَشفِّيًا، بينما أمّ بدر مُسمّرة على عتبة الباب، بينها وبين الانهيار قيد أُنملة. ولدى عودة بدر مع الأولاد، سلّمها مفتاح محلّ الخياطة الذي ورثوه عن أبيه ونصحها ببيعه، ثمّ حمّل الحقائب في

شاحنته وخرجوا جميعًا، مكتفين بوداع بعيد، بارد، أبقاها مشلولة أسبوعًا بكامله.

واليوم، بعد مُضيّ سنتين على هجرها، ما زال بدر يعاملها ببرودة قاتلة. حتّى إنّه ما كلّف نفسه إعطاءها عنوان بيته في صيدا لتطمئنّ على أحفادها. ما عادت تراهم سوى في عيدي الفطر والأضحى، حين يزورونها مع أبيهم في كفرشوبا كالغرباء، لا لرؤيتها غالبًا، بل لقراءة الفاتحة على قبر جدّهم...

لن تصدّق كيف اختفى بدر من سمائها. كيف استطاعت دخيلة على بيتها أن تحتكر نوره لنفسها. لقد أفنت عمرها كي تراه رجلًا ولا سائر الرّجال. أين أخطأت بالضّبط؟

ها هي تراه الآن يجتاز الطّاولات، فمدخل الكافيتيريا، في شخصيّة جديدة لم تعهدها قبلًا. شخصيّة تلت عليها منذ لحظات آيةً قرآنيّة، ونصحتها، للمرّة الثّانية، بوضع الحجاب.

تسلّم مرفقيها وجه الطّاولة الدّبقة، وتطرق حامدةً الله لأنّ خليل مات قبل أن يشهد على كلّ هذه الويلات؛ ويلها من بدر الذي تشعر بأنّها خسرته للأبد، وويلها من لميا التي تترنّح خسارتها ما بين الحقيقة والأمل.

* * *

يشعر بدر بحاجة ملحّة لسماع المقرئ عبد الباسط عبد الصّمد يجوّد بتلاوة القرآن، إذ لا شيء صار يطفئ غضبه أكثر من آيات ربّه الكريمة. بعد لقائه أمّه التي طلبت رؤيته في أمرٍ كذبت عليه بوصفه هامًّا، لا يُحتمل تداوله هاتفيًّا، هرع خارج الكافيتيريا رأسًا نحو موقف السيّارات. لم يكد يجتاز مدخل المستشفى المكتظّ، حتّى اصطدم كتفًا بكتف امرأة استوقفته مقدار لحظة لتستغرب بعد الاعتذار إليه:

– بدر؟

يتكركب مزاجه.

– عاش مين شافك.

هي. تلك المخلوقة التي يشمئزّ لمجرّد ذكر اسمها. الزّانية التي أمضى سنوات يتقفّى أثرها لغسل شرف العائلة الملطّخ بعارها. ندى. أخته الكبيرة التي غدا إزاء فضيحتها مضغةً بين أنياب النّاس، يفصفصونها كلّما مرّ أمامهم، منكّس الرّأس. إنّها السّافلة التي استطاع بفعل الزّمن بالدّرجة الأولى، وتعاليم شيخه بالدّرجة الثّانية، التّخلّص من عقدة وجودها حيّةً تتنفّس، فصار جلّ ما يريده محوَ اسمها من ذاكرة العائلة. لكن يبدو أنّ هذه المخلوقة لن تحيد عن دربه إطلاقًا، لا بمصائب ابنتها، ولا بمصيبة لقائها هي، بعد ثلاثة عشر عامًا، على هذه الهيئة، واقفةً نصب عينيه المحمرّتين بملامح مستجدّة، ساخرة، جريئة، ثائرة، مثيرة لتلبّك المعدة، لا بمفردها، بل بصحبة رجل يتأبّط ذراعها، رجل بشوش أكثر من اللازم، يجاورها سنًّا ربّما. هِهْ، تسلية أخرى من تسلياتها المتعدّدة طبعًا. يا للعهر والوقاحة!

– مرحبا أستاذ بدر.

يمدّ إليه الرّجل الذي يماثله عرضًا وطولًا يُمناه، لكنّه يتجاهله مواجهًا ندى:

– أنتِ لن تكفّي شرّك عنّا أبدًا؟

تبتسم ندى:

– ما زلت، رغم هذه اللحية المستجدّة عليّ، بدر الذي أعرفه. لا راح ولا إجا.

محاولًا الحفاظ على هدوئه:

– كلمة وردّ غطاها. ابتعدي عن دربي أفضل لكلينا.

ثمّ يمطّ زاويتي فمه ويقول مشيرًا إلى كريم، من دون أن يلتفت إليه:

– هذا الحلو هنا... ما رقمه؟ سبحان الله. يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون.

وما إن يهبّ مغادرًا وعلى وجهه نشوة انتصار، حتّى يثقب صوت ندى طبلتي أذنيه:

– يا خسارة يا شيخنا. كنّا نوينا أنا وكريم أن ندعوك إلى قبرص. لا يصحّ ألّا يكون الأخ حاضرًا في زفاف أخته!

مع أذان الظّهر، يصل بدر إلى مدينة صيدا. يعرّج على جامع جعفر بن أبي طالب الذي يرتاده بانتظام منذ ما يقرب من سنتين، يصلّي الرّكعات الأربع، يتبعها بالاثنتين السُّنّة، يلقي السّلام على شيخه وعلى بعضٍ من معارفه، ويقفل عائدًا إلى البيت حيث خديجة بانتظاره على الغداء.

– السّلام عليكم.

تستقبله زوجته مرحّبة.

– وعليكم السّلام؛ ياه، ما هذا؟

تزكم أنفه رائحة الملوخيّة (خضراء، لا يابسة كما كانت تطبخها أمّه!)، فتطلب إليه خديجة انتظار الأولاد ريثما يصل باص مدرستهم، لكنّه يعتذر بأنّه لن يستطيع (لديه مناوبة حراسة بعد نصف ساعة)، فتعذره وتسكب له.

– قابلتُ أمّي وتكلّمنا.

تتبدّل ملامحها فجأةً، فتجلس بجواره تصغي له.

– لا جديد. الكلام الفارغ نفسه.

تهزّ رأسها غير مستغربة.

– لكن، حين خرجتُ من المستشفى، اصطدمتُ بالتي لا تُسمّى.

تفغر فاها:

– ندى؟!

يضع بدر ملعقة أرُزٍّ كبيرة في فمه ويومئ إيجابًا. تستفسر خديجة:

– أخبرني ماذا قلت لها؟ ماذا قالت لك؟ كانت بشعة كما في الفيديوكليب؟ لم أتعمّد مشاهدة الفيديوكليب طبعًا، كنت فقط أقلّب بين المحطّات ورأيتها صدفةً، أجل والله... قُل، ماذا؟

يخبرها بدر باقتضاب عن الوقاحة التي حدّثته بها. عن كونها أصبحت صوتًا وصورة لامرأة أخرى. يقول إنّه ما كان ليعرفها لولا أن شاهدها هو الآخر (بالصّدفة) تغنّي على الشّاشة، ويضيف أنّ الشّيء الوحيد الذي استفزّه هو تأبّطها لرجل من عمرها، صدمته بكونه سيصير زوجها قريبًا.

– ستتزوّج؟! بعد كلّ ما حدث؟ معقول؟ من المعميّ على قلبه؟

تُسدّ نفس بدر وهو يستذكر الحديث الذي دار بينهما، فيترك الصّحن ثلث ملآنٍ ويقول:

– القصّة ليست هنا. بل إنّها دعتني بكلّ عين وقحة إلى عرسها. الله أكبر. إنّ كيدهنّ عظيم.

تزمّ خديجة شفتيها:

– عرس؟ متى؟ وأين؟!

يستغفر بدر ربّه ويقول:

– في قبرص. أي زواج مدنيّ. الكافرة!

جاحظةً عينيها:

– لا إله إلّا الله!

يثور موج أسئلة خديجة، إلّا أنّها لا تلقى أجوبة تعزّي حشريتها، إذ يقوم بدر يغسل يديه ويغادر إلى العمل.

* * *

قبل سنتين، حين هجر بدر بيت العائلة عام 2002 إزاء تصرّفات أمّه التي ما أرضته ولا أرضت خديجة، ظلّ أسبوعًا بلا عمل. طرق أبواب نصف خيّاطي صيدا، متسلّحًا بباعه الطّويل في تجارة الأقمشة، من دون أن يلقى جوابًا إيجابيًّا واحدًا. بدايةً لم يفهم السّبب. لكن عند نهاية البحث، قال له أحد الخيّاطين بالحرف الواحد: «لا نوظّف غرباء». لم يقتنع. ناقشه، ماحكه، رجاه أن يختبره ولو لساعة من الزّمن. أنهى الخيّاط الحديث بأن قال حاسمًا: «ابحث عن عمل آخر؛ الخياطة لصيدا، وصيدا لأهلها». خرج من المحلّ الصّغير هائمًا بين الأزقّة، تائهًا لا يدري ما العمل، ثمّ قرّر أن يجرّب حظّه في صنعةٍ أخرى، خارج زواريب صيدا القديمة، إذ لا بدّ من أنّ ضيق المكان هناك قد ضيّق على صدور قاطنيه وسعتهم لتقبّل الغرباء.

في اليوم التّالي، بينما كان يدخل من مطعم إلى مقهى إلى متجر ثياب إلى محلّ خردوات في ضاحية المدينة، أي في صيدا الجديدة التي يقطنها غرباء توافدوا إليها نتيجة الحروب المتتالية من جميع المناطق، لفتت نظره ورقة ملصقة على زجاج متجر أحذية تقول بالأسود العريض «مطلوب حرّاس لقصر د. خالد عبّود بدوامٍ مريح ومعاشٍ مغرٍ». استفسر من صاحب المتجر عن عنوان هذا القصر وعن هويّة صاحبه. أجابه الأخير بأنّه يقع شمالي شرقي المدينة، ويسكنه رجل أعمال من ذوي النّفوذ والمال. شكره على

المعلومات وعاد إلى البيت يأخذ برأي خديجة. حثّته زوجته على الذّهاب والاستفسار عن الأجر ما دام لم يوفّق في عملٍ حتى الآن...

عصرًا، توجّه إلى هناك مع كافّة الأوراق التي يمكن أن تلزمه. ركن شاحنته بعيدًا عن القصر لأنّ الوقوف ممنوع في محيطه، ولدى وصوله إلى المدخل اعترضه شابّان فتّشاه ودقّقا في أوراقه الثّبوتيّة. سألهما مع من يستطيع التّحدّث في شؤون التّوظيف، فصرخ أحدهما لرجل دمِث يُدعى أحمد، خرج من إحدى الجهات وقاده إلى مكتب صغير فيه رجل مُهندم يعمل خلف الحاسوب.

– ماذا تعرف عن الدّكتور عبّود؟

تمتم الموظّف دون أن يرفع عينيه عن لوحة المفاتيح.

– صراحة؟ لا شيء. لا أعرف عن حضرته شيئًا.

أجاب بدر بتوتّر طفيف.

– حلوة الصّراحة؛ اسمك؟ عمرك؟ ماذا تجيد صنعه؟

– بدر خولي. 37 سنة. من دون عمل حاليًّا لكنّي... قبضاي... و... بعجبك.

– من أين؟

– كفرشوبا.

رفع الرّجل رأسه أخيرًا، هاتفًا إليه:

– أهلًا وسهلًا بأهل الجنوب. على راسي والله.

ابتسم بدر:

– يسلم راسك.

– أستغرب عدم سماعك بالدّكتور عبّود... إنّه جارك يا رجل. من الخيام. ودائمًا بخدمة الجنوب وأهله. ما علينا. أريد منك الهويّة

وإخراج القيد وصورتين شمسيّتين والسّجلّ العدلي وإفادة سكن. أجاهزة معك؟

ناوله بدر ظرفًا يحتوي على ما ذكره من أوراقٍ وأكثر، من دون أن يسأله عن الأجر أو ساعات العمل، تمامًا كما أوصته زوجته أن يفعل.

– في العادة نقوم بإجراءات روتينيّة يمكن أن تطول قليلًا، لكن بما أنّك من الجنوب، أفترض أنّ الدّكتور عبّود سيسرع بدرس طلبك.

ثمّ طلب الموظّف منه أن يدوّن رقم تليفونه، وينتظر من المكتب اتّصالًا.

خلال يومين فقط، أتت الموافقة، فنزل بدر إلى القصر حيث تسلّم زيّ ومهامّ الحراسة.

* * *

ما إن يصل بدر إلى القصر المطلّ على ساحل المدينة لجهة الغرب، والمسوّر بجدران مسلّحة تعلوها أسلاك شائكة مكهربة، حتّى يطلبه مكتب شؤون التّوظيف ليعلمه أنّ الدّكتور انتقاه من بين العشرات ليكون، من الغد، أحد حرّاس ابنه آدم.

معقول؟ يسائل نفسه. إلامَ استند الدّكتور ليؤثره على شبّان القصر، هو المقبل على أربعينه؟ هذا من فضل الله حتمًا. من نِعَمِه التي بدأ يغدقها عليه منذ أن اهتدى إلى طريقه. الشّيخ محمود كان محقًّا بقوله: «أحبّوا الله، يحبّكم».

يهرع خارج المكتب مُسِرًّا الخبر إلى صديقه أحمد المسؤول عن جداول مناوبات الحراسة. يبارك له الأخير ويطلب منه «حلوينة» الوظيفة الجديدة. يعده بدر بأطيب صدر كنافة على شرف جميع الحرّاس، ثمّ يغادر إلى البيت، زافًّا الأمر إلى خديجة.

تصفّر زوجته للمرتّب الذي سيتلقّاه، تكاد تلفّ خصرها بالحجاب المشلوح جانبًا وترقص، تصفّق، وتهلّل للامتيازات التي سيؤمّنها الدّكتور له ولأولادهما، وبيومي العطلة الأسبوعيّة اللذين سيمضيهما إلى جانبها.

يودّ بدر لحظتها أن يقبّل الدّكتور بين عينيه؛ ابن حلال (يروح يصفه لخديجة)، كلّ النّاس تشكر به، بكرمه، وإنسانيّته التي لا حدود لها، كم من درويشٍ على باب الله قصده ولم يردّه خائبًا، كم من ثكلى ومطلّقة ويتيم كفل، كم من ثغرٍ جائع أطعم، وكم من عاطل عن العمل وظّف، أمّا زوجته ديانا (يضيف بحماسة)، حفظها الله، فهي لايدي بكلّ ما للكلمة من معنى، لا تدع مناسبة خيريّة إلّا تحضرها، دائمة الابتسام، لطيفة، ورغم كونها أميركيّة، فإنّها، الحقّ يقال، محتشمة، ومحترمة، دائمًا ما تطمئنّ على أحوال الموظّفين في قصرها، وإن قصّر أحدٌ في عمله، تأتيه «من تحت»، لا ترفع في وجهه صوتها أبدًا!

يختم بدر مديحه لآل عبّود حامدًا الله على كلّ ما يهبه له منذ أن انتقل إلى صيدا. يرى أنّ أهمّ خطوة قام بها في حياته هي أنّه حسم أمره، حزم أمتعته، وترك بيت العائلة. بالطّبع لدى وداع أمّه كاد يدمع، لم يكن يريد أن تبرد بينهما العلاقة، في النّهاية تظلّ تلك المرأة أمّه التي تعبت في تربيته، لكنّ الحقّ عليها، هي التي لم تسمع كلامه وكلام خديجة المحقّ، هي التي تقبّلت حياة وتناست عار ندى، نبّهها مرّاتٍ إلى أنّ رعايتها لابنة زنا خطأ فادح وذريعة إضافيّة للنّاس تبقي أفواههم فاغرة على تجاذب سيرة فضيحتهم شبه المنسيّة، لكنّها ظلّت معاندة، معتبرةً أنّ ما فات مات، وأنّها لن تستطيع أن تحيا ما بقي من عمرها وفي قلبها حقد

وكراهية. لا. بالنّسبة لخديجة وله، ما فات لم ولن يموت. حتّى وإن تركا ندى أخيرًا تعيش في حال سبيلها (أولويّاتهما صارت عائلتهما الكبيرة)، لا تعرفهما ولا يعرفانها، فإنّ ذاك لا يعني أن يتغاضى المرء عن أفعالها. ذات يوم فاتح شيخه محمود بموضوع الزّنا، سأله إن كان يجوز دينيًّا أن يغفر المرء تلك الخطيئة بعد هروب مُقترفها. قال له الأخير لا، شرعًا لا يجوز، إن كان الزّاني أو الزّانية متزوّجًا أو متزوّجةً، فعقابهما، بعد الأخذ بأقوال أربعة شهود عيان، الرّجم حتّى الموت، وإن كانا غير متزوّجين، فعقابهما، إن ثبت الزّنا، بأربعة شهود أو بولادة، مئة جلدة، واستشهد بالآية ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾. لكن، ما دام لبنان لا يحتكم في قوانينه إلى الشّرائع الإسلاميّة كما في السّعودية مثلًا، حيث هناك من هو مخوّل شرعًا إقامة الحدّ على الزّناة، يمكن إيجاد عقاب آخر، يصحّ اعتباره هذه الأيّام جلدًا، ألا وهو النّبذ، نبذ الزّاني أو الزّانية اجتماعيًّا. أرضاه هذا الحلّ (المماثل أصلًا لقراره وخديجة النّهائيّ بترك ندى تعيش في حال سبيلها)، أداره في رأسه فوجده أشدّ قسوةً من الجلد الفعليّ، إذ تخيّل أنّ ندى المنبوذة ستجلد نفسها بعد زمن، وتأتيه على ركبتيها زحفًا، طالبةً المغفرة. كم هو ممتنّ اليوم لأنّه التقى بالشّيخ محمود. بل لقاؤه كان أهمّ من دخول قصر خالد عبّود قبلها بعام. فالشّيخ كان من اقتاده إلى الصّراط المستقيم. ما زال يذكر ذاك اليوم المجيد، يوم رآه أوّل مرّة. جاءه زميله الحارس أحمد يومها يقول:

– الدّكتور خالد يسمح لمن يصلّي من الموظّفين بالذّهاب ظهر يوم الجمعة إلى المسجد. يلّا، خمسون دقيقة ونرجع.

– لكنّي لا أصلّي. بانتظام، أقصد. للأمانة أشعر بأنّي مقصّر من هذه النّاحية، وزوجتي لا تقصّر، تذكّرني دائمًا بأنّي كذلك: أذّن العصر يا بدر. قُم صلِّ. أذّن المغرب يا بدر. لِـمَ لَـم تُصلِّ العصر بعد؟ وهكذا، منذ أن وضعت الحجاب بعد استشهاد أخيها عام 2000. لا تتعب أبدًا يا أخي!

– زوجتك محقّة. هيّا تعال معي. أعدك لن تفوّت ركعةً بعد اليوم.

فرافقه. طوال الطّريق، أخذ أحمد يحدّثه عن الشّيخ وشمائله. وصفه له بغير الاعتياديّ، أوّلًا من حيث جسده النّحيل المخالف للعرف السّائد للشّيوخ ذوي الكروش، وثانيًا من حيث الجوّ الذي نشأ فيه، إذ تربّى وسط عائلة غير متديّنة، عائلة تجهل الدّين تمامًا، من أبٍ كان مطربًا شعبيًّا يحيي الحفلات والأعراس، وأمٍّ كانت مزيّنة شعر نسائيّة، تعمل في البيوت عند الطّلب.

– كلّ هذا وصار شيخًا؟

ردّ أحمد بأنّ الله قادرٌ على كلّ شيء؛ يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء. ثمّ أردف:

– كان محمود في مراهقته يسكن في حيّ الدّكرمان الذي أقيم فيه أنا الآن، وممّا هو شائع هناك أنّ محمود لم يكن راضيًا عن شغل والديه؛ بينما والده يقدّم وصلته الغنائيّة في أحد الأعراس، يكون هو منزويًا بنفسه على سطح بيته، يطالع كتبًا أغلبها عن الدّين والفقه الإسلاميّ. وقد أخبرني جدّي المختار أنّ أبا محمود أتاه ذات يوم شاكيًا إليه ابنه. أخبره أنّ محمود معاندٌ، يريد أن يسافر إلى جامع الأزهر في مصر للدّراسة، بدل أن يغنّي في فرقته، علمًا بأنّ صوته يفوق صوت والده شجنًا، وأنّ حظوظه في الشّهرة عالية، نظرًا لصغر سنّه وهيئته الحسنة، وأضاف لجدّي أنّه لم يترك أحدًا إلّا

فاتحه بالمشكلة، لعلّه يستطيع أن يقنع ابنه. لكنّ جدّي كان أوّل من وقف في صفّ محمود، نصح أباه بأن يترك ابنه يفعل ما يشاء، وأن يفخر بقراره الشّجاع، لأنّه ولد مختلف عن نظرائه، ولديه مستقبل باهر ينتظره.

– وهل وافق الوالد؟

– بعضهم يقول إنّه وافق أخيرًا وأرسل ابنه إلى الأزهر، وبعضهم يقول العكس، أي إنّ محمود سافر رغم اعتراض أبيه. لكنّ المؤكّد أنّه لدى عودة محمود إلى لبنان، أوّلَ على دفعته، وحائزًا تنويهاً خاصّاً من مفتي الأزهر، انتقل والده لإحياء الموالد والأعراس الدّينيّة، ووضعت أمّه الحجاب.

راعت بدر القصّة، فعبّر لأحمد:

– أتدري يا زلمي؟ جعلتني أتوق لرؤية هذا الشّيخ.

ورآه... جلس قرب أحمد أرضًا، وسط جماهير غفيرة من النّاس، بينما الشّيخ محمود يؤذّن بصوت خاشع، خدّر حواسّ كلّ من في الجامع، بمن فيهم بدر، الذي لم يكن يهتمّ قبلًا لسماع أذان. وحالما تنفّس الشّيخ في الميكروفون، مستهلًّا خطبته بدعاء لمسلمي الهند الذين وقعوا ضحيّة مجزرة مجتمع جلبيرج في أحمد آباد نتيجة إحراق الهندوس لمنازلهم، صمت الجميع. حتّى الصّغار الذين عادةً ما يضجرون خلال الخطب، ظلّت آذانهم صاغية. فالشّيخ أحمد كما بدا لبدر ليس عالم دين وحسب، بل عالم خطابة عامّة أيضًا، استطاع طوال حديثه المقتضب، غير المنمّق، غير المطعّم بقصص إسلاميّة غابرة تتثاءب لها الأفواه، أن يُبقي جميع الحاضرين على نفس الموجة. راقت الخطبة يومها بدر، كان الشّيخ يتحدّث فيها بالعامّية، خلافًا لكلّ الشّيوخ الذين حضرهم في مرّات قليلة، يتحدّث

عن أحداث راهنة تتعلّق بأوجاع المواطن اليوميّة، عن صعوبة الاستحصال على الرّغيف والمياه والاتّصالات والكهرباء، عن خنوع المواطنين الذين ينتخبون كلّ أربعة أعوام الطّاقم النّيابيّ نفسه، عن الرّشى وتنكات الزّيت والبنزين التي يقبلها النّاخبون قبيل الانتخابات ليصل هذا أو ذاك إلى الحكم ويلتصق بكرسيّه متجاهلًا من أجلسه عليها بالأساس، تمامًا كما حدث قبل سنتين في انتخابات عام 2000، وكما سيحدث بعد سنتين في انتخابات عام 2004. قال إنّ البلاد تحتاج إلى عمر بن الخطّاب ثانٍ لينتشلها من الفساد والظّلم الذي تنوء به. ثمّ تطرّق إلى المجازر التي يتعرّض لها الفلسطينيّون في الأراضي المحتلّة، بينما العالم العربيّ والإسلاميّ ساكت ينتظر بلهفة بدء المونديال الصّيف المقبل ليجوب الشّوارع ويصفّق لأمجاد الأجانب، وكأنّما الموت أصبح أمرًا عاديًّا، بديهيًّا، شأنه شأن التّنفّس. وأخيرًا اعتذر من الأطفال والعجزة لأنّه رغا كثيرًا، واستأذنهم لرفع الصّلاة.

في طريق العودة إلى قصر آل عبّود، أعرب بدر لأحمد عن إعجابه الأوّليّ الكبير بالشّيخ محمود. قال له إنّه في حياته كلّها لم يسبق أن عرف أو سمع عن شيخ بأوصافه، شيخ شبابيّ ومؤذّن مؤثّر وخطيب بارع في ذات الوقت!

– قلت لك لن تندم.

– يا زلمي إن كنت سأرجع يومًا إلى الصّلاة بانتظام، فبسبب ذاك الشّيخ، لا حبًّا بالله.

– لا تكفر يا بدر!

علت ضحكاتهما. ثمّ تعاقبت الأيّام. صار بدر يصلّي بانتظام، لا يتجاهل فرضًا، ولا سُنّةً، أطلق لحيته بما تسمح له وظيفته، حفّ

شاربيه، وصار يرتاد الجامع كلّما سمح له وقته، أحيانًا برفقة زميله أحمد، ومعظم الأحيان وحده، وفي أيّام عطلته، صار يحضر الدّروس الجانبيّة التي يقيمها الشّيخ بعد صلاة العصر، يستمع خلالها إلى قصص الرّسل والأنبياء والصّحابة التي يمتنع الشّيخ عن ذكرها في خطبه، ويصغي إلى الأسئلة التي يطرحها الحاضرون، والتي يتعلّق معظمها بالجنس والزّواج والمرأة. وذات يوم، بينما هو خارج من درس عن فرقة دينيّة تُدعى المعتزلة، استوقفه الشّيخ محيّيًا، سأله عن اسمه، شكره على حضوره شبه الدّائم إلى الجامع، وقال له إنّ وجهه صار مألوفًا لديه، وإنّه في كلّ درس يلاحظ على شفتيه سؤالًا عالقًا، ينتظر إجابة:

– أخ بدر، إن كنت تستصعب أن تسألني أمام الملأ، فأنا دائمًا بخدمتك. هاتِ جوّالك. سأسجّل لك رقمي.

أعجب بدر بدقّة ملاحظة الشّيخ. صحيح، في كلّ درس كان يودّ أن يسأله عن موضوع ندى، ما الحكم الشّرعيّ في حالتها، وكيف يتصرّف مع ابنتها. لكنّه كان يخجل من سؤاله علنًا، أمام أناسٍ كثر لا يعرف منهم أحدًا. صباح اليوم التّالي هاتفه طالبًا من وقته بضع دقائق بعد صلاة الظّهر.

– شيخ محمود، بالفعل أريد أن أسألك شيئًا مهمًّا، لكن لا أدري لِـمَ أستصعب الأمر.

– لا تخف أخ بدر. كلّنا لدينا مشاكل، وكبيرة أيضًا. وما النّاس إلّا لبعضها. توكّل على الله وأخبرني. يمكن أن أفيدك.

بعد صلاة الظّهر، اختار بدر ركنًا قصيًّا في الجامع جلس فيه يخبر الشّيخ بالخطوط العريضة لقصّة ندى، جاعلًا إيّاها أخت واحدٍ من أصحابه.

– انظر أخ بدر. الزّنا قضيّة شائكة، والحكم الشّرعي فيها صعب. لكنّ الله بحكمته جعل تنفيذ الحكم أصعب، رأفةً ورحمةً بعباده، وسترًا لهم. وما قصص سيّدنا محمّد القليلة عن معاقبة الزّاني والزّانية إلّا دليل على ذلك. فرسولنا الكريم، المسؤول الأوّل في زمنه عن إقامة الحدّ، عندما أتته الغامديّة تقول: «يا رسول الله، طهّرني!»، قال لها: «ويحكِ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه». فقالت: «أراكَ تريد أن تردّني كما رددت ماعز بن مالك فأرجو ألّا يكون هذا منك». وماعز هذا كان أتاه قبلها بيوم أيضًا يقول: «إنّي زنيت»، فأعرض الرّسول عنه، ثم أتاه ثلاث مرّات أخرى، ومع ذلك، بقي الرّسول يعرض عنه. ثمّ أضافت الغامديّة: «إنّي زنيت وعلامة ذلك يا رسول الله أنّي حبلى من الزّنا فطهّرني»، فقال لها النّبي عليه الصّلاة والسّلام: «ويحكِ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه». فأكّدت له: «إنّي حبلى من الزّنا». فقال: «أأنتِ؟»، قالت: «نعم». فقال: «حتّى تضعي ما في بطنك». أي إنّ الرّسول لن يقيم عليها الحدّ حتّى تَلِد. فلمّا ولدت، أتته بالصّبيّ وهو في خرقة فقالت: «هذا قد ولدته». قال: «فاذهبي فأرضعيه حتّى تفطميه». فلمّا فطمته، أتته بالصّبيّ في يده كسرة خبز، فقالت: «هذا يا نبيّ الله قد فطمته، وقد أكل الطّعام». فدفع الرّسول الصّبي إلى رجل من المسلمين، ثمّ أمر بإنزالها في حفرة حتّى صدرها، وأمر النّاس برجمها، فأقبل خالد بن الوليد ورمى رأسها بحجر قذف من دمها قطرةً على وجهه، فسبّها، فسمعه نبي الله، فقال: «مهلاً يا خالد! فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مَكْسٍ لَغُفِرَ له». ثمّ أمر بالصّلاة عليها، ودفنها... أترى إذن أخ بدر؟ لقد أفسح النّبي الكريم مرارًا للغامديّة مجالًا لتستر نفسها ولا تجاهر بمعصيتها،

حتّى إنّه ترك لها ضمنيًّا فرصةً للهرب خلال فترتَي حملها وفِطام صبيّها، لكن، نزولًا عند إلحاحها المستمرّ لتغسل ذنبها، اضطُرّ مكرهًا لأن يقيم عليها الحدّ. لذا أرى أنّ أخت صاحبك التي، حسبما فهمت منك، هربت فترةً كبيرة، قد أدركت ذنبها، وأرادت لنفسها السّتر. ثمّ، وا أسفاه، نحن لسنا في دولة إسلاميّة ليكون تنفيذ عقاب كبير كهذا خاضعًا لأحكام القرآن أو السّنن النّبويّة. فلنترك العقاب، وبرأيي هذا أفضل الحلول، لله سبحانه. ﴿إنّ اللَّه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لِـمن يشاء﴾.

– لكنّي لا أعتقد أنّ صاحبي، الذي كان قد قرّر ألّا يمسّ شعرة واحدة من أخته، سيغضّ البصر عن فعلتها ويسامحها.

– قل له المسامح كريم. وإن ضاقت به السّبل، فكيف أقولها لك... فلينبذها. فلينسَ أنّها أخته. فليتركها تحيا على هواها، ولا سيّما أنّها ما عادت تعيش في كنفه.

– أترى ذلك نافعًا؟

– أنا عن نفسي كنت فعلت ذلك. بعد وقت لا بدّ سيُدركها النّدم. ستجيئه على قدميها وتسترضيه وتستغفره.

– وابنة المرأة؟ ماذا يفعل بها؟

– هذا ليس ذنبها. لا يجوز أن يطالها عقاب. وإن كانت بحاجة للرّعاية، فمن المستحبّ أن يتكفّل بها.

بالطّبع لم يلتزم بدر بما قاله الشّيخ محمود عن حياة (أساسًا، أمّه وأخته سبق أن كفلتاها!). استصعب وخديجة الفكرة. لكنّه التزم بما قاله (أو ما فهم من قوله) عن ندى. هاتف أمّه (وخديجة على الخطّ الثّاني ترهف السّمع) يخبرها أنّ هجره للبيت لم يكن عن عبث، فإصرارها على رعاية حياة، يعني اللين تجاه ندى، واللين

تجاه زانية ليس معيبًا وحسب، بل يقارب الفسق أيضًا! عندها تلاشى آخر أثر للنّدم كان في قلبه لترك أمّه وحدها، متيقّنًا من أنّ ما فعله كان عين الصّواب.

واليوم، ما زال يثبت لأمّه أنّ الله كان دائمًا في صفّه. فها هو ذا. منذ الغد سيصير حارسًا شخصيًّا لابن رجل أعمال فاحش الثّراء، كلمته نافذة، ومقبل بإذن الله تعالى، على الفوز بمقعد نيابيّ أواخر شهر أيّار المقبل. يحمد ربّه مرّةً أخيرة بينما أذان العصر يصدح في سماء صيدا. يدخل الحمّام، يتوضّأ، يُقبّل أبناءه لدى وصولهم إلى البيت، ويركب شاحنته، رأسًا إلى الجامع.

8

كانت غريقة أفكارها لـمّا وضع كريم يده في يدها، بكلّ خفّة ودفء، وهو خلف المقود:

– ماذا يجول في خاطرك؟

تبتسم رغم اضطرابها:

– أ... لا... لا شيء مهمًّا.

وإذا به يكبح الفرامل منتصف طريقٍ ضيّق:

– لن أمشي إلّا إذا أجبتني. وهِهْ.

تضحك بينما السّيارات وراءهما تطلق العنان لأبواقها:

– مجنون! حسنًا سأخبرك، لكن امشِ قبل أن يلعنوا سنسافيل أجدادنا.

يمشي، فتقول:

– كريم، أكره أن أكدّر علينا صفو علاقتنا بقصصي التي تغمّ القلب.

– حبيبتي، لولا قصصك لما كنّا الآن معًا. انظري، أيّام طفولتي لم أكن أطيق صبرًا حلول المساء لأسمع من أمّي حكايات الأمراء

والفرسان والسَّحَرة. وحكاياتها، صدقًا، نقطة في بحر حكاياتك. أخبريني، بمَ كنت شاردة؟

– هكذا إذن! لن أحكي. وهِهْ.

يوقف السّيارة مجدّدًا، هذه المرّة عند إشارة سير خضراء.

– إنّي أمزح أمزح!

وحين يستأنف القيادة تحرّر تنهيدة:

– كنت أفكّر بحياة.

تنظر خارج نافذتها المشقوقة متحاميةً عينيه، رغم معرفتها أنّه يحبّ حياة كثيرًا:

– أخبرني الطّبيب قبل يومين أنّ حياة تتكلّم.

يخُيّل إليها أنّه قال: «حقًّا؟»، فتردف:

– إنّها تحكي. حياة تحكي. لقد تكلّمت معه. لقد سمع صوتها. أتدري أنّي لم أسمع صوتها في حياتي سوى مرّة واحدة، يوم هاتفتني وقالت «ماما»، ثمّ لحماقتي أقفلتُ الخطّ؟

وتبكي، فيركن السّيارة إلى قارعة الطّريق، يجذبها إليه، ويروح يمرّر أصابعه بين خصل شعرها القصير:

– اهدئي حبيبتي.

لا تهدأ. تقول بصوت متهدّج:

– الصّمت الانتقائي. أتسمع؟ الصّمت الانتقائي. الطّبيب قال إنّ حياة مصابة به. صمت، وليزداد الموضوع قبحًا، انتقائيّ! يعني هناك احتمال كبير أن تسمع صوت ابنتي قبل أن أسمعه أنا.

– عظيم. يمكنني أن أسجّله لك.

عبثًا تحاول ألّا تبتسم.

– هكذا أريدك. دومًا مبتسمة. ليبقَ إيمانك كبيرًا حبيبتي.

تمرمر حلقها ضحكة:

– ألم أقل لك إنّي ألحدت؟

– وهل هذا سببٌ مقنع لِتَيأسي؟ ندى، الإلحاد لا يعني بالضّرورة فقدان الإيمان. بإمكانك أن تكوني ملحدة، ومؤمنة في ذات الوقت. مؤمنة بكلّ الأشياء الجميلة حولك، بكلّ ما يدفعك صباحًا لتفتحي عينيك وتتنفّسي.

يسرق من خدّها قبلة ويضيف:

– الصّبر. لا بدّ سيأتي اليوم الذي تسمعين فيه كلام حياة كما تَرومين. وحتّى ذاك الوقت، سنكون أنا وأنت وهي كـ... دو ري مي. سنعيش تحت سقف واحد. وسنأتي بالـ فا والـ صول، بأولاد على عدد النّوتات، وسنعتاش على الأمل والموسيقى. لن يحدث إلّا كلّ جميل. يكفي حبيبتي أن تقوليها كذا مرّة لتصدّقي الأمر، ويتحقّق. ثقي بي.

أين كان كريم مختبئًا طوال الشّطر الأوّل من عمرها؟ هذا الرّجل هو خشبة خلاصها، والسّبب الثّالث، بعد حياة والموسيقى، الذي يبقيها متمسّكة بالدّنيا. تضع يدها في يده. تتفّرس في ملامحه. رجلٌ على قدر متساوٍ من الوسامة والرّجولة والبشاشة والطّرافة. شعره المصفّف بـ الجِل إلى الخلف يكسوه شيب طفيف يزيده هيبةً، وفي عينيه العسليّتين الواسعتين بريق طفوليّ مُحبّب. أمّا يداه، فيا للدفء الذي لا يخمد فيهما، بمجرّد أن تلمساها، ينتفض لهما جسدها انتفاضًا.

أوّل ما عرفته توسّمت فيه منقذها الوحيد. كان ذلك عام 2000، قبل أربعة أعوام. كانت في غرفتها الصّغيرة في كواليس ملهى

ليليّ، تأخذ استراحة قصيرة قبل استكمال وصلتها الغنائيّة. دخل عليها خلسةً، بين يديه باقة ورد حمراء، وأقفل الباب.

– من تكون؟ أخرج قبل أن...

همّت بالصّراخ، لكنّه قاطعها ملوّحًا بيمناه:

– اهدئي! لست مجرمًا، ولا مريضًا نفسيًّا، ولا معجبًا مهووسًا. اسمي كريم. كريم عبد النّور. وأريد التّحدّث معك في الموسيقى.

– معي أنا؟ بصفتك ماذا؟ أرجوك اخرج قبل أن يأتي مدير أعمالي.

– أدهم وهبي لن يأتي. إنّه ثمل حتّى مثانته.

استغربت لكونه يعرف اسم مدير أعمالها وكنيته وهوايته المفضّلة، إلّا أنّها لم تستطع أن تكتم ضحكة:

– كيف أفيدك؟

– أهكذا تجيدين التّعامل مع الزّوّار أو المعجبين في العادة؟

تقبّضت أساريرها؛ كيف لها أن تجيد ذلك، ولا زوّار، ولا معجبين، يطرقون بابها؟

– عذرًا لكنّي مستعجلة. (اقتربت منه، وأخذت باقة الورد) شكرًا جزيلًا.

– محسوبِك مدير أعمال. سمعتك قبل أسبوعين، بعدما جرجرني أخي الصّغير إلى هنا وهو يعدني بأنّ حياتي المهنيّة ستظلّ على ركودها ما لم أسمع صوت المؤدّية الرّئيسة. تلمّظت كثيرًا وحاولت التّهرّب لكنّي استسلمت في النّهاية لإلحاحه. على ما يبدو، كان أخي صائبًا. لقد عشقتُ صوتك. عشقتُ كلمة قليلة بحقّه. وحين سألت عنك، عرفت أنّ أدهم يدير شؤونك. كلّ من يعمل في وسطنا لا بدّ سمع بأدهم وهبي. حظّك تعيس لأنّك

علقت بين يديه، لكن لا تهتمّي، لأنّ منقذك يقف أمامك الآن. خذي. هذه بطاقة عملي. في أقرب وقت، يجب أن نحكي. إلى اللقاء.

أمضت الليل بطوله تفكّر في ما قال. بدا لها من كلامه ولطافته وهندامه رجلًا صادقًا، لكن ما الذي رآه فيها بالضّبط؟ ولِـمَ أرادها هي، دون سواها من المغنّيات الشّابّات الحسناوات اللواتي يدررن مالًا وفيرًا؟

لم تُطِق صبرًا طلوع الصّبح، فاتّصلت به طالبةً لقاءه في أحد المقاهي.

– لا أعلم ما الذي أفعله معك الآن، لكنّك تبدو لي...

– أنا بالفعل أريد مساعدتك.

ابتسمت ابتسامةً كاذبة:

– مساعدتي مِمّ؟

– تقصدين ممّن!

لم يطب لها أن تمسك دفّة الحديث. وَنَت له شرف ذلك:

– لديكِ حقّ أن تخافي من رجل دخل إليك خلسةً بصفته منقذك الموسيقيّ. لكن لا تجزعي لأنّي جِدِّيّ. سابقًا، كنت مدير أعمال فنّانة شابّة فرنسيّة من أصول جزائريّة، يمكنك أن تسألي عنها، اسمها الفنّي راكيل ليبلانك. للأسف، أنهت حياتها قبل سنتين بـ«أوفردوز». هيروين.

لم تتمالك أن ضحكت بعد الذّهول:

– أَمِنَ المفترض أن يزيدني ذلك اطمئنانًا؟

– ثقة، ربّما. يزيدك ثقةً بي. حين تسلّمت شؤون راكيل السّيّئة بالأصل، كان لديّ إيمان بأنّي سأكتب لها قصّةً فنّيّة جديدة، بعيدة عن رفقاء السّوء وجوّ الإدمان، لأنّ صوت الفتاة ذو مساحات

شاسعة، لم أسمع له مثيلًا من قبل، وأنا نقطة ضعفي الأصوات الخارقة. بالفعل، تحسّنت حال راكيل، استطاعت مع الوقت الابتعاد عن المخدّرات والكحول، آمنت بي وبمسعاي، وصرنا نحصد معًا نجاحًا تلو نجاح، وجوائز تلو جوائز، إلى أن لقيت والدتها الأرملة مصرعها في حادث سير مروّع، ما أودى بها إلى الانهيار السّريع، وذات صباح، أفقت على خبر انتحارها يتوزّع الشّاشات.

– لا أعرف ما يجب أن أقول صراحةً.

– لا تقولي شيئًا. لم أنهِ حديثي بعد.

حدّجته باستغراب، فضحك:

– ما بك؟ إنّي أمزح. إنّها قصّة حزينة فعلًا. كادت تجعلني أيأس لو أنّ راكيل لم تترك لي رسالة تقول فيها «أشكرك كريم، لكن لم يكن لحياتي طعم، سامحني».

– حسنًا. أعتقد أنّي أخذت عنكَ الآن فكرة. لكن لم تخبرني ما الذي أتى بك إلى لبنان؟ ولم اخترت امرأةً على أعتاب الأربعين لتدير شؤونها، وهناك آلاف الحسناوات الصّغيرات يملأن البلد؟

– صدقًا لا أعلم لم رجعت، رغم أنّي عشت ربع عمري في فرنسا. أحيانًا أفكّر أنّ القدر أتى بي. وبالنّسبة لسؤالك الثّاني، فأعتبره تواضعًا منك. ألا تدركين أنّ صوتك جوقة ملائكة؟ لم أتبيّن كامل قدراته أوّل الحفل لأنّك، كيف أقولها، كنت تغنّين أغاني هابطة، اعذريني لكنّي محقّ، وأنت تعلمين طبعًا، لكن حين غنّيتِ «يا طيور» لأسمهان، كيف أقولها مجدّدًا، طرتُ من مكاني. لم أصدّق أنّكِ أنت ذات المغنّية. خامة صوتك وإحساسك سحراني. جعلاني متيقّنًا بأنّك أنت الصّوت الذي أبحث عنه منذ أن فقدت راكيل، أنت الصّوت الذي أريد أن أتعامل معه، وأدير شؤونه، وأنظّم

مواعيده وإطلالاته، وأتقاسم معه نجاحاته. عندما سألت عنك، لم أُفاجأ بكونك بين يديْ أدهم وهبي. من حسن الحظّ أنّي أعرف هذا الإنسان، وهو لا يعرفني. اسمعي ندى، نعم لا تستغربي، استحصلت على اسمك الحقيقيّ لأنّ أمرك يهمّني، أنت جوهرة نادرة، لكنّك وقعت في شباك من لا يقدّر ثمنك. وها أنا اليوم أريد أن أساعدك في بناء حياة فنّيّة جديدة تليق بمساحات صوتك.

كانت ندى تصغي إليه بتمعّن، فقالت متأثّرة:

– كيف لك أن تساعدني، والوغد استغلّ عوزي وجعلني أوقّع معه على عقد مجحف، سارٍ لثلاثين عامًا؟ يعني سأموت قبل أن أستطيع التّحرّر من قبضته.

– دعي هذا الأمر لي. لكن أوّلًا، أريدك أن تعطيني الضّوء الأخضر.

لم يحتجِ الأمر إلى كثير من التّفكير لتعطيه الضّوء الأخضر. كانت في حاجة ماسّة للتّخلّص من عملها الذي فرضه عليها أدهم وهبي فرضًا.

بعد أسبوع، دخل أدهم بصحبة كريم إلى حجرتها في نهاية إحدى الحفلات، سكران ومنهكًا:

– هذا الرّجل... هِئ... يريدك لخمس سنوات، تغنّين فيها للمغتربين في فرنسا. وحياتك... هِئ... المال الذي دفعه كان مغريًا، ولم أستطع أن أرفض العرض. وأنت بدورك لن ترفضي... هِئ... متى قلت لي يا كريم؟ أجل، في صيف 2005 ينتهي العقد بينكما، وترجعين إليّ... هِئ.. والآن لنفضّ عقدنا القديم، ولنوقّع العقد الجديد. نعم... هِئ... الآن.

في السّيّارة، سرًّا مع كريم:

– أعرف ماذا ستقولين، لم خمس سنوات؟

– نعم، نحن لم نتّفق على هذا!

ابتسم، وناولها العقد:

– اقرئي جيّدًا. هذا عقد لمدى الحياة. لتتغلّبي على أمثال أدهم وهبي، يجب أن تتصرّفي مثله؛ بِـمَكر. لقد أمضيت الأسبوع يا سيّدتي أتقرّب منه محاولًا كسب صداقته بصفتي مغتربًا يبحث عن صوت محلّي يديره في الغربة مؤقّتًا. لقد عرض عليّ امرأةً تغنّي برفقتك، لكنّي رفضت باحترام، وعندما أخبرته عنك قال بصفاقة إنّك ثمينة، لكن صدّقيني، لقد باعك بأرخص الأثمان.

– ومدّة العقد؟

– بقدر ما هو ماكر، هو أبله. لقد حرّرت نسختين طويلتين من العقد، محشوّتين ببنود وتفاصيل كنّا قد اتّفقنا كلانا عليها. الفرق الوحيد بينهما هو تاريخ الصّلاحية. لقد أعطيته البارحة نسخةً ليطّلع عليها، وقبل قليل استبدلتها خلسةً ووقّعنا على النّسخة الأخرى التي ستخلّصك منه مدى الحياة.

أطرقت قليلًا، وقالت متخوّفة:

– بعد خمسة أعوام سيعرف، وعندها لن يهدأ.

ضحك كريم:

– صدّقيني، بعد خمسة أعوام سيكون إمّا فقد الذّاكرة، أو استغلّ أخرى ونسيك، أو مات بداء الكبد.

هكذا، صار كريم جزءًا لا يتجزّأ من حياتها المهنيّة والشّخصيّة. معه استعادت هويّتها الغنائيّة الأصليّة الأصيلة، ومعه حقّقت خلال أربع سنوات أرباحًا ونجاحات لم تحلم يومًا بتحقيقها. تخلّصت من طريقتها القديمة المبتذلة في الغناء، من شعرها المستعار وخصل الإكستنشن، ومن فساتينها القصيرة وثيابها الضّيّقة التي كان

أدهم يجبرها على لبسها، تخلّت عن اسم ناتاشا واكتفت باسمها. تعاملت مع متعهّدي حفلات يحترمون موهبتها. غنّت في أعراس فخمة وعلى مسارح ذات قيمة. اتّسعت رقعة معارفها من الموسيقيّين والشّعراء وشركات الإنتاج. وصارت الإذاعات تطلبها في برامجها الفنّيّة.

– ندى أشعر بأنّي أكلّم نفسي!

ينتشلها صوت كريم من قعر الماضي إلى برّ الواقع.

– شردتُ قليلًا. عفوًا، ماذا كنت تقول؟

– قبل أن نجلب حياة من المركز، يجب أن نتحدّث في تفاصيل الزّفاف. ثمّة قهوة مطلّة على البحر قريبة من هنا، ما رأيك بأن...

تقاطعه كما لو أنّها تذكّرت شيئًا:

– ما تاريخ اليوم؟

– الاثنين 12.

– نسيت إخبارك. الخميس 15 هناك جلسة محاكمة مؤجّلة لهلال. فَلنؤجّل مشروع قبرص قليلًا، اتّفقنا؟

قبيل الوصول إلى مركز النّطق، تطالع كريم في أحد الأحياء ورشة إصلاحات تقوم بها بلديّة بيروت لأقنية الصّرف الصّحي، ما يحمله على الاستدارة غربًا، وسلك الطّريق البحريّ المفضي كذلك إلى وجهته.

– ألا تجد بلديّتنا وقتًا أفضل لإغلاق الطّرقات، لا تكون فيه الدّنيا عائمة وثلثا الشّعب في المدارس والجامعات؟ من فضلك، أتسمحين لي بأن أشتم؟

تكون ندى في عالمٍ آخر وهي تحدّق في لوحة إعلانيّة ضخمة مُقامة على جانب الطّريق البحريّ، فيها صورة رجل أربعينيّ وسيم،

بكامل أناقته، تقول «انتخبوا د. خالد عبّود – أسقِط ورقة، تسقط إسرائيل»، فلا تسمع كريم عندما يطلق شتيمة من العيار الثّقيل.

– عذرًا حبّي، تعرفين أنّي لا أطيق عهر هذا البلد.

– إنّه هو!

تهتف.

– هو؟ من؟

– لا أحد غيره، أنا متأكّدة.

لا يفهم كريم كنه نظراتها. يطلب منها أن تهدأ وتوضّح.

– إنّه عُمر. الوغد الذي أخبرتك عنه. والد حياة!

– حقًّا؟ أين رأيته؟

تدعك عنقها متفكّرةً:

– في إحدى البانوهات، يقول إنّه مرشّح للنّيابة.

لا يتمالك أن يضحك:

– نيابة؟ لا أذكر أنّنا شربنا شيئًا بعد.

– كريم، لست رائقة المزاج للمزاح. تذكّرت. صباح السّبت 21 شباط 2004، يوم بُثّت أغنيتي تلفزيونيًّا ثمّ عرفت أنّ لميا دخلت كوما، لمحته ضيفًا في النّشرة الصّباحيّة على التلفزيون. للوهلة الأولى، لم أعرفه. شكله تغيّر. واسمه تغيّر. صار الدّكتور خالد عبّود. لكنّ صوته وحركاته لم تزل كما هي. يستحيل، أقول لك يستحيل، أن أنساها.

– ما تقولينه ليس مقنعًا.

تسدّد إليه نظرة غاضبة وهو يقود من غير أن يلتفت إليها:

– ليس مقنعًا؟ أقول لك إنّه هو. عمر!

يتنهّد كريم طويلًا قبل أن يقول:

– أذكر أنّكِ أخبرتني أنّ عمر غادر إلى سوريا ولم يعُد. وأذكر أنّه كان تاجر تبغ، من أين له المال والمعارف إذن ليترشّح للنّيابة؟ ثمّ إنّ الرّجل في التّلفاز يُدعى خالد عبّود، فلِمَ يغيّر عمر اسمه إلى خالد؟ أخيرًا وليس آخرًا، أنتِ قلتِها، إنّه يختلف بالشّكل عن عمر، يعني هنا ينطبق المثل القائل «من الشّبه بيخلق أربعين». أتريدين المزيد؟

تشيح ندى وجهها بامتعاض:

– حسنًا. لا تصدّقني.

وبعد لحظات صمت:

– إن كنت واثقة إلى هذا الحدّ، أنصحك بمشاهدة مقابلات ذلك الـمُرشّح. أظنّك ستدركين مقصدي، وتضحكين على ما ظننته.

كلام كريم لا يعني لها شيئًا، ولا يزعزع، ولو ميلّيمترًا، ما هي متيقّنة به. إنّه عمر، لا محالة، وقريبًا جدًّا، سوف تضعه في قمّة جدول أعمالها.

– أتعلم؟ أظّن أنّك محقّ.

تضطرّ للكذب لإقفال الموضوع.

بعد وصولها إلى المركز، يستدعيها الطّبيب إلى مكتبه، منتحيًا بها إلى الزّاوية:

– عملي انتهى هنا. والآن لديك خياران. واحد، أن أنقل ملفّ حياة إلى المعالجة النّفسيّة التي اقترحت الوزارة اسمها. واثنان، أن أنقله إلى مركز متخصّص في علاج الصّمت الاختياري، يستقبل سنويًّا مئات الحالات كحياة، كادره الطّبّي يقدّم طرقًا حديثة فعّالة تتيح للطفل التّفاعل تدريجًا مع من حوله. أنا شخصيًّا أنصحك بالخيار الثّاني. لكن عندها، ستضطرّين للسّفر، لأنّ المركز في ولاية

بنسلفانيا في الولايات المتّحدة. خذي هذا البروشّور. فيه كلّ المعلومات عن المركز.

تأخذه وتدسّه في محفظتها:

– أعتقد أنني سأذهب مع الخيار الثّاني. الآن، ما الذي يجب عليّ فعله؟

– لا تقلقي. أنا سأتباحث في الموضوع مع وزارة الصّحّة، وهي ستستصدر لكما تأشيرتي دخول، وتحجز لحياة مكانًا في المركز، وتتكفّل بكلّ مستلزمات ومصاريف الإقامة هناك.

– إذن باشر منذ اللحظة بالتّرتيبات. لا يهمّني إلّا أن تُشفى حياة.

– ستُشفى. كوني إيجابيّة. اتّفقنا؟

تشكره. تثني على كلّ ما بذله من جهد. تمسك يد حياة، وتغادر بوجنتين ترطّبهما الدّموع. دموع الأمل، في الغالب.

9

ما إن تحتكّ عينا بدر بالآيات القرآنيّة وأسماء الله الحسنى الموزّعة على جدران مسجد جعفر بن أبي طالب، حتّى يروق مزاجه؛ يشعر بهمومه ومشاكله تتلاشى، وبقلبه ينغسل ليعود نقيًّا طاهرًا لا تدنّسه خطيئة.

في الفترة ما بين العصر والمغرب، يخلو المسجد إلّا ممّن يعتبرون الصّلاة عبادة لا عادة، وأنّ لله حقًّا عليهم في إيجاد أوقات له على مدار اليوم، غير أويقات الصّلوات الخمس. هؤلاء غدوا اليوم قلّة، المسجد لديهم بمثابة منزل ثانٍ، فيه من الألفة والاحترام والإخاء ما لا يجدون في غيره من المطارح. حتّى علاقات الصّداقة الوطيدة التي نشأت فيه تعدّى بعضها ذلك إلى مصاهرة.

في هذا الثلاثاء، حضر أقرب المقرّبين من دائرة الشّيخ الذي بعث إلى جوّالاتهم ظُهرًا رسالة جماعيّة مفادها أنّ ثمّة أمرًا ضروريًّا عقب صلاة العصر يجب مناقشته.

في البداية، يلقي الشّيخ السّلام على الحاضرين، وقد بدا لبدر جدّيًا أكثر من العادة. ثمّ يستهلّ كلامه بآيات وأحاديث نبويّة عن الجهاد، يفهم بدر منها أنّها تسلّم بوجوبه على كلّ مسلم.

– لا ريب أنّكم تتساءلون الآن عمّا يتحدّث محمود. سأقول لكم. لكن قبلها يجب أن أوضّح أنّ الجهاد لا يكون فقط بحمل السّلاح في وجه المعتدي. للجهاد أَوْجُه متنوّعة، وكما تعلمون، النّاس وُلدوا مختلفين؛ منهم من خُلق لقتال الأعداء، ومنهم من خُلق للتّخطيط لذلك، وثمّة آخرون خُلقوا للتّذكير بذلك. في كلّ حال، أحضرتكم اليوم هنا لـ... يرحمك الله أخ حسين، مَزكوم؟ غادر أرجوك، لست بوارد التقاط فيروس حاليًّا. ماذا دهاك يا رجل؟ اجلس، كنت أمزح، بالشّفاء العاجل إن شاء الله، حسنًا، أين كنّا؟ أجل، أحضرتكم اليوم هنا لأقول لكم إنّنا نعيش لعنةً كبيرة اسمها الوصاية السّوريّة. أترون؟ معظمكم الآن تلفّت حواليه خائفًا لمجرّد ذكر الاسم. الاسم الذي لطالـما خشيت، أنا شخصيًّا، أن ألفظه في خطبي السّابقة، وإن لفظته، فمبطّنًا، مثل شاعر جبان يقصد ذمّ الحاكم في قصيدة سرياليّة يمجّده فيها. طبعًا لا أنكر أنّ النّظام السّوري خلّصنا من الحرب الأهليّة، ألف شكر له، لكن ألم يحن الوقت ليغادرنا بسلام؟ قد تُفاجؤون بما سأقول ربّما، لكنّ الصّدمة ضروريّة غالبًا لإيقاظ الدّماغ. النّظام السّوري الحالي يا إخواني، رغم قميص القضيّة الفلسطينيّة الذي يلوّح به كيفما اتّفق، هو حامٍ رئيس لإسرائيل. تلفّتٌ آخر منكم. قد تسألونني كيف هذا؟ يكفي أن أذكّركم ببضع نقاط. أولاها أنّ مقاومة إسرائيل صارت في ظلّ هذه الوصاية محتكرة من فريق أو اثنين، بعدما كانت جامعة لكلّ اللبنانيّين، الشّيوعيّين واليساريّين وفصائل المقاومة الفلسطينيّة التي قام بتصفية قادتها النّظام السّوري ضمن المشروع الإيرانيّ الجديد في المنطقة. ثانيًا، متى كانت آخر طلقة سمعتموها من الجانب السّوري في الجولان تجاه إسرائيل؟ أخيرًا وليس آخرًا، يجب ألّا

ننسى الفظائع التي ارتكبها النّظام السّوري بحقّ الإخوان المسلمين في حماة، فضلًا عن اعتقاله منذ مدّة ناشطين إسلاميّين لبنانيّين واحتجازهم في مناطق سرّية في لبنان. هذا وحده دليل قاطع على أنّ النّظام جنديّ لدى إسرائيل، يُخرس بأمر منها أيّ صرخة «الله أكبر» قد تُطلق، لأنّها تشكّل خطرًا على بقائها. قد تسألونني مجدّدًا ما علاقة الجهاد بما قُلت. إنّ الجهاد غير وارد أبدًا في ظلّ وجود الوصاية السّوريّة التي تتغلغل في صميم كياننا اللبناني. لذا كخطوة أولى لجعل الجهاد ضدّ العدوّ الإسرائيليّ ممكنًا، يجب أقلّه إنهاء هذه الوصاية. خذوا دليلًا آخر يثبت صحّة ما أقول. أخ بدر، أنت من كفرشوبا، صحّ؟ لا بدّ سمعتم كلّكم بكفرشوبا. ماذا؟ أخ سمير، أنت لم تسمع بها؟ لا يمكن! تلال كفرشوبا؟ مزارع شبعا؟ المنطقتان الحُدوديّتان اللتان بقيتا محتلّتين من إسرائيل بعد تحرير الجنوب عام 2000؟ يتردّد ذكرهما في الأخبار بقدر ما أتردّد أنا إلى هنا يا رجل. أترى؟ إذن، سمعتَ بهما. على كلٍّ، قل لإخوانك يا بدر، ماذا حدث قبل يومين، عندما أطلق أحد رجال كفرحمام، وهي ضيعة مجاورة لضيعتك كفرشوبا، صاروخاً فرديّ الصّنع تجاه شمال إسرائيل؟ لا فُضّ فوك. كما قال لكم أخوكم. ذاك الرّجل لم يزل قابعًا في مخفر راشيا الفخّار. يعني بدل أن يجري تداول اسمه في التّلفاز على أنّه بطل مغوار، اعتُبر ما قام به تجاوزًا مشينًا، بذريعة أنّه فعلٌ فرديّ غير منظّم، حدث خارج دائرة من احتكر لنفسه صفة المقاومة، المقاومة التي هي من حقّي وحقّك وحقّ الجميع على حدٍّ سواء!

يواصل الشّيخ محمود الحديث بإسهاب عن النّظام السّوري المتحكّم بأدقّ تفاصيل لبنان منذ بدء الحرب الأهليّة، عن وأده لكلّ

حركة إسلاميّة سوريّة في مهدها، وعن وساخة مخابراته المزروعة على طول مساحة لبنان الصّغيرة. كان بدر مؤيّدًا لما يقول، وفي ذات الوقت متوجّسًا من النّقمة والجرأة المتفاقمة في لهجته، ما جعله يخاف عليه من أيّ مكروه قد يصيبه، إذ إنّ الحديث العاري في مواضيع كهذه، علنًا أمام الملأ، مغامرة كبيرة لا أحد يجرؤ على خوضها.

– أعلم جيّدًا مدى خطورة كلامي، لكنّي أعلم أكثر مدى صحّته. أنا عن نفسي لا أستطيع أن أظلّ ساكتًا يا رجال. منذ أربع سنوات وأنا أمرّر لكم في خطبي رسائل مبطّنة عن هذا النّظام. لكن طفح الكيل. خلص. على صوتنا أن يعلو. منذ الغد يجب أن نباشر بالحراك، بالتّغيير، بالتّأسيس لنظام جديد يعيد الكرامة لديننا الحنيف. فمن معي؟ من لم يرد فهو حرّ! لن أجبر أحدًا على فعل شيء ليس ضمن قناعاته. لكن، أذكّركم، السّاكت عن الحقّ شيطان أخرس!

من بين العشرين نفرًا، لم يقوَ إلّا خمسة (بدر ضمنهم) على رفع أيديهم.

– توقّعت حماسة أكبر؛ ما بكم؟ خائفون، صحّ؟ لا أستغرب. لقد نجحوا في زرع الخوف عميقًا في نفوسنا. الحقُّ، إن أردتَ أن تحكم شعبًا، أخِفه. وها نحن بخوفنا محكومون، خانعون. إخواني، نحن لن نحمل سلاحًا. ولن نصير كطالبان أو القاعدة. الإرهاب والتّفجير وقطع الرّؤوس ليس لغتنا. نحن سنتحدّث بلغتهم، باللغة التي يَدَّعون؛ الدّيمقراطيّة. حراكنا سيكون سلميًّا، من دون سلاح، من دون شغب، من دون عنف. وخطوتنا الأولى ستكون الدّعوة. سنقسم أنفسنا إلى مجموعات، وسيشاركنا في ذلك بعض أئمّة لبنان من الذين لا يعبدون ولا يهابون سوى الله سبحانه، وسندور مدّة

أسبوعين على المناطق لندعو الشّباب، باللسان، إلى العودة عن طريق الضّلال، لأنّ أكثر ما يهمّنا الآن، قبل البدء بالتّحرّك الجدّي، هو حشد صفوفنا. فمن سيعدل الآن عن قراره؟

ترتفع اثنتا عشرة يدًا إضافيّة. ويعود الهدوء إلى أعصاب من كان متخوّفًا بدايةً من لهجة الخطاب الثّوريّة. وبعد أخذٍ وردٍّ يدور لدقائق بين الجميع، يَكِل الشّيخ إلى بدر مهمّة توزيع مناشير على الحضور، فيها المزيد من المعلومات عن تفاصيل التّحرّكات المقبلة.

– فلنقرأ جميعنا الفاتحة على نيّة التّوفيق.

يهتف الشّيخ. فتنبسط الأيادي، وتشرئبّ الأعناق.

10

لا يتمكّن كريم من حضور جلسة محاكمة هلال المؤجّلة من الأسبوع الفائت، إذ يطرأ على جدول مواعيده اجتماع لا يحتمل التّأجيل مع شركة إعلانات ضخمة تسعى إلى وضع صوت ندى على إحدى دعاياتها، فيضطرّ لإنزال ندى بمفردها عند باب المحكمة، وترك حياة في البيت مع مارييل.

فور دخولها قاعة المحكمة الغاصّة بأهالي الضّحايا، تلتقي أنظار ندى بأنظار أمّها المتلفّعة بالأسود، فتشيح وجهها باشمئزاز، وتجلس على مسافة من مقعدها، مسافة تجنّبها اشتمام رائحة عرقها، وقبحها، تحديدًا إلى جوار قصيّ الذي يرحّب بها بلهجة لا تخلو من عتاب. لحظات صمت متوتّر يقول بعدها قصيّ:

– كيف حال ابنتك؟

– الكلّ يُطمئِنني أنّها ستتكلّم مجدّدًا. آمل خيرًا.

يهزّ قصيّ رأسه البيضويّ الممتلئ، مُشمِّرًا كُمّي القميص عن ذراعين غليظتين:

– أعلم أنّكِ لست مهتمّة بمعرفة إلامَ انتهت تحرّكاتنا في الشّارع. لكن لا ضير من أن تعرفي، صحّ؟ هباء. كلّ تحرّكاتنا كانت

هباءً. لقد أمتعنا التّلفزيونات بقصّتنا لشهر، ثمّ خفّ رهجنا. ما عاد أحدٌ من مديري المحطّات يتّصل بنا كما في الفترة الأولى. وعندما صرنا نتّصل نحن بهم، لئلّا تُنسى قضيّتنا في الأرشيف، اتّضح لنا أنّ أحدًا منهم لم يكن مهتمًّا بالأساس بقصّتنا كقضيّة إنسانيّة. الكلّ رأى فينا مادّة جالبة للإعلانات فقط. أتعلمين كم بوّابةً فبابًا طرقنا؟ كم سياسيًّا ورجل أعمال قطع لنا وعدًا بالبحث في قضيّتنا، ولم يفِ بالوعد؟ يظنّون أنّهم بالمال الذي ينقدوننا أمام الكاميرات يعوّضون خساراتنا. كلبٌ ابنُ كلبٍ من قرن التّعويض بالمال. أليسوا بشرًا من لحم ودم؟ ألا يعلمون أن كلّ خسارات الدّنيا تُعوّض، إلّا الأرواح؟ منافقون سَفَلة. يوهموننا بالاهتمام، لكن عند الجدّ لا أحد منهم يردّ للمواطن المذبوح اعتبارًا. مفرغون تمامًا من الإحساس بالآخر. الآخر لديهم هو ظلّهم. اسأليني ماذا تعلّمت ممّا مررت به من ذلٍّ، مدام ندى. تعلّمت أنّه في هذه البلاد لا تؤخذ الحقوق إلّا باليد.

كلام قصيّ لا يبعث في ندى شيئًا من النّدم، لأنّها تدرك أنّ موافقتها على ما سبق أن طلبه منها ما كانت لتقدّم أو تؤخّر. لم كلّ هذا الاستغراب؟ هذا هو لبنان؛ أغنية هابطة تستميت لتطريبها الحناجر. تحرّك شفتيها لتقول له هذا، لكنّه يواصل حديثه:

– ماذا تتوقّعين أن يكون الحكم؟

– إعدام؟ حبس مؤبّد؟ شخصيًّا لا أجد فرقًا.

– أتمنّى! لكنّي لست مطمئنًّا. إحساسي يقول إنّ الحقير سيخرج من القضيّة كأنّ شيئًا لم يكن.

– مستحيل. قد يستغبوننا، لا أنكر. لكن بهذا الكمّ من الجرائم من يستطيع النّفاذ؟

– حقًّا؟ (ضحكة مريرة). كيف تفسّرين إذن كلّ تلك التّأجيلات والمماطلات في الحكم؟ كيف تفسّرين شراء القاضي الذي لم يشرّفنا بحضوره أفخم ساعة كارتييه قبل يوم واحد من الجلسة الأولى؟ كيف تفسّرين شراءه، بعد يومين من الجلسة الثّانية، سيّارة كاديلاك موديل السّنة، ربّنا وحده يعلم كم يبلغ ثمنها؟ والأدهى، كيف تفسّرين شراءه لشاليه فاره في فاريا، قبل أربع وعشرين ساعة من الآن؟ ثمّة المزيد إن أردت!

– أتفهّم غضبك يا قصيّ. لكن لا أدري كيف أقولها. قد تحدث في الحياة أشياء مريرة كثيرة، لا حيلة لنا إلّا أن نسلّم بها.

– هذا خنوع لا يستسيغه عقل. وأنا لست معتادًا مثلك أن أعيش في رحمته.

– سمّه ما شئت. لا ألومك. أنت الآن شابٌّ عشرينيٌّ متحمّس وثائر تريد أن تقلب الطّاولة على رأس الظّالمين. لكن عندما تتخطّى منتصف الثّلاثين، ستعي مقصدي وتتعلّم أنّ مفتاح مواجهة المصائب يكمن في تقبّلها.

– ما هذه الازدواجيّة؟! قبل شهر أخبرتني أنّك ستنتقمين لحياة من غير هلال. يا لك من أنانيّة. أنت أصلًا لا تريدين الانتقام لابنتك، بل لنفسك!

تؤثر ندى عدم الخوض في المزيد، لأنّ وهج النّار داخل قصيّ يعرّقها. تلتفت يمنةً ويسرةً وهي تجفّف جبينها براحة كفّها، متصنّعةً البحث عن شخص ما، شخص كـ... بدر، أينه؟ لا تجده. عندها تزداد اقتناعًا بأنّ أخاها، وإن أطلق لحيته وحفّ شاربيه، سيظلّ نذلًا، بل أكبر نذل. بالمناسبة، أنّى نزل عليه وحي الإيمان؟ تستذكر الآية أو الحديث (لا تعرف بالضّبط) الذي رماه على مسمعها

عندما التقت به قبل أيّام، فتضحك في أعماقها. ماذا تراه حدث لينقلب مئة وثمانين درجة؟ لا تذكر أنّه كان يظهر ميولًا تشي بإمكانيّة تديّنه مستقبلًا. أقلّ ما كان يفعله قديمًا لدى الغضب منها هو ترهيبها بالصّراخ أو... الكفر!

يقتاد دركيّان هلال مكبّلًا إلى القاعة. يجلسانه خلف الحاجز الخشبيّ المنخفض جهة اليمين، وينتصبان جامدين، كلٌّ في جانب. تعلو أصوات الأهالي. يُسمع سبابهم. منهم من يبكي. ومنهم من تختنق صرخته. ثمّ يهمد كلّ ذلك تدريجًا مع وصول الكاتب والمباشر، فالقاضي.

مذ دخول هلال وبصر ندى مصوّب إليه، لعلّه يلتفت نحوها ويرى الشّماتة تلتهب في عينيها. أجل، هي الوحيدة ربّما التي تخطّت مرحلة الحقد عليه، واليوم لم يبقَ في قلبها له سوى الشّماتة. مجرّد تصوّر أنّه سيكمل حياته في سجن منفرد، ينتظر اللحظة التي يُوقَّع فيها على تنفيذ حكم إعدامه، يمدّها بالشّبع، بأنّها ثأرت لبعض وجعها. وإن لم يصدر الحكم بالإعدام (كما يتوجّس قصيّ) فأقلّه سيهرم الجرذ في الزّنزانة مع أشغال شاقّة، سيشيخ ويموت ويتعفّن داخلها، وحيدًا، لا يسأل عنه أحد. هذا التّصوّر أيضًا يشفي غليلها.

تكون آذان الكلّ صاغية، توّاقة إلى سماع القاضي يضرب مطرقته محدّدًا جلسة النّطق بالحكم النّهائي قريبًا، رغم إدراكهم أنّ حبل المشنقة لن يُعلّق، حتّى لو ظلّوا يجوبون الطّرقات، مطالبين بجعل سائر مذكّرات الإعدام الصّادرة بحقّ مجرمين كهلال تدخل حيّز التّنفيذ. إلّا أنّ محامي الأخير، ربيع برّي، المعروف في الوسط القضائي بخبرته في القفز على حبال القوانين، يروح يلوّح بأوراق

جديدة، أوراق لا شكّ في أنّها ستؤثّر على سير النّطق بالحكم المرجوّ:

– حضرة القاضي، صارت بين يديّ أخيرًا تقارير الاختصّاصيّين الذين عاينوا موكّلي عن قرب طوال فترة احتجازه، ومفادها يتّسق وجميع اعترافاته السّابقة، بحيث تثبت أنّ موكّلي، هلال خولي، يخضع لأحد شروط الجنون الجرمي المانع للمسؤوليّة الجزائيّة.

ينظر الجميع إلى المحامي الواثق ذاهلين، جاهلين ما يتفوّه به من مصطلحات قانونيّة:

– إنّ موكّلي مُشخّص، وفق هذه التّقارير التي أضعها الآن بين أيديكم، بحالة نادرة من الهذيان، تندرج في لغة القانون ضمن حالة الجنون الخاصّ، ممّا يبرّئه من مسؤوليّته عن الجرائم، لأنّه ارتكبها تحت تأثير تلك الحالة المفقدة كلّيًّا للوعي والإرادة.

يستفيض المحامي بتوصيف مرض هلال النّفسي المستجدّ على مسار القضيّة، المرض الذي بموجبه يُعدّ هلال مجنونًا، فاقدًا وقت ارتكاب ركن الجريمة المادّي للعقل والتّمييز والرّشاد، وتاليًا، غير مؤهّل لتحمّل المسؤوليّة الجزائيّة، إذ لا عدالة ولا مصلحة في عقابه. لذا يرتئي القاضي، بعد أن يفرغ المحاميان من المرافعة، تمديد الجلسات جلسةً أخرى بعد، يعيّنها في الأسبوع المقبل، فلا يكاد يتفوّه بآخر كلمة، حتّى تشعر ندى بقصيّ ينتفض قائمًا من مقعده، ويحثّ خطاه بحنق ساطع نحو الخارج، فيما تتعالى مجدّدًا أصوات الحاضرين في القاعة، بين مستهجنة، وأخرى مستنكرة، وأخرى تهاجم وتشتم هلال الغائب ذهنيًّا في غير زمان، وغير مكان...

11

كثيرًا ما تمنّى الموت. لا لنفسه، بل للآخرين؛ لأبيه، لأمّه، لأقاربه، لجيرانه. لا يذكر أنّه عرف ذات يوم معنى الحبّ. لا يذكر أنّ شيئًا من هذا القبيل استطاع أن يمسّه. الكراهية؛ الكراهية وحدها كانت ولا تزال تحتلّ قلبه.

بدأ كلّ هذا أيّام الطّفولة. أيّام صار يعي أنّه ولدٌ مختلف عن أترابه، دائم الصّمت، منطوٍ على نفسه، يفضّل مرافقة الأصغر منه سنًّا وحجمًا، لأنّ كلّ ما حوله كان كبيرًا بنظره، شاهقًا، يستحيل على قزم هزيل مثله أن يطاله. لهذا كان قليل الخروج من بيته، رغم كرهه له أيضًا. فالدّاخل – بادئ الأمر – كان نارًا ألطف أضعافًا من أهوال الخارج، حيث أولاد الضّيعة دائمًا له بالمرصاد، بقبضاتهم وألسنتهم المسنونة كالرّماح. لا يذكر أنّه خرج يومًا للّعب أو لشراء غرضٍ ما وعاد سالـمًا. ما إن يطأ أرض السّاحة حتّى كان يزعق أحدُهم: «أتت هلال»، فيلتمّ في التّو العشرات حوله، يتناوبون في شتمه والهزء به، هذا ينعته بالطّفل الثّريّ المدلّل مقلّدًا صوته الرّفيع، وذاك يأمر بنزع بنطاله للتّأكّد من حقيقة جنسه. كانت ملامحهم، وهو يدور وسط الحلقة بحثًا عن مخرج بين الأرجل،

ترعبه، تحرث فيه عميقًا، تزرعه شرًّا أعمى للعالم، يحصده منه الأولاد دمعًا مريرًا، لا حول له ولا قوّة. لحظات الهجوم الكلاميّ تلك كانت أقسى وأبقى من الهجوم الفعليّ، لحظة تلتئم الأيادي على لحمه الطّري، ويتدافع الجميع طالبين قضمة، لحظة يسري فيه خدر غير قابل للتفسير، بنجٌ كلّي للأصابع التي تشدّه من شعره، للقبضات التي تمسكه من خصيتيه، للأسنان التي تعضّه في عنقه، واللكمات التي تكدم جلده. يا لقبح الجلجلة التي كانت تصدح من حناجرهم حين يتركونه، كرمى لعابر سبيل يبدّدهم، جثّةً هامدة على أرض السّاحة، ويمضون في حالهم؛ كأنّ شيئًا لم يكن. كأنّ ما تركوه خلفهم حجر ميّت لا يملك حدًّا أدنى من المشاعر. من الرّوح. من الطّاقة التي يمكن أن يأتي يوم وتنفجر لظًى في وجوههم. كانوا على قدر هائل من البشاعة. كلّهم. حتّى بدر، ابن عمّه الذي يكبره بستّ سنوات، والذي كان يقف مكتوف اليدين مع من يجايله، شاهدًا على كلّ شيء، باسمًا، ضاحكًا، وأحيانًا مشجّعًا، لا شيء يحرّك فيه صلة الدّم التي تربطهما، ولولا ذرّة الحياء الباقية فيه، لكان أول المشاركين في تلك الجرائم.

جرائم لا تُحصى ارتكبها الجميع في حقّه. الجميع دونما استثناء. ولعلّ أكثرها رسوخًا فيه كانت في ذلك اليوم، من العام 1978. قبل خمسة أشهر من قصف إسرائيل لكفرشوبا، ونزوح أهلها القسريّ إلى المدن والقرى المجاورة. وقتذاك، كان خلف مقاعد الصّف الثّاني الابتدائي في المدرسة الإنجيليّة في مرجعيون. ثالث شوبانيّ (كما يُدعى أيُّ آتٍ من كفرشوبا) يرتاد الإنجيليّة بعد سعيد ابن رئيس البلديّة، ونينار ابنة المختار. كان يكره المدرسة، يحسب لها ألف حساب ساعة يطرق والده باب الغرفة، ويهجم إلى الدّاخل صارخًا

ليوقظه. كثيرًا ما تلقّى من كفّه صفعات موجعة وهو متمسّك بالوسادة، رافضًا مفارقة سريره. لكنّه كان يخاف أباه، يهابه حين تحتقن أوداجه غضبًا، ويزمجر كاشفًا عن طباعه، فكان يضطرّ في النّهاية إلى الامتثال لأوامره العسكريّة، حتّى إنّه اكتسب منبّهًا ذاتيًّا، أشبه بوسوسة مرضيّة، يجعله ينتفض عند سماع خطوات جزمته من بعيد وقبل وصوله إلى غرفته بأمتار عدّة.

كما في ضيعته كذلك كان في مدرسته: شديد الحياء، يتجنب رفع يده للمشاركة في الصّفّ، وإن حدث أن سألته المعلّمة شيئًا، يجزع ويطرق متجاهلًا السّؤال وقهقهات زملائه السّاخرة من شكله وصوته. هم أيضًا كانوا يضربونه، قطعًا ليس بقسوة أولاد الضّيعة نظرًا لانتمائهم لشريحة أرقى اجتماعيًا، إلّا أنّه كان ضربًا، وكان مؤلـمًـا. في زاوية الحمّام كانوا يحاصرونه، وأحيانًا وسط الملعب، أو عند بوّابة المدرسة، وينهالون عليه بالسّباب واللكمات. وعندما تأتي الأخت النّاظرة لتفضّ تجمهرًا يكون فيه هو كبش المحرقة، تنهرهم وتقاصصهم وتطلب استدعاء أهاليهم علانيةً، لكنّها ترخي لهم الحبل سرًّا، فهي أيضًا كانت بحاجة للتّسلية في مدرسة متزمّتة، تديرها الرّاهبات ويترأّسها القساوسة. كانت المدرسة بالنّسبة له جسمًا مصغّرًا عن المجتمع القبيح في الخارج. حيث النّظرة التّراتبيّة الهرميّة، حيث القويّ يستبدّ بالضّعيف، وحيث الضّعيف يكيل للأقوى باستقوائه على من هو أضعف. يومذاك، فيما كانت المعلّمة تكتب على اللوح جدول الضّرب، وهو في مقعده يحاول تفادي كرات الورق التي يرميه بها صبيان الصّف مبلولةً بلعابهم، دخلت النّاظرة واستدعته إلى مكتب مدير القسم. خلفها في الممرّ، كان قلبه يخفق هلعًا تفاقم لحظة دخل المكتب ليجد أباه مع

المدير، مقطّبًا، ناقمًا، على وشك الانفجار، في زيّه العسكريّ الذي يكره، وحذائه الجلديّ الذي يثير فيه الرّعب. طلب إليه المدير السّمين الجلوس إلى المكتب بمواجهة والده، وباشر بتعرية أدائه الأكاديمي أمامه. لم يترك تفصيلًا صغيرًا إلّا ذكره، لم يترك صفةً محبطة إلّا نعته بها. كان في صرامة ملامحه، وحدّة بؤبؤيه اللذين يعلوان نظّارته الجاثمة على رأس أنفه الأفطس، بمثابة غول في عيني هلال الغارق في كرسيّه. كان يكره ذاك المدير النّهم، عابد الطّعام! عند كلّ فسحة كان يراه محمّلًا بالشّوكولا والمناقيش والعصير، يأكل حصّةً كبيرة وهو يقوم بجولة الدّقيقتين اليوميّة حول الملعب، ثمّ يعود إلى مكتبه ينهش ما بقي في جيبه، تمامًا كما نهشه يومئذٍ بجدّيته المستفزّة، بينما والده، المالئ مقعده رجولةً ونجومًا ترصّع منكبيه العريضين، ساكت، لا يعلّق ببنت شفة، وسكوته هذا، إن دلّ على شيء، فعلى الشّر الذي كان يضمره له، والذي أفرغه في لحمه عقب رجوعهما إلى البيت.

لم تكن تلك العلقة الوحيدة بين يدي والده. لكنّها كانت الأكثر ضراوة. لن ينسى كيف قاد به إلى الضّيعة كالمجنون. بقي طوال الطّريق يصيح: «حمار وستظلّ حمارًا. لا في المدرسة فالح، ولا في غيرها. ماذا سيأتيني منك غدًا يا ابن الحمار، ماذا؟»، كفٌّ على خدّه، ولكمة في أحشائه، احمرّ جلده لفرط الضّرب، ولم يستكن لأبيه عصبٌ إلّا عندما أزاح أمّه المبهوتة من الطّريق، وأنزله إلى قبو المنزل، ليجيء بحزامه الجلديّ، وينهال على ظهره وقفاه بالجلد حتّى طرحه أرضًا.

لم يدرِ كم بقي شبه فاقد للوعي في وحشة ذاك القبو، وحين استيقظ وجد الباب مقفلًا. استنجد بأمّه لعلّها تخلّصه من عتمة

الليل، بُحّ صوته، لكن لا صوت لمن تنادي. كان يعلم أنّ أمّه أضعف من أن تكسر كلمةً واحدة لوالده، إذ بعد مضيّ ساعات على احتجازه، نادته من خلف الباب: «هلال، لا تخف. أبوك غادر الآن. وغدًا صباحًا سوف يخرجك». لكنّ هذا ما لم يحدث. قضى الليل ينتحب لصق الزّاوية، تارةً يتمتم ألحانًا عشوائيّة طردًا للأصوات التي راح يتخيّلها، وطورًا يتلهّى بأعواد من الحطب المكوّم قربه. كانت ليلةً ليلاء جعلته ينقم على سائر كائنات الكون. ومع تسرّب ضوء الصّبح من نقور صغيرة أعلى الحائط، سمع صراخ أبيه ملعلعًا: «أريد أن أربّي ابنك المغفّل. عسى يصير رجلًا كابن عمّه بدر! معك دقيقتان لا أكثر. إن تجاوزتِهما، قسمًا بربّي سأزربك معه». ثوانٍ نزلت بعدها إليه أمّه، وضعت أمامه صينيّة طعام، قبّلت جبينه كمن يسرق شيئًا، وارتقت الدّرج عائدةً إلى فوق. لفرط جوعه، انكبّ على الأكل بشراهة، حتّى إذا بلغ منتصف شبعه، أصابته موجة بكاء شرسة وهو يسمع: «كلّ الحقّ عليكِ يا حمارة. ربّيتِه على الدّلع حتّى صار هكذا. يلعن السّاعة التي رأيتكما فيها!». وطُبش باب البيت طبشًا اهتزّ له قلبه الصّغير. بعد ذاك نزلت أمّه لتتمتم من خلف الباب: «لا تخف يا قلبي. أبوك يحبّك. لكنّه مضغوط في عمله هذه الأيّام. وأقلّ شيء صار ينرفزه. تحمّله يا عمري». لم يتحمّل هراء الضّعف الذي كانت تتفوّه به. نهض غاضبًا وركل الصّينيّة، فانقلبت ووقع الطّعام عنها أرضًا.

كان يكره أمّه لهُزلها أمام والده. لم يكن لها دور يُذكر في البيت. وجودها يعادل غيابها. فالبيت كرة لا تدور سوى في يده – يد الضّابط الذي يظنّ أينما حلّ أنّه ما زال في مخدوميّته، يفرّق الأوامر على هذا وذاك، ويرفع من نبرته في وجه أيّ شخص، أيّ شيء، لا

يُرضي خاطره. كان على الكلّ أن ينال رضى خاطره. ذاك، أو فَليتوخَّ العواقب.

دائمًا ما تمنّى لو تقف أمّه في وجه أبيه. لو تقول فيه كلمة حقّ. لو تتوقّف عن تمجيده أمام النّاس، عن إيجاد الذّرائع لبطشه وجوره. لكن لا. لم تكن تستطيع، هي المسالمة التي لا تهمّها سوى سمعة العائلة. السّمعة والفضيحة كانتا الخطّ الأحمر الوحيد في حياتها. «إيّاك يا هلال أن تلتفت يمينًا أو يسارًا. امشِ خطًّا مستقيمًا. إن ضربك أحدٌ ورددت له الضّربة بمثلها، يغدو الحقّ عليك. كن مؤدّبًا أينما حللت. ابتعد عن الشّرّ وغنِّ له». تلك عيّنة صغيرة من الدّروس التي كانت تردّدها بانتظام على مسمعه. حتّى عندما تراه مدمى على يد والده أو أيدي أولاد الضّيعة، كانت تؤنّبه، وأحيانًا كثيرة تحمّله وزر المشكلة. وفي ذاك اليوم الدّموي، أخذت تلومه على ما أصابه: «لو تسمعني وتحصّل علاماتٍ جيّدة، ما كان أبوك تجرّأ أن يحكيك بسوء. والله هو يحبّك. لكنّه يجهل أن يعبّر. يريدك رجلًا. مثله وأحسن. أتسمعني، هلال؟». كان يسمعها بوضوح، يتمنّى لو تغرب عنه بعيدًا، لو تكفّ عن الكلام، لكنّها بقيت تحكي من خلف الباب دون انقطاع، وهو يبكي دون انقطاع، وبعد دقائق من عدم تلقّيها إجابة شافية، تلاشى حسّها. أدرك أنّها سئمت وغادرت، تركته وحيدًا، كما هو دائمًا. الأوكسيجين في القبو كان يتناقص، ووحدها جيوش النّمل في دبيبها تجاه وكر في أقصى الزّاوية آنست وحدته. قام من مطرحه يزحف جانب تلك الحشرات. استرعت انتباهه نملة تحمل فتات خبزة تكبرها بأضعاف. راقبها جيّدًا وتركها تسير حتّى ما قبل الوكر بقليل، ثمّ التقط الخبزة يتأمّل النّملة تركل بأرجلها، آبيةً التّخلّي عن قوتها. إحساس غريب باللذة

راوده إزاء رؤيتها تعاني. فخطر له أن يعيدها إلى الأرض ويحمّلها شيئًا أثقل بعد، شيئًا كـ... (تلفّت حوله) قطعة من الحطب! التقط واحدة كبيرة مستديرة من الرّزم التي يحتفظ بها والداه كمخزون شتويّ للمدفأة، ووضعها فوق النّملة. وحين رفع الحطبة ليرى كيف سحقها، طفِق يضحك. تمنّى لو أنّ النّملة أبوه أو أمّه. لو أنّها أحد زملائه في الصّفّ. لو أنّها بدر أو لميا أو عمّه، أو ولدٌ من أولاد الضّيعة. ثمّ وجد نفسه يضغط على الحطبة ويدحرجها فوق باقي النّمل. الحطبة تدور في كفّه، والنّمل مستسلم للفرم. كان مأخوذًا بما يفعل، حتّى ملّ من النّمل وراح يبحث عن حشرات أخرى أكبر. لم يجد سوى شباك عنكبوت مهجورة قرب السّقف. أخذ غصنًا رفيعًا وجده بين الحطب، وقفز مرّتين ليطاله ويهشّمه. بعد ذلك، لم يبقَ شيء ممتع يفعله. كان التّعب قد بدأ يتملّكه. فأزاح بحذائه الصّينيّة ومحتوياتها، كوّمها إلى الزّاوية، وتمدّد أرضًا في محاذاة الحائط، أغمض عينيه، وحاول أخذ قسط من النّوم...

لم يكن حلمًا ما رآه حين فتّح عينيه مجهدًا. فتّحهما عن والده. كان فوقه. يرنو إليه بصفرة مروّعة. الدّخان يتصاعد حلقات من سيجارته، وفي يده زجاجة فودكا يعلّ منها ويشهق. ارتعد للمنظر، وقبل أن يعي ما كان أبوه ينوي فعله، راح يبكي، خبّأ وجهه خلف أنامله الصّغيرة، مخافة كفّ أو ركلة أو لكمة يمكن أن تهوي عليه، إلّا أنّه فوجئ بوالده يقول:

– حبيبي، كُفَّ عن البكاء وقُم.

ثمّ فتح سحّاب بنطاله، وأخرج، بشكل فاضح، ما كان هلال تعلّم أنّه منطقة خاصّة لدى كلّ شخص، محظورة على الغير.

– قُم لأريك شيئًا لم تره قبلًا.

علت همهمات هلال. أبى أن يرى والده على ذاك النّحو: متعتعًا من السُّكر، ويلوّح بشيئه الذي بدا له أكبر من الذي يملكه، أثخن، وأقرف.

– أتريدني أن أغضب؟! اسمع الكلام!

قام هلال يحاول الهرب، لكنّ أباه كان أسرع منه. التقطه من شعره، شدّه إلى جسده، ركله في بطنه ليكفّ عن الحراك، أجبره رغم النّحيب والمقاومة على فتح فمه، وبعد أن فعل ما فعل، رفع البنطال إلى خصره وقال:

– اصعد إلى غرفتك واستحمّ لنأكل العشاء. أسرع!

في ارتقائه سلالم القبو إلى الطّابق العلويّ، تمنّى لو يصطدم بأمّه لترى ما حلّ به. كانت المادّة البيضاء الملتصقة بوجهه لزجة ومقزّزة، لم يدرِ حينذاك كنهها، ولا عرف من أين أتت. كان مغمض العينين بينما أبوه يقترف بحقّه تلك الشّناعة.

صفق باب غرفته، فباب الحمّام، وأسلم رأسه للصّنبور. انصبّ الماء متّسقًا ودمعه، وعكست المرآة شحوب وجهه. كساه البلل حتّى أخمصيه، وسرت فيه رعدات عنيفة جمّدته.

– أرأيت حبيبي؟ قلت لك ستخرج.

ترامى إليه صوت أمّه من خلف الباب.

– أأستطيع الدّخول؟

ما كادت تنهي سؤالها حتّى اندفع واثبًا، محاولًا إقفال الباب، لكنّ أمّه كانت أسرع منه، دخلت، فاصطدمت به:

– ما بك مبتلّ هكذا؟ تعال.

هنا كانت دموعه قد جفّت. لم يعد قادرًا على التّعبير. انصاع ليدي أمّه تحملانه، تنيمانه على السّرير، وتجفّفان جسده

بمنشفة كبيرة.

لا يذكر ما حدث بعدها سوى أنّه استيقظ صباح اليوم التّالي في ثياب أخرى، خدّه وعنقه مضمّدان بلاصقات جروح، أمّه نائمة بجواره، والشّمس ساطعة. على ما يبدو، أحسّت به أمّه ينهض، إذ نهضت هي الأخرى، صبّحت عليه، وطلبت منه أن يلبس زيّ المدرسة.

– لا أريد الذّهاب!

تسمّر مكانه، ظهره مُسنَدٌ إلى الخزانة، وفي خاصرته ألم من ارتدادات ضرب البارحة.

– لا تقلق حبيبي. من اليوم وصاعدًا، أنا التي سأوصلك.

لا يذكر أنّها حكت يومذاك شيئًا مهمًّا في السيّارة، طلبت منه فقط أن ينتبه إلى الشّرح ويتجنّب المشاكل مع زملائه، ثمّ شغّلت شريط فيروز، وسكتت. ظلّ ينتظر منها أن تسأله سؤالًا واحدًا عمّا حدث معه في الليلة الماضية؛ عبثًا.

وقبل أن يترجّل إلى الصّف:

– إن سألك النّاظر لم كنت غائبًا البارحة، أو لم هذه الضّمادات، أعطِه هذه الورقة. انتبه إلى نفسك حبيبي.

طبعت في راحة كفّها قبلة، ونفخت عليها تجاهه.

طوال ذاك النّهار، أبت صورة والده أن تبرِح خياله. ومع انقضاء الدّوام المدرسيّ، كانت أمّه خارجًا في انتظاره. استقبلته بضمّة، فقبلة، ثمّ عادت به إلى البيت، وصوت فيروز يعلو فوق أسئلتها العشوائيّة.

– والدك في الخدمة. (أخبرته لدى وصوله إلى البيت متلفّتًا حوله). لن يعود قبل يومين.

غاض منه الخوف؛ صعد إلى غرفته يبدّل ثيابه.

– الغداء جاهز!

كان يتضوّر جوعًا، ولحسن الحظّ لم يكن مضطرًّا إلى الجلوس وجهًا لوجه مع أبيه حول المائدة.

بينما أمّه تسكب الطّعام:

– اسمعني هلال. أعرف أنّ أباك ضيّق الخلق. وأعرف أنّك تهابه، وربّما أحيانًا، تتمنّى لو أنّه لا يأتي إلى البيت، لكن... عليك أن تعذره. إنّه يكابد، ويكدّ، ويتلف أعصابه لكي يراك أفضل شبّان الكون. صدّقني يا هلال. والدك يحبّك. لقد تعذّب كثيرًا في حياته. كان فقيرًا. وكان والداه مجحفين في حقّه. لكنّه تعب، اجتهد، ووصل إلى ما هو عليه اليوم. أخبرني، من من النّاس لا يحسده؟ الكلّ يريد رضاه، الكلّ يخافه ويحترمه. لذا يجب عليك أن تتفهّمه. إنّه يحبّك، صدّقني، يحبّك أكثر ممّا تتصوّر. لكنّه ربّما لا يعرف كيف يعبّر. ببساطة، إنّه والدك. وعلينا تقبّله كما هو. أعرف أنّك لم تزل صغيرًا على استيعاب كلامي. لكن حاول. لن تضرّك المحاولة. أقلّه ركّز في دراستك، ونل أعلى العلامات. عندئذٍ ستثبت له جدارتك. أتفهمني حبيبي؟

عامت عيناه وهو يزدرد الطّعام – ملعقة قهرٍ تلو ملعقة. ولـمّا فرغ صحنه، هرع إلى الفناء، لائذًا بفيء اللوزة.

في اليومين اللذين غاب فيهما والده عن البيت، تحاشى الاقتراب من أيّ كائن بشري. كان، بعد إنجاز فروضه، إمّا يخرج إلى حديقة البيت، يتسلّق الأشجار ويقتعد الأغصان متأمّلًا الطّبيعة بنقمة، أو يصعد إلى السّطح يدهس الحشرات ويلاحق العصافير.

ومع عودة والده، عاد ارتعاش يديه، واصطكاك ركبتيه.

ترجّل من سيّارة أمّه مع حقيبته الثّقيلة، وإذا بالسّيّارة السّوداء (بويك 1973) تطالعه مركونةً في مكانها المعتاد. لبد لحظات قبل أن تمسك أمّه بيده، وتقتاده، غصبًا عن مقاومته الطّفيفة، إلى الدّاخل.

– لا تخف. افعل كما أخبرتك، ولن تكون إلّا راضيًا.

لحسن حظّه، وجد أباه نائمًا. لم يحتكّ وجهاهما سوى صباح اليوم التّالي، حول مائدة الفطور.

– بما أنّ اليوم عطلة، ما رأيكما بأن نمضي النّهار عند أخي خليل؟ سنأخذ غداءنا معنا، اتّفقنا؟

لم يكد يسمع السّؤال الموجّه جزئيًّا إليه، حتّى اضطرب قلبه. رفع عينيه عن الطّعام مختلسًا نظرة إلى وجه أبيه، فلاحت له ابتسامة تعلو شفتيه. استغرب.

– فكرة جميلة!

أنقذت أمّه الموقف. أمّا هو، فاكتفى بهزّ رأسه إيجابًا. وبعد بضع لقيمات:

– بالمناسبة هلال، لقد ابتعت لك شيئًا. أتمنّى أن يعجبك.

الحقّ يقال، لقد أعجبه؛ كناريّ في قفص، يغرّد على مدار السّاعة.

كطفل في الثّامنة من العمر، كان من الطّبيعي أن يفرح ويستبشر خيرًا بالتّحوّل المفاجئ الذي طرأ على تصرّفات والده، إلّا أنّ هلال بقي متوجّسًا، خائفًا من أيّ مفاجأة أخرى قد تبدر منه...

قبل أن يترجّل الثّلاثة إلى منزل أبي بدر القابع أعالي الضّيعة، اقتربت أمّه منه واستبدلت لاصقة الجروح على خدّه بواحدة جديدة:

– هذه تخفي أثر وقوعك بشكل أفضل.

لحظات وخرج خليل (أبو بدر) مُرحِّبًا.

لم يكن هلال يحبّ عمّه، لأنّ في عروقه ذات الدّم الذي يجري في عروق والده. فضلًا عن أنّه كان شخصًا بخيلًا، لا يذكر هلال أنّه مدّ في أحد الأعياد يده إلى جيبه ونقده بضع ليرات. وقد امتدّت ملامح بخله إلى بيته المتواضع الشّكل والمساحة، وإلى وجوه زوجته وأولاده الثّلاثة. لهذا، كما يحدس، كان بدر يغار منه، ولهذا لم يكن يدافع عنه عندما يتعرّض له أحد. أمّا لميا التي تصغره بشهرين أو ثلاثة، فكانت تفوق أخاها قبحًا، مرارًا حاول التّقرّب منها، لعلّها تصادقه، لعلّها تقف في صفّه، أو حتّى تتفهّمه، لكنّها كانت كما الجميع، تتفرعن وتزداد لؤمًا بحقّه عند كلّ محاولة، فتهزأ، وتنبزه بألقاب أقلّ ما يُقال فيها إنّها محبطة. الشّخص الوحيد الذي كان يتطلّع إلى رؤيته في بيت عمّه هو ندى. لا محبّةً بها بالطّبع، بل بصوتها. كان صوتها غير عاديّ، في لحظة يمكن أن يتحوّل من الرّومنسيّ العذب، إلى الجبليّ الهدّار. عندما تبدأ بالغناء كان ينتشي، وعندما تنتهي لا يكتفي، فيلحق بها إلى المطبخ أو إلى حبال الغسيل في الخارج ليسمع المزيد؛ كثيرًا ما تعجّب لكونها لا تزال إنسانة أقلّ من عاديّة، تنظّف وتشطف وتطبخ، بينما هناك صبايا أقلّ منها موهبة، يحيين حياةً باذخة الشّهرة...

بعد تلك الزّيارة تعاقبت الأيّام على خير. كان أبوه يتصرّف كأنّ شيئًا لم يكن، حتّى إنّه أظهر له مودّة لم يشهدها قبلًا، فَهَمَّت تلك الذّكرى السّوداء بالتّبخّر، إلى أن حدث ما لم يقع له في بال. لم تكن أمّه يومها في البيت (أو هذا ما عاش يعتقد)، استيقظ عصرًا من قيلولة قصيرة على منظر أبيه ممدّدًا إلى جانبه، ثملًا، وعاريًا إلّا من سروال داخليّ جلديّ أسود.

– جلبت لك هديّة أخرى ستحبّها. لكن أوّلًا قم اخلع ثيابك.

كان أمرًا ذا لهجة عسكريّة، غير قابل للنّقاش، فنهض ينفّذ ملتاعًا.

– جيّد. والآن تعال.

جمد في أرضه شبه عارٍ.

– لا تخف. الهديّة معي هنا.

رفع والده اللحاف عن جسده، وأشار تحته.

– أستأتي، أم آتي أنا؟

ما كاد يزمجر حتّى انزلق هلال تحت اللحاف، شاخصًا ببصره المغشيّ إلى سقف الغرفة الواطئ. لحظات شعر بعدها بسرواله الدّاخلي يُنزع عنه، وبشيء طريٍّ دافئ يحفّ لحم خاصرته.

– اقترب منّي. أكثر بعد.

لم يقوَ على الحراك، فألقى والده باللحاف جانبًا، ارتفع بجسده، وحطّ فوقه؛ قبّله، عضّه، لعق عنقه، قلبه بالقوّة على بطنه، وراح يطعنه من الوراء، مرارًا وتكرارًا، حتّى اشتعلت أحشاؤه.

* * *

الكناريّ اللعين! صار تغريده يضغط على أعصابه. فأخرسه. استغلّ انصراف والده إلى الخدمة، وخروج أمّه إلى الدّكان، ورمى بالقفص إلى فم المدفأة. التذّ برؤية الطّير يحاول النّجاة بريشه الأصفر من ألسنة اللهب. ولـمّا خمد صوته، ولم يبقَ من أثر القفص شيء، هدأ. جلس دقائقَ ساهم الطّرف، منتشيًا بحسيس النّار، ثمّ اغرورقت عيناه، وانفجر بالصّراخ.

الحادثة الأخيرة زادت من سوء حاله؛ صار بعدها أكثر انزواءً بنفسه، وأكثر كبتًا. تدهور وضعه الأكاديميّ، ولولا علاقات والده الواسعة، لطُرد نهائيًّا من المدرسة. لكنّ أكثر ما كان يخنقه هو

تصرّف أمّه التي لم تنفكّ يومًا تذكّره بالشّريط المعلوك نفسه. وإن حدث وبكى أمامها استعدادًا ليلفظ البحصة التي تسدّ مجاري رئتيه، لم تكن تفسح له مجالًا، فتسكته بوضع إصبعها على شفتيه، والهمس له بأن يهدأ وينام في حضنها. كان يجهل كيف يمكن أن يسرّ إليها بالأمر، ومع مضيّ الوقت، ضاق ذرعًا، فكفّ عن المحاولة؛ وجد قنواتٍ أخرى لتصريف حقده وخوفه، فانتقل من دهس الحشرات وإحراق العصافير، إلى ركل أثداء البقر، وقصّ أذناب الكلاب، وصلب الضّفادع، ودسّ المفرقعات في آذان القطط. وإن لم يجد حيواناتٍ أو طيورًا للتّمثيل بها، كان يتسلّل خلسةً إلى حدائق وأسطح وإسطبلات الجيران، فينتقم لنفسه، دون أن يترك خلفه أثرًا.

* * *

كان ذاهلًا عن استيعاب فصام والده. عن استيعاب ما يروم منه كابن. تارةً يكون معه ودودًا ضاحكًا، وطورًا يصير لا يطيق رؤيته. في حضرته كان دائم الخوف، قلقًا من كلّ لحظة هانئة تمرّ، لإدراكه أنّ مقابلها فاتورة باهظة لا مفرّ من تسديدها. حتّى أمّه أكلت من الضّرب نصيبها. ذات يوم خرج إليها لدى انتهاء دوامه المدرسيّ، فلحظ آثار كدمات في وجهها فشل المكياج في إخفائها.

– أمّي، ما به وجهك؟

بنبرة لا تكاد تسمع:

– وقعت.

ثمّ رفعت صوت المذياع، وبكت بصمت، وعلى طاولة الغداء، ألبست شفتيها ابتسامةً عريضة وهي تسكب الطّعام لزوجها المستغرق في شرود عميق معتاد. ودّ لو يعرف ماذا يدور في خلد

أمّه أكثر منه في خلد أبيه. ودّ لو يعرف كيف باستطاعتها أن تسكت وتتظاهر بأنّها راضية؛ أهي غبيّة، أم تتغابى، أم هي اعتادت غضّ البصر عمّا حولها؟ قطع الأمل منها، قطع الأمل من استغاثتها وهو يرزح تحت والده، إلى أن استغلّ الأخير ضعفها، جهلها، وارتكب الأفظع...

لم يكتفِ بأن انفرد به مرّاتٍ خلف باب غرفته المقفل. ذات ليلة، جاء من الخدمة بصحبة ثلاثة عساكر، تفوح من أفواههم روائح الخمر والدّخان. دخلوا جميعًا الصّالون بعدما أومأ والده لأمّه بأن تغرب (وحدها!) عن وجهه. دخّنوا، ضحكوا، تمايلوا على موسيقى الجاز، تقارعوا الأنخاب، لعبوا النّرد وورق الشَّدَّة، بينما هو جلوس، يتفرّج عليهم مُلزمًا. وحين استوت بهم الثّمالة، قام والده مترنّحًا، قبض على عنقه، ومضغ شفتيه بقبلة لزجة. ثمّ نتره من ياقته، تناول قنديلًا عن الطّاولة، وأمر العساكر المنتشين بأن يتبعوه إلى القبو.

الأربعة تناوبوا عليه. الأربعة تشاركوا في افتراس طراوته. وكلّه بإيعاز من والده، والده الذي مزّق بنطال بيجامته، ودفع به أرضًا.

لا. لن تمّحي صورهم من باله وهم يقهقهون فوقه، يخلعون ثيابهم، يستعرضون أشياءهم، ويعبثون بها. كان خلاصه الوحيد عندما انقضّوا عليه تباعًا أن يغمض عينيه. أغمضهما بكلّ ما أوتي من قوّة. ومع هذا، بقي الدّمع لسنوات في ما بعد، ينفذ منهما بغزارة.

* * *

خمسة شهور واعتداءات أبيه تتكرّر بين حين وآخر، إلى أن أغارت الطّائرات الإسرائيليّة خلال الحرب الأهليّة على كفرشوبا، واضطرّ

السّكّان للنّزوح ما يقرب من ثلاثة أعوام إلى مناطق قريبة وبعيدة أكثر أمانًا.

بعكس معظم أهالي الضّيعة الذين لا يملكون أسقفًا أخرى تحميهم، لم يستصعب والده ترك البيت، إذ كان يملك واحدًا آخر في صيدا، قرّر اللجوء إليه إلى حين الفرج. فجرًا، بدأ بتحميل اللوازم الضّروريّة في سيّارته، بينما القصف الضّاري قائم على أطراف البلدة، حيث مخابئ فدائيّي الفصائل الفلسطينيّة.

ما إن ركب الثّلاثة في السّيّارة استعدادًا للانطلاق، حتّى تذكّر والده أنّه نسي هويّته في دُرج الخزانة، فترجّل هارعًا إلى الدّاخل لجلبها. بلحظة، انقطع السّمع فجأة. ابيضّت الرّؤية، ثمّ احمرّت، فاسودّت، عبق الدّخان في المكان، وراح اللهب يتصاعد من البيت الذي ناء سقفه ببرميل متفجّر سقط من بطن السّماء.

والده الذي كان كالشّمس، تحرق ولا تحترق، تفحّم.

إثر ذاك حدثت أمور كثيرة، لا يذكر منها سوى أنّه وجد نفسه مع أمّه، وحيدَيْن في بيت كبير، وسط مدينة كبيرة، لم يزوراها من قبل إلّا لمامًا. وقد لاقت أمّه في السّنوات الأولى صعوبةً بالغة في تدبّر أمورهما باستقلاليّة لم تعهدها مسبقًا مع رجل كان يمسك بتلابيب حياتها. فعاونها زوج أختها في بضعة شؤون، إلى أن استقرّت الأحوال قليلًا.

غير أنّ رحيل أبيه، وما أعقبه من عودة للطّمأنينة إلى حياته، لم يشفيا جراحه العميقة، إذ كبر وتعلّم في المدينة، وطيف والده يلاحقه كيفما ذهب. كان يهذي به معظم الليالي، يستيقظ من نومه هلعًا، فراشه مبتلّ بالعرق، وأمّه إلى جانبه، تبكي، وتحملق بغموض في وجهه. ودّ مرارًا لو يفضي إليها بمكبوتاته، بِخَنّاقه، لكنّ

الحاجز المرفوع بينهما منذ زمن كان عاليًا، عاليًا جدًّا، حدَّ لم يستطع إخبارها بشيء.

حتّى بلوغِه، ظلّ تعذيب الحيوانات وقتلها سبيله الوحيد للتّحرّر من أقبية الذّاكرة.

* * *

خلال أعوام المراهقة، لم يكتسب الكثير من الطّول والوزن؛ ظلّ صغير الحجم مقارنةً بزملاء صفّه الذين كانوا يحبطونه بتعليقاتهم، إذ بانت على جميعهم ما عداه ملامح الرّجولة الأولى، بزغ الشّعر باكرًا في وجوههم، على أرجلهم، وتحت آباطهم، غلظت أنوفهم، اشرأبّت قاماتهم، ثخنت أصواتهم، وصاروا يتحدّثون بشبق عن الفتيات وأثدائهنّ ومؤخّراتهنّ، كيف أنّها تطلق العنان لانتصاباتهم، فيضطرّون أحيانًا كثيرة للإسراع إلى الحمّام والاستمناء وهم يتخيّلون تلمّسها. أما هو، فكان يجلس معظم الوقت منفردًا، يفكّر، يستحضر الماضي، يتأمّل المارّين في الملعب، ويُشركهم، دون علمهم، في لعبته. المخيّلة. اللعبة التي زوّدته وقتًا طويلًا بمتعة غامضة. كانت عبارة عن تصوّرات ذهنيّة لأسوأ ما يمكن أن يجابهه امرؤ. خلال جلوسه يراقب الرّائح والغادي، كان يختار مارًّا عشوائيًّا، يثبّت عليه أنظاره، ويستعين بالخيال ليرسم لحياته نهاية. كأن يُسقط على رأسه صخرةً أو فأسًا. كأن يوقعه في هاوية أو بين أنياب أسد. كأن يحرقه أو يغرقه، وما إلى هنالك من عبث بالأقدار. كان الأمر، بقدر ما يمتعه، يطرد، ولو كذبًا، ذكريات تأبى فراقه.

مع بلوغه، بدأ يستكشف حاجات جسده الجنسيّة. إلّا أنّه، بعكس زملائه، وجد نفسه منجذبًا لا إلى البنات وحسب، بل إلى الصّبيان كذلك، تحديدًا الأصغر منه. مجرّد رؤية الصّغار كانت تحرّك

فيه الغرائز، فينسحب خلسةً من ملعبه، ويقصد ملعب الأطفال ذوي الخمس إلى التّسع سنوات، يختبئ بين جدار مسلّح ومجموعة أشجار سروٍ متراصّة تحوّط ملعبهم، يمضي الاستراحة وهو يراقبهم، أحيانًا يُنزل بنطاله، يتخيّل أمامه هذا أو هذه، ذاك أو تلك، يلعق أو تلعق جسده، فيستشيط رغبةً وشبقًا حتّى يقذف سائله على جذوع الشّجر. ومع اعتياده الأمر، أصيب بالملل. صار يتطلّع إلى أكثر من مجرّد التّخيّل، إلى تلمّس الأطفال ومداعبتهم مباشرةً.

ذات يوم من عامه الخامس عشر، تحقّق له ما أراد. كان في الصّف التّاسع المتوسّط حين وقعت طابة خلف الأشجار حيث كان يقف مع شبه انتصاب. في البدء دهمه القلق، ظنًّا منه أنّ أحدًا كشفه متلبّسًا، لكن عندما رأى ولدًا يصغره بخمسة أو ستّة أعوام يركض نحوه، اطمأنّ. أمسك بالطّابة وخبّأها خلف ظهره، مضمرًا الشّرّ.

فوجئ به الولد لحظة وثب هابطًا على بعد خطوات منه. لحظ طرف الطّابة خلف ظهره، فطلب إليه استرجاعها.

– تعال خذها.

قال للولد خافق القلب. فامتثل الأخير واقترب ببطء.

– سأعطيك الطّابة. ولكن بشرط.

أنزل الطّابة بين رجليه، ثمّ أنزل بنطاله.

– لا تخف. ألا تريدها؟ تعال.

لبث الولد مكانه، وما كاد يصرخ، حتّى انقضّ عليه هلال كاتمًا نفسه. أسند رأسه إلى الحائط، وجعل من فمه منفذًا لنشوته.

– لا تبكِ. هذا سرّنا الصّغير. (قال له حين انتهى). أنا لن أخبر أحدًا، وأنت أيضًا. وإلّا قتلتك!

رمى إليه بالطّابة، وطار إلى ملعبه.

أمضى النّهار مغمورًا باللذة، وليلًا تمنّى لو يستعجل الصّبح حتّى يعيد الكرّة، مع طفل آخر.

هكذا، أدمن الفعلة. من أسبوع للتّالي صار يقتنص الفرص، ويبتكر أساليب متنوّعة، لينفرد خلف الأشجار بولد أو فتاة، ومع ازدياد أعداد ضحاياه، قرّر التّخلّي عن مكان صيده المعتاد. صار يتنقّل بين أمكنة استراتيجيّة أخرى، داخل حرم المدرسة وخارجها، ليبعد عنه الشّبهة. ولم تقتصر اعتداءاته على بضع دقائق من الجنس الفموي، بل تطوّرت لاحقًا إلى اعتداءات جنسيّة كاملة.

كان الخوف الذي يراه في عيون الأطفال يمدّ جوع الانتقام من والده بالشّبع؛ مقاومتهم، دموعهم، رائحة خوفهم، كانت الإكسير الذي يبرئ كسوره. بإيلاجهم، كان كما لو أنّه يَخرُج من ذاته. من عذابه. من العتمة. لكنّ شعوره ذاك كان آنيًّا معظم الوقت، مفعوله ينتهي فور أن يرفع بنطاله إلى خصره ويعود لمزاولة أشغال الحياة. لهذا كان لا بدّ من طريقة أخرى تقيه همود ذلك الشّعور. هكذا، لجأ إلى القتل. لم يكن قتل الضّحايا يستديم فيه نشوة الثّأر وحسب، بل كان أيضًا يشعره بالاختلاف عن والده. هو الذي يكره والده حدّ العمى، لم يكن جائزًا أن يظلّ عائشًا في جلبابه. كان في ذلك شيء من تحرّره.

لكن ما من إنسان مفرغ تمامًا من المشاعر. هناك فقط من هو بارع أكثر من سواه في سحلها. وهلال كان من هذا النّوع. أحيانًا، عند النّظر إلى الدّم الحارّ على كفّيه، كان ينبت فيه شعور كالعشب

الضّار: الذّنب. بعد أن يواري قتلاه التّراب، كان يشعر تجاههم بالذّنب، أجل. لهذا كان لا بدّ من إيجاد ذرائع تقيه ذاك الشّعور الإنسانيّ الواهن. هنا، صار يقنع نفسه بأنّه لا ينتقي إلّا من يشبهونه من أطفال ضعفاء ومسلوبي الإرادة، وأنّه لا يغتصبهم ليأخذ بالثّأر، بل يمارس معهم حبًّا ما كان أحد سيبديه لهم، وأنّه بإراقة دمهم يسدي لهم خدمة ستجنّبهم تجرّع كأس الحياة المرّة مستقبلًا. هكذا غاض فيه كلّ شعور بالذّنب، وصار عندما ينظر إلى نفسه في المرآة يراها بصورة الـمُخلّص.

بناءً على ذلك، تنوّع ضحاياه. من جملتهم صبيٌّ ذو احتياجات خاصّة، قتله معتبرًا أنّه خلّصه من عذاب سيحياه في مجتمع ينبذه ويعتبره عالة عليه. وهناك طفل آخر ذكّره بنفسه في الصّغر. خلال اقتلاع عينيه، وعده بأنّه سيغدو عصفورًا طليقًا في الجنّة، حيث لا مكان لظلم، أو لظلمة.

«خلّص من مُرّ الآتي» كثيرين. تجاوزوا عددًا أصابع اليدين بمرّات. قصصهم تتقاطع بعضها مع بعض. ولكلّ نهاية حزينة منها ذريعة مبتكرة، أبقت ضميره المقتنع بالمسوّغات نفسها مرتاحًا حتّى اليوم...

12

استقلّ كلّ أربعة رجال، على رأسهم إمام مسجد، باصًا صغيرًا جابوا فيه مختلف المناطق. بدر والشّيخ محمود وثلاثة آخرون اختاروا مدينة صيدا مكانًا لمسعاهم. وقد طُلب إلى الجميع (بمن فيهم الأئمّة) ارتداء ثياب عاديّة مريحة، لتقريب المسافات من الشّباب الممكن مصادفتهم.

أمضوا نهارًا بطوله يتنقلون من مجمّع تجاريّ إلى محلّ بلياردو إلى مقهى إلى متنزّه إلى حديقة عامّة. كان الشّيخ محمود، لدى رؤيته مجموعة شبّان يدخّنون أو يتسامرون أو يلعبون، يقترب منهم متودّدًا، يصافحهم ويسألهم عن أخبارهم وأحوالهم، ويمهّد الطّريق إلى موضوعه الأساس بالحديث عن السّعادة والحزن، عن طموح الإنسان الذي يجعل لحياته مغزى، وعن الشّقاء الذي يمكن أن يعترضه إن لم يضع نصب عينيه هدفًا واضحًا يسعى إلى تحقيقه.

البعض استغربوا الأمر فابتعدوا، والبعض وجدوا فيه تطفّلًا فكادوا يبدؤون خناقة، أمّا البعض الآخر، وكانوا قلّة، فقد أظهروا ترحيبًا، ولم يعارضوا الاستماع إلى الحديث حتّى نهايته.

طوال الوقت، كان بدر ذاهلًا أكثر منه معجبًا بقدرة الشّيخ على استيعاب وتحمّل الرّفض والسّخرية والفظاظة التي جابهوها. في أكثر من مرّة داخلته رغبة ملحّة في صفع شابّ لقلّة احترامه أو للهجته الهازئة، في أكثر من مرّة كاد الشّيطان يركبه، لكنّ الشّيخ محمود كان يتدارك الموقف فورًا، فينسحب بمهارة من أيّ مشكلة كبيرة قبل أن تقع. وقد اعتمد الشّيخ اللغة المحكيّة في حديثه، حتّى لدى استشهاده بأحاديث نبويّة، ولم يتطرّق إلى لغة التّرهيب التي هو نفسه يبغضها. أوصل كلامه بلهجة ورديّة، ممازحة، قريبة من مشاعر الشّباب وعقولهم، وبعيدة كلّ البعد عن الرّتابة. أحيانًا، كان يخلع عنه صفة الإمام، ويرجع شابًّا مراهقًا، تمامًا كما فعل في أحد النّوادي، عندما أمسك بعصا بلياردو، فرك رأسها بطبشورة زرقاء، وأعلن واثقًا تحدّي أمهر شابّ ضمن مجموعة كانت تلعب على إحدى الطّاولات. بعدما تسلّم دوره من الخصم الذي استخفّ به، راح يُدخل وسط انشداه الجميع طابةً تلو طابة، وفي غضون دقيقتين، كانت الطّابة السّوداء رقم 8 تندفع بضربة جانبيّة من عصاه، على بساط الطّاولة الأخضر، لتسقط لولبيًّا في الحفرة.

يومذاك، أظهر تسعة شبّان اهتمامًا وترحيبًا بدعوة الشّيخ لهم للتمسّك بالصّراط المستقيم والعودة إلى بيوت الله، لأنّها، كما يرى، طريق الإنسان الوحيد إلى السّعادة. تسعة استمعوا إلى تجربة بدر في هداية الله له، بعد عقود من الضّلال أمضاها متناسيًا مَنْ مَنَّ عليه بحياة كلّها نِعَم. المرافقون الآخرون أيضًا شاركوا أولئك الشّبّان قصصهم، مبشّرين إيّاهم بأبواب كثيرة ستُفتح أمامهم من غير أن يدركوا، وبلذّة التّواصل مع الخالق على سجدة الصّلاة، تلك اللذّة الرّوحيّة السّامية فوق الدّنيوي الفاني من اللذّات.

بعد أسبوع من حملات الدّعوة في مختلف المناطق، لحظ بدر إقبالًا أكثف على ارتياد الجامع وحضور الدّروس الدّينيّة، ولا سيّما من قِبَل فئة الشّباب. فتلاشت شكوكه حيال جدوى مسعاهم، وشكر الشّيخ على جهوده الجبّارة. أسرّ إليه الأخير بأنّ معظم أئمّة الحملة شهدوا أيضًا تزايدًا لأعداد المصلّين في جوامعهم، لكنّ هذا لا يحسم بالضّرورة نجاح الحملة، لأنّ النّجاح الحقيقيّ يكمن في استدامة هذا الإقبال، ما يستدعي المضيّ قُدمًا بحملات الدّعوة، والقيام عاجلًا بتحرّكات جديدة.

13

رغم الغبطة الكاسية وجه ندى تحت أشعّة شمس نيسان، لا يتمالك كريم إلّا أن يلاحظ، عن بعد، قلقًا عميقًا تبطنه. كيف لا وقد بات يقرأ جيّدًا ملامح من ستغدو زوجته في غضون بضع ساعات. يستأذن أخاه وابن عمّه وصديقيه وفيليب زوج دلال، ويتوجّه إلى مؤخّرة اليخت حيث تجالس ندى ابنتها حياة وصديقتها دلال.

– أتسمحان لي مدام دلال ودموازيل حياة بأن أستعير منكما هذه الزّهرة لدقائق؟

تبتسم دلال، أمّا حياة فتطرق شابكةً كفّيها على حجرها.

– لن أتأخّر عليكما كثيرًا. وعد.

يأخذ كريم بيد ندى وينزلان معًا إلى الكابينة أسفل اليخت، فيما تتزحزح دلال نحو حياة تطوّقها بتودّد.

– أراك مغتمّة. هل محاكمة هلال هي السّبب؟ لا تقلقي. النّطق بالحكم بعد أربعة أيّام. حاولي أن تنسي، وفكّري بنا الآن.

تومئ ندى برأسها متنهّدةً:

– لا، ليس هذا.

– ممممم... تفكّرين أيّ الفريقين سيربح الانتخابات الشّهر المقبل؟ إِحْنا مالْنا ومالهُم؟ يصطفلوا يا إختي. طُزّ، موالاة ومعارضة.

مُداريةً ضحكة:

– ليت هذا هو الأمر.

– ماذا إذن؟

يغمزها متسائلًا، فتدرك أن لا مناص من الإجابة. تقول:

– بينما كنت أوضّب الحقائب في بيروت، هاتفني رقم غريب. رددت، فجاءني صوت أدهم...

– ماذا يريد؟

تجفل ندى قليلًا، لكنّها لا تجد بدًّا من الرّدّ:

– قال إنّه عرف من أغنيتي المصوّرة أنّي ما زلت في لبنان.

– بسيطة!

– ليس هذا وحسب. قال إنّه يعدّ الأيّام منتظرًا انتهاء عقدي معك السّنة المقبلة، وإنّه يحبّني وإنّه آسفٌ وإنّه لن يحيد عن دربي، وأشياء أخرى ضغطت على أعصابي. وفي الختام، طلب رؤيتي وحدي على العشاء، ليعرف منّي تفاصيل الأعوام الأربعة الفائتة.

ساخرًا:

– هاتفك صباحًا، يعني لم يكن بوعيه الكامل بعد.

تعرض ندى عن الكلام، ساهمةً بنظراتها خارج النّافذة الدّائريّة المطلّة على زرقة الأبيض المتوسّط. لا يستسيغ كريم خوفها. يقول باستياء غير مُعلن:

– تخافين أدهم وأنت الأدرى بخيبته. لا أنكر أنّه مريض نفسيّ، ولا أنكر أنّه أراك الأمرّين، لكن هذا لأنّه كان يستعبدك بعقد استبدله

معنا بآخر. يعني خلص، انتهيتِ منه، ولن يظفر منك بشيء بعد اليوم، مهما حاول.

يظلّ كريم يحكي في وادٍ، بينما هي في غير وادٍ؛ في شرودها، تروح تلعن الحاجة التي أوصلتها إلى يدي أدهم وهبي، قبل ثلاثة عشر عامًا.

1991. عامَذاك، عقب إيداع حياة في أحد أديرة الجنوب، استقلّت كذا وسيلة نقل مُستعينةً بدموعها كبدل أجرة للوصول إلى العاصمة بيروت. هناك، وجدت نفسها تجوب الطّرقات وحيدةً. كانت جروح عمليّتها القيصريّة تصرخ، كلّ شيء فيها كان يصرخ، إلى أن تلبّدت رؤيتها وثقل رأسها وما عادت تشعر بقدميها، فهوت غائبةً عن الوعي فوق رصيف يغسله المطر، لتفيق على سرير في أحد المستشفيات... لونا، الممرّضة التي اهتمّت بها بعد إنجاب حياة وهرّبتها من مستشفى مرجعيون، كانت قد أعطتها مالًا يكفي قوت أسبوعين، اضطُرّت لصرف معظمه على فاتورة المستشفى في بيروت إلى أن استعادت عافيتها. فخرجت من المستشفى فارغة الجيب إلّا من ربع المبلغ تقريبًا، ما جعلها تقتصد في طعامها وشرابها، ريثما تجد لها عملًا. بحثت كثيرًا عن صنعة، لكنّ أحدًا لم يرضَ توظيف امرأة على أعتاب الثّلاثين، لا تحوز شهادة ولا هيئة حسنة. لم يبقَ في حوزتها قرش واحد. تردّدت أسابيع على حاويات المطاعم لإسكات جوعها بما تيسّر من بقايا طعام. أمضت ليالي طويلة تنام في مداخل الأبنية احتماءً من البرد والمطر، حتّى تحنّنت عليها يومًا أرملة هرمة ميسورة الأحوال ودعتها إلى بيتها لإمضاء ليلة عاصفة. في الصّباح أخبرتها أنّها تبحث عن خادمة خلوقة تحسن التّدبير المنزليّ، لكونها تعمل بين مستشفيين،

وتغيب كثيرًا عن البيت. سألتها عن رغبتها في تلك الوظيفة واعدةً إيّاها بأجرٍ مُغرٍ، ما أسعد ندى ودفعها لقبول العرض فوراً... قضت ثلاثة أسابيع تمسح الغبار وتكنس الأرض وتغسل الثّياب وتكويها وتطبخ صُنوفًا من الطّعام يومي السّبت والأحد، عند قدوم ولدَي المرأة الجامعيّين من سكن الطُّلّاب. تزامنًا، حاولت البحث عن عمل آخر في مجال الغناء، لكنّها لم تُوَفَّق. إلى أن التقت بمن ظنّت أنّه سيحقّق أحلامها الفنّيّة. كانت يومها في المطبخ تغنّي وتحضّر القهوة لضيف ثلاثينيٍّ بادرها باشًّا، حين دخلت الصّالون بصينيّة الضّيافة:

– سألتُ زوجة المرحوم أخي لمن هذا الصّوت في المطبخ، فقالت إنّه صوتك.

ابتسمت ندى بخفر، وضعت الصّينيّة على الطّاولة، واستأذنت لمواصلة أشغالها.

– مهلًا! ما رأيك بأن أجعلك... نجمة؟

ردَّدت ندى نظرها بين المرأة والرّجل، ثمّ أشارت إلى نفسها مستفسرةً باستخفاف.

– أجل أنتِ. وحياتك صوتك بيجنّن، ولا تحتاجين إلّا إلى بضع لمسات تجميليّة على ثيابك ووجهك و... لهجتك الجنوبيّة، لتصيري مغنّية. بالمناسبة، اسمي أدهم وهبي. قارع طبول سابق، ومدير أعمال فنّي حالي لعدد من المغنّيات الصّاعدات. تشرّفتُ بمعرفتك.

نهض قائمًا وصافحها، ولفرط سعادتها خرجت منها الحروف مُتكسِّرة:

– سعدت بمعرفتك أيضًا، أستاذ وهبي.

– ما قولك إذن، دموازيل...

– ندى خولي...

– دموازيل ندى، لن أُمهلك الكثير لتفكّري في الأمر، لأنّ المؤدّية الرّئيسة في الفرقة التي أديرها حبلى، وأظنّ أنّكِ مناسبة جدًّا لتحلّي محلّها دومًا. وحياتك، بواسطة معارفي الواسعة في الوسط الفنّي، أستطيع أن أجعل أكبر شركات إنتاج البلد تتبنّاكِ وتنتج لك الألبومات! (ثمّ التفت إلى زوجة أخيه بلباقة) لا تمانعين، صحّ؟

ارتشفت المرأة قهوتها وبابتسام غامر:

– لا شكّ في أنّي سأشتاق لندى كثيرًا، لكن لا يحقّ لي أن أقف في دربها. بالفعل يا ندى لديك صوت باهر، حرام أن يبقى أسير المطبخ. لا تحملي من ناحيتي همًّا. يمكنني تدبّر أموري ريثما أجد صبيّة أخرى تعاونني.

في مساء اليوم التّالي مباشرة، كانت توقّع مع أدهم وهبي عقداً لم تلقِ بالًا للاطّلاع على بنوده لفرط ما كان الفرح يعمي قلبها. لاحقًا في الصّباح، اصطحبها أدهم إلى مصفّف شعر واختصاصيّ ماكياج ارتكبا فيها العجائب، ثمّ إلى متجر ثياب أقنعها فيه بارتداء القصير والضّيّق، معتبرًا أنّ وركيها وصدرها لا يستحقّان منها كلّ ذاك الطّمس. طار الوقت في المتجر وهو يلبسها على هواه، بينما هي ساكتة، مُبتسمة، تهزّ له برأسها إيجابًا، وكُلُّه لأجل الغناء على المسرح الموعودة به، المسرح الذي آثرته على ماضيها وقطعت الأودية والوهاد لاعتلائه. لكن لـمّا جاء دور الجدّ، وجدت نفسها تغنّي في مطاعم وملاهٍ ليليّة رخيصة باسم ناتاشا الذي اختاره أدهم لها، أحيانًا تحيي الليل بطوله وحدها، وأحيانًا برفقة مغنّيات مساندات وقعن أيضًا فريسة مثلها، ترقص وتهزّ وتدور بين الطّاولات، البعض يعاكسها ويتحرّش بها، والبعض الآخر يسألها

بوقاحة كم تأخذ من الزّبائن على السّاعة. ومع تقاضيها الراتب الأول، أدركت أنّها وقعت في الفخّ، فالرّاتب الذي نصّ عليه العقد لم يكن نهائيًّا، بل اقتطعت منه باقي البنود مبالغ أحالت صافيه أتعابًا مجحفة، كما أنّ مفعول العقد سارٍ لثلاثين سنة ما لم يقرّر الطّرفان مُجتمِعَيْن فَضَّه. لم تجد خيارًا آخر أمامها سوى مواصلة حياتها على هذا النّحو: غناء الهابط من الرّيبيرتوار العربي، استعراض مفاتنها لشدّ الزّبائن، النّوم في حجرة فندق بِنَجمة، ادّخار القليل لمستقبلها، والتّضرّع إلى الله ليُخلّصها من أدهم وهبي ويجعلها قادرة نفسيًّا وماليًّا على استرجاع ابنتها. حتّى إنّها أجبرت نفسها على التّعايش مع تحرّشات أدهم المتكرّرة التي كادت تتطوّر إلى اغتصاب لولا الرّأفة الإلهيّة المثيرة للضّحك. فذات ليلة، باغتها الحقير بدخوله عليها في غرفة تبديل الملابس في الكواليس، موصدًا خلفه الباب. كان ثملًا، وعيناه تتوثّبان شرًّا. خلع بنطاله وهجم عليها كاتمًا صرختها المستغيثة. راح ينتزع صدريّتها ويعضّها ويلعقها ويقبّلها ويتلمّس ثدييها ومؤخّرتها، ثمّ دفعها بقوّة، فهوت على الأرض عارية الصّدر، فوق كومة ثياب الاستعراض. تملّكتها الصّدمة، وراحت تهمهم فزعًا، ساتِرةً نفسها بقطعة ثياب استلّتها من قربها. ولـمّا خلع أدهم سرواله الدّاخلي، ولاح لعينيها الدّامعتين عضوه الضّئيل المنكمش، ندّت عنها ابتسامة هازئة أكثر منها مرّة، ابتسامة جرّت معها قهقهةً، فضحكةً مجلجلة، جعلت أدهم يغصّ كالطّفل ببكاء فوريّ، يلبس بنطاله، ويهبّ مسرعًا نحو الخارج، مختفيًا عن الأنظار يومًا كاملًا، ليعود مساء اليوم التالي، ويتصرّف كأنّ شيئًا لم يكن. لاحقًا، فَهِمت من المغنّيات المساندات في فرقتها أنّهنّ تعرّضن لذات الموقف الذي يبدو في البداية مرعبًا،

ويستحيل هزليًّا في غضون دقيقتين. وهذا ما جعلها تسكت عن سائر أفعاله القبيحة، وترضى بحاضرها، عسى مستقبلها يكون أفضل. وبعد توالي تسعة أعوام من المشقّة دون جديد يُذكر، جمعها القدر عام 2000 بكريم فلميا فدلال، واتّخذت حياتها مناحي جديدة تمامًا...

– ندى، أينك ساهية؟

يعيدها كريم من بحر ذكرياتها إلى عُرض البحر المتوسّط.

– ماذا كنت تقول؟

– سألتكِ، هل ذكرت شيئًا عن...

– ما قاله أخافني! وجدتني أجيبه بلا وعي.

قبل أن يفتح كريم فاه، تردف ندى كأنّما قرأت خاطره:

– قلت له أن يتركني في حالي وينساني وإلّا بلّغت عنه الشّرطة.

يلوّح كريم براحتيه رافعًا حاجبيه، كأنّما يسأل «فقط؟».

– أخبرته أيضًا أن يعاود إلقاء النّظر إلى العقد الجديد...

ورنت إلى أرض اليخت بعينين خابيتين، متحاميةً معرفة ردّة فعل كريم حيال تصرّفها المتسرّع، لكنّ الأخير فاجأها بقوله:

– لا تقلقي حبيبتي. كان سيعرف عاجلًا أو آجلًا، لكن عندها لن يكون باستطاعته فعل شيء. لا تنسي، أنا من سيحتكرك إلى الأبد، مطربةً وعمّا قريب زوجة.

يعاودها شيء من الطّمأنينة، فتقترب منه وتضمّه بحرارة.

– ألا أستحقّ أكثر من ضمّة؟

ويباغتها ظافرًا بقبلة طويلة من شفتيها، فتخامره رغبة جامحة في خلع ثيابه ومضاجعتها، لكنّه يتنبّه إلى أنّ الوقت غير مناسب

لذلك، فيتمالك شبقه مكتفيًا بتلمّس جسدها اللَدن لدقائق.

– أُحبُّكَ كريم.

تتلاشى فيها الهواجس. يُحتضر خوفها. وتتولّاها أحاسيس تختبرها للمرّة الأولى، يضرمها كريم إضرامًا حين يهمس لعينيها:

– وأنا أكثر...كريمتي!

14

مع انقضاء نيسان فأيّار، كانت حماسة الشّيخ محمود في خطب الجمعة والدّروس الدّينيّة تتفاقم. صار يتحدّث بجرأة أكبر عن النّظام السّوري ووحشيّته، ينتقد علنًا الجهات السّياسيّة والدّينيّة المؤيّدة له، والجهات الأخرى السّاكتة غير الرّاضية عنه، أحيانًا يسمّي بالحرف أسماء السّاسة ورجال الدّين، وأحيانًا يتخطّى حدود الانتقاد إلى الهزء المبطّن والاتّهامات المباشرة، الأمر الذي أخاف رجاله ومؤيّديه من ردّة فعل المخابرات اللبنانيّة والسّوريّة إن سُرّب إليها ما يدور بين حيطان جامع جعفر بن أبي طالب، فلفت كبار السّنّ انتباهه مرارًا إلى حدّة لهجته، ونصحوه بضبطها لأنّ الأعين والآذان مزروعة في كلّ مكان، لكنّ عصب الشّيخ لم يستكن. ظلّ يعلن أسبوعيًّا عبر منبر خطبة الجمعة أنْ لا مجال للخنوع بعد اليوم، وأنّ المعركة القادمة لتطهير البلد من الدّنس حتميّة، وأنّ مَن يخاف على نفسه وعلى أولاده حريٌّ به أن يخاف على دينه لأنّه الأبقى، وأنّ المسلم عند الله هو المسلم القويّ، الذي لا يهاب أن يفدي الإسلام بنفسه، وبأولاده، وبكلّ ما يملك. البعض، خصوصًا الشّباب، وجدوا في كلامه عين الصّواب، أمّا البعض الآخر، ومعظمهم ممن

تجاوزوا الأربعين، فوجدوا فيه ثورة صبيانيّة مراهقة، ينقصها المنطق والعقلانيّة والتّروّي، ما دفعهم إلى التّوقّف عن ارتياد الجامع، واللجوء إلى جامع آخر، لا يتحدّث إمامه في أمور السّياسة الموجعة للرّأس. لكن، برغم هذه الغربلة، بقي جمهور الشّيخ محمود كبيرًا، وبقيت شعبيّته لدى جيل الفتيان والشّباب تتمدّد، حتّى وصلت أصداؤه إلى القنوات التّلفزيونيّة الأرضيّة والفضائيّة، فكبُر إعلاميًّا، محلّيًا وعربيًّا، وصارت صرخته مسموعة بين العامّة...

وفي الثّامن والعشرين من أيّار 2004، قبل يوم واحد من الانتخابات النّيابيّة، دعا عبر منبر خطبة الجمعة إلى أوّل تظاهرة سلميّة مناهضة للوصاية السّوريّة في شوارع صيدا، فأُلصقت الإعلانات على الجدران، وُزّعت المناشير على مداخل المدينة وبين الأزقّة وفي الطّرقات، ونُشر الخبر في معظم وسائل الإعلام المرئيّ والمكتوب والمسموع.

كان بدر مؤيّدًا أوّلًا للشّيخ محمود في جميع خطواته، لدرجة أن وصل به الأمر إلى التّفكير في ترك عمله كحارسٍ شخصيّ لابن خالد عبّود، الـمؤيّد للنّظام السّوري، والبحث عن عمل آخر، لكن بعد استخارة الله في الصّلاة، والأخذ برأي خديجة، واستشارة الشّيخ محمود، ارتأى أن يبقى حيث هو في الوقت الحاضر، أوّلًا لأنّ خديجة لامته على إغفال أولاده من حساباته، وثانيًا لأنّ الشّيخ قال إنّ لديه، بوظيفته تلك، موطئ قدم في منزل الدّكتور، الأمر الذي يمكن استغلاله أو الانتفاع به مستقبلًا.

بعد أيّام على صدور نتائج الانتخابات النّيابيّة اللبنانيةّ التي فاز بمعظم مقاعدها الـ128 مرشّحون مدعومون من النّظام السّوري، انطلقت التّظاهرة.

تواافد النّاس بالمئات إلى ساحة النّجمة (مكان التّجمّع)، قُطع السّير بالاتّجاهين المفضيين شمالًا، وانزرع في القطر القريب وعلى أسطح الأبنية عناصر من الجيش وقوى الأمن الدّاخلي.

قبل بضعة أيّام فقط، أعرب الشّيخ إلى بدر والمجموعة المقرّبة منه عن استغرابه من موافقة الـمُحافظ على إعطائه إذنًا بالتّظاهر، إذ كان يتوقّع العكس: الرّفض القاطع الذي سيجبره على الخروج في تظاهرة وقطع الطّرق بلا إذن. لاح لبدر في وجه الشّيخ ملامح تشي بالشّك والقلق، امّحت كلّها لدى توكّل الأخير على الله، وطلبه من الجميع أن يسلّموا الأمر إليه سبحانه، ما دام مسعاهم صافي النّيّة، ولن يجلب سوى الخير لهذه الأمّة.

لبّى الدّعوة عدد من أئمّة الشّمال وبيروت والبقاع وقرى العرقوب. كانوا يتقدّمون الصّفوف، ويدلون أمام الكاميرات بأسباب حراكهم والأهداف المرجوّة منه.

15

الاثنين 7 حزيران 2004.

يوم مزدحم آخر يهلّ على رزنامته، يستقبله بصفته النّائب الدّكتور خالد عبّود، صاحب رؤوس الأموال والنّفوذ الواسع، والعائد إلى وطنه من دول الاغتراب مع دكتوراه في الاقتصاد من أرقى جامعات بنسلفانيا في الولايات المتّحدة الأميركيّة. أوّل الأمر، احتاج إلى وقت ليعتاد انسلاخه عن «عمر»، الرّجل الذي أقفل دكّانه، أغلق بوّابة بيته، وغادر كفرشوبا دون رجعة. لقد أصبح خالد عبّود الآن، ولا يزال متوجّسًا، رغم التّغيير الجذريّ الذي طال وضعه وهيئته، من أن يستطيع أن يتعرّف إليه أحد. لكنّ جميع من حوله، بمن فيهم ابنه وزوجته وطبيب التّجميل وإداريّو الموساد، أكّدوا له أنّ الذّات الإلهيّة نفسها، كانت ستقف حائرةً، عاجزةً عن التّعرّف إليه.

في البدء، احتاج إلى بعض الوقت ليعتاد مناداة زوجته أنيتا له بالاسم الجديد، خاصّةً أنّه يخرج من فمها مثيرًا للضّحك، «كالد» بدلًا من «خالد»، وذلك دلالة عدم إيجادها العربيّة، لكونها صارت ديانا، زوجته الأميركيّة النّاشطة في مجال حقوق الإنسان والمرأة. الاثنان

كانا مجبرين على تلبّس الشّخصيّتين الجديدتين بكامل أكسسواراتهما، فالمهمّة التي هما فيها لا تحتمل ارتكاب خطأ واحد مهما كان ضئيلًا.

في قصر ثمين فاره شرقيّ مدينة صيدا الجنوبيّة السّاحليّة، استقرّ الزّوجان مع ابنهما إيهود الذي تلقّى هو الآخر تدريبات لتقمّص دوره الجديد «آدم». منذ عام 1992، والدّكتور عبّود يفتتح مشروعًا تلو مشروع. مولات ومتاجر وفنادق وإذاعات ومنتجعات ومسابح وأندية رياضيّة ومصانع منوّعة قامت على يديه في جميع أنحاء البلد. ذاع صيته، لمعت صورته، فُرض صوته، وصار قصره مقصدًا مشرّعًا على مدار السّاعة للمحتاجين والسّياسيّين ورجال الدّين والأعمال والأمن. كذلك، انخرطت زوجته في الحياة العامّة، فأسّست جمعيّة نسويّة استقطبت أرقى نساء المجتمع، وأسهمت إلى حدٍّ كبير في حشد تأييد الجنس اللطيف له في الانتخابات النّيابيّة التي أُجريت على يومين أواخر أيّار الماضي، والتي طلبت إليه إدارة الموساد التّرشّح عنها ليتغلغل في عمق الحياة السّياسيّة، تلك التي تضمن لأيّ لبنانيّ حصانة إلهيّة تقيه أدنى مساءلة أو محاسبة، فتخوّله تمرير أيّ مشروع، بمنتهى السّلاسة، ودون عراقيل.

في هذا اليوم، كما في معظم الأيّام، يوقظه المنبّه المربوط على السّاعة 06:00.

يغسل وجهه، يسير ثلاثين دقيقة على آلة المشي الكهربائيّة، يأخذ حمّامًا ساخنًا، يتعطّر، يرتدي بدلة رماديّة، يستودع ابنه ثلاثة حرّاس يرافقونه إلى العيادة التي شيّدها له حديثًا في بيروت،

يتناول فطوره مع ديانا، وينصرف إلى مكتبه المجهّز بأحدث التّقنيّات للاطّلاع على آخر المستجدّات المحلّية والإقليميّة.

قرابة الثّامنة والنّصف، خلال اطّلاعه على مقال بعنوان «أسامة بن لادن: قصّة إرهاب» في عدد اليوم من New York Times، يستأذنه منظّم جدول مواعيده للدّخول، ويروح يتلو عليه تحرّكات اليوم:

09:00 – الاجتماع بضابط المخابرات

10:00 – لقاء الفنّانة

10:30 – الاجتماع بالمحامي

11:30 – استقبال الوفود المهنّئة

13:00 – درس ركوب الخيل

15:30 – غداء مع وزير الصّحّة

18:00 – استقبال وفد أجنبيّ في المطار

21:00 – افتتاح المجمّع التّجاري في بيروت

ثمّ يستأذنه للانصراف.

يشعل خالد سيجاره الكوبيّ، يسحب منه نَفَسَين، يطفئه، ويرتقي إلى غرفة الاجتماعات السّرّية في الطّابق الثّالث، حيث ينتظره ضابط مخابرات سوريٌّ في لبنان.

بعد المصافحة والسّلام والتّرحيب المتبادل وارتشاف القهوة الأميركيّة السّوداء، يقول الضّابط بلهجة جدّيّة:

– دكتور عبّود، وضع أصحاب اللحى هذه الأيّام لا يُطمئن. لقد أصبحت أوكارهم كثيرة، ومع التّقدّم التّكنولوجيّ بات فكرهم ينتشر بشكل أسرع بين النّاس. منذ أسبوعين، احتجزنا ستّة عشر ناشطًا إسلاميًّا بتهمة حيازة الأسلحة، ومنذ يومين، اعتقلنا العشرات في تظاهرة صيدا بتهم التّخريب المتعمّد والسّرقة وبثّ

الهلع بين النّاس وقتل عنصري أمن. وكلّما ازدادت أعدادهم في سجوننا وفي سجونكم، تضاعف انتشارهم وتعالت أصواتهم. نخاف غدًا من أن تنفد اتهّاماتنا ويتمكّنوا من الانقلاب علينا ونحن نِيام...

يقاطعه خالد مستطردًا:

– كنت في سوريا يوم خرجت تظاهرة صيدا. ولدى وصولي البارحة علمت أنّ حارس ابني الشّخصي من ضمن الموقوفين، ومقرّب جدًّا من الشّيخ الهارب، ذكّرني، ما كان اسمه؟

– محمود عبد الأمير.

– نعم هذا. هل علمتم إلى أين هرب؟

– مخيّم عين الحلوة.

– حلو! يعني انسَ أمر القبض عليه.

– ما دام بين اللاجئين الفلسطينيّين، فلن يشكّل خطرًا.

– كيف استطاع عبور حواجز الجيش المنتشرة على مداخل المخيّم ومخارجه؟

– دخل في سيّارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر.

– ألا تخضع تلك السّيارات للتّفتيش؟

– من المفترض أن بلى...

– إذن...؟

– يبدو أنّ لفريق المعارضة يدًا في تهريبه. ويبدو أنّهم كانوا يمدّونه بالمال والحماية سرًّا.

– وماذا لو خرج لاحقًا؟

– لن ينفعه الخروج. لقد خسر رصيده بين النّاس. وثلاثة أرباع رجاله ومؤيّديه في ذمّة التّحقيق. ولم نزل نلاحق كلّ من كان يصلّي خلفه في الجامع.

– بصراحة، أضع عليكم اللوم. فحتّى أنتم كبّرتموه إعلاميًّا. كان يجب أن تضعوا حدًّا لمهزلته منذ زمن.

يروح الضّابط يعابث، مبتسمًا، شاربه المعقوف المائل إلى الصّفرة عند طرفيه:

– ارتأينا اختبار خطّة جديدة، إذ لم يعد نافعًا قطع لسان الكلب بمجرّد أن ينبح. الأجدى أن تُخلي له الشّارع وتوهمه بأن لا أحد يقوى على إسكاته. عندها سيخال نفسه قويًّا، وسيستميل كلابًا أخرى لديها ذات النّزعة لتنضمّ إليه. ثمّ فجأةً، تُفلت عليه وعلى أتباعه السّياط، فتخرسهم وترجعهم صغارًا في أعين أنفسهم، بينما تكبر أنت في أعين من كان منزعجًا من نباحهم. وما آلت إليه الأمور خير دليل على نجاح الخطّة.

يهمهم خالد مبديًا إعجابه بالفكرة التي لم يسبق أن خطرت له، والتي تلهم وثوب فكرة عجيبة أخرى إلى رأسه، يعبّر عنها قائلًا:

– ما رأيك بأن نخلي مؤقّتًا سبيل بعض موقوفي التّظاهرة؟

– صعب. سبق أن ذكرت لك التّهم الموجّهة إليهم.

– لا شيء يصعب عليكم، حضرتكم. (ضحك متبادل). ما أريد قوله هو أنّ التّهم التي ألصقتموها بالشّيخ وجماعته أصبحت قديمة الطّراز بعض الشّيء. بما أنّ الشّيخ هرب، وبعض عناصر الأمن قُتلوا، يعنّ لي الآن استيراد تهمة خلنج، باب أوّل. لكن، كخطوة أولى لاختبار مدى فعاليتها في بلادنا، أقترح إخلاء سبيل بعض الرّجال مؤقّتًا.

يهزّ الضّابط رأسه باهتمام:

– بمَ تفكّر بالضّبط؟

يعتدل خالد في جلسته:

– كما أخبرتك، أحد مرافقي ابني من ضمن الذين أوقفوا خلال محاولتهم الهرب، وأعتقد أنّي أمون عليه. فكلانا جنوبيّ، وأهل الجنوب أهل نخوة، كما تعلم. لكنّهم أيضًا عَبَدة مال. (ضحك متبادل). بالقليل منه وحياة شواربك أستطيع أن أجنّده وبضعةً آخرين لتنفيذ خطّتي.

– ألا تتحقّق خطّتك تلك دون إخلاء سبيلهم؟ لم ننهِ سلخ جلودهم بعد!

– لا أعتقد ذلك؛ أصلًا، سيكون إخلاء سبيلهم مؤقّتًا. لأنّهم ما إن ينفّذون الخطّة، حتّى يتلبّسوا دون دراية منهم تهمًا جديدة، ستعيدهم حتمًا إلى السّجن؛ اسمع...

يواصل خالد شرح فكرته الجهنّميّة للضّابط، حتّى إذا انتهى يقول الأخير باقتناع وإعجاب:

– أهنّئك على هذا الخيال، دكتور عبّود. فيري بيوتيفول. سأجري بعض الاتّصالات وبعدها اعتبر أنّ الموقوفين خرجوا.

يأخذ خالد من فنجان قهوته رشفة ويقول:

– أيّ خدمة ليعمر هذا الوطن.

فينفجر الضّابط ضحكًا، حدَّ الاختناق:

– دمت ذخرًا له يا صديقي!

يتصافحان، ويمضي كلٌّ في طريق – الضّابط إلى الخارج، وخالد إلى صالون الضّيوف في الطّابق الثّاني.

– إنّها تنتظر في الدّاخل.

يستوقفه منظّم مواعيده خارج الصّالون. يذكّره:

– اسمها ندى. مطربة أربعينيّة، لديها أغنية مصوّرة واحدة بُثّت قبل بضعة شهور، بعنوان «قلب كبير».

– ألم تخبركم عن سبب مجيئها؟

– قالت إنّها أكبر معجبيك، وتنتظر رؤيتك شخصيًّا منذ سنوات.

يعدّل خالد ربطة عنقه، ويدخل إلى ضيفته مبتسمًا:

– أهلًا، أهلًا وسهلًا بمطربتنا القديرة!

يمدّ يده ليصافحها، إلّا أنّها تظلّ جالسة بجمود، ترمقه بنظرات لم يستطع تحليلها.

– عذرًا عذرًا، لا أعرف ما بي اليوم.

تقف فجأةً، مادّةً يدها نحوه.

– تشرّفت بمعرفتك. أأناديكِ ندى؟ (ويلوح له الخاتم الذّهبي حول إصبعها) أَمْ مدام ندى؟

– نادِني بما يحلو لك. لا فرق عندي.

يبتسم، ويجلس على طرف الكنبة قبالتها.

– وبمَ تودّ أن أناديك أنا، حضرتك؟

– لا فرق عندي أيضًا. ناديني بما شئت. كلّ الألقاب لا تعنيني.

– مهلًا، فهمتني خطأً. أقصد، أأناديك خالد، أم عمر؟

يهتزّ؛ لا يدرك إن كانت الكلمة الأخيرة التي سمعها قيلت حقًّا، أم جعلته المسافة الفاصلة بينهما يتوهّم.

– أستميحُكِ عذرًا؟

تهتف المطربة التي لا تملك حدًّا أدنى من الجمال، إلّا جمال الجسد البارز عبر ثوبها النّبيذي القصير المنحسر عند صدرها المشدود ووركيها العريضين:

– ياه كم تغيّرتَ يا عمر! طوبى للتّجميل الذي يستطيع تغيير هيئة المرء حتّى لا يعود يعرفه أحد. لكن، هيهات أن تستطيع تغيير شخصنا. اسألني أنا. لقد رفعت أنفي وسوّيت أسناني. وأنت تراك

أزلت ندبتك وحقنت جبينك بالبوتوكس وغيّرت تسريحة شعرك و... لا أدري ماذا بعدُ بالضّبط، لكنّ صوتك وحركاتك ولغتك ونظرات عينيك ما زالت كما هي. مهما فعلت يا دكتور خالد، فلن تستطيع أن تمحوها من هنا (تشير بسبّابتها إلى رأسها).

– أنت تهذين حتمًا. اسمعي، لا وقت لديّ لترّهاتك.

يحاول إخفاء ارتياعه باتّخاذ وضعيّة السّيطرة: ينفخ صدره، يرفع ذقنه، يشبك يديه على حجره، يرجع كتفيه إلى الخلف، وينظر نصب عينيها مباشرةً.

– غريب، ألم تعرفني بعد يا... سعادة النّائب؟

– ستخرُجين برضاكِ، أم تُخرجين بالقوّة؟

– محسوبتك ندى (تضرب على صدرها بعنف). ندى خليل خولي. جارتك قديمًا في كفرشوبا. أنا التي استغللت حبّها، فنمت معها، حبّلتها، وعدتها بالزّواج، ومن دون أن تُعلمها، سافرت... وهيداك وجّ الضّيف. لم تعد مجدّدًا.

يكاد هول الصّدمة عليه يفضحه. لكنّه يتدارك الأمر فورًا، يلملم دواخله، ويقول بثقة:

– لا بدّ أخطأتِ العنوان. (ينظر إلى الرّولكس حول معصمه) انتهى وقتك. بإمكانك الخروج الآن.

تندّ عن ندى ضحكة مرّة:

– أووووه! رغم كلّ هذا الجاه الذي أنتَ فيه، والذي لا أعلم كيف حصّلته، ورغم كلّ هذه الأقنعة التي ترتدي، لن تعدو كونك عمر الحقير، الوغد!

يهمّ بمدّ يده إلى السّمّاعة على الطّاولة عن يمينه لطلب الحرّاس، لكنّها تصرخ به:

– مهلًا! قبل أن تطردني من هنا، عليك أن تعلم أنّ ابنتي اللقيطة هي ابنتك. لا أعرف إن كنت سمعت أو قرأت عن قصّتها. الشّهيدة الحيّة، أيُحدث في دماغك هذا الاسم وقعًا؟ على كلٍّ، ابنتنا يا سيّد عمر اغتصبها زوج أختي، زوج لميا، القابع الآن في مستشفى المجانين، وفق ما حكم القاضي منذ شهر. وها أنا اليوم جئتك لألفت نظرك إلى أنّك لا تستطيع الفرار بجلدك من واجباتك ومسؤوليّاتك كأب!

تداخل عمر قشعريرة يقف لها شعر جسده. لا يدرك كيف يتصرّف. إنّه الموقف الأوّل من نوعه الذي يعترضه، ولم يكن قد تحسّب له. امرأة من الماضي المنسيّ، قضى معها ليلة عابرة، تثب فجأةً من العدم، لتواجهه بحقيقته المجرّدة، وتعلمه بأنّ لديها منه طفلة؟ هل هذه نكتة أم ماذا؟

يحاول، بشبه ابتسامة، تدارك الأمر:

– لقد استمتعت جدًّا بهذا العرض، مدام ندى. وأرجو أن تكوني رفّهت عن نفسك أيضًا. والآن اسمحي لي، لديّ أشغال كثيرة أخرى. مع السّلامة.

ينهض سائرًا بخطوات مدروسة السّرعة نحوها.

– مخطئٌ إن ظننت لحظةً أنّي سأدعك تهنأ في مسرحيّتك الهزليّة هذه.

تنهض هي الأخرى. عيناها تقذفان حمم الغضب.

– أرجو أن تبقي على الخطّ، لأنّي دائم الضّجر. وداعًا.

يمدّ إليها يده. تقبض عليها. تعتصرها بحنق:

– سحقًا لك.

يتثاءب هازًّا منكبيه:

– لا لا، هذا كلام لا يليق بمطربة قديرة ذات «قلب كبير» مثلك.

تبصق في وجهه؛ بصقة اشمئزاز واحتقار وحقد، تصيبه بين عينيه.

– أقسم بأنّكَ لن تنفذ منّي يا عمر!

تتأبّط حقيبتها، وتطير إلى الخارج تتأبّى على دمعها، حتّى إذا صارت في سيّارتها، انفجرت في موجة بكاء وصراخ عارمة.

تثلج البصقة دماءه. يطغى أثرها طويلًا على أحاسيسه. فيطلب إلى منظّم مواعيده تأجيل اللقاء الثّالث له بالمحامي ربيع برّي، ويخلو إلى نفسه في المكتب، الأفكار تنثال على رأسه، والماضي المدفون في عمق البحر يُنبش مجدّدًا...

ندى. ابنة جيرانه قديمًا في كفرشوبا، منذ حوالى عشرين سنة. قد تكون غاضت ملامحها في ذاكرته، وقد تكون تغيّرت وجهًا وجسدًا وحضورًا، وقد تكون فقدت لكنتها العرقوبيّة الشّوبانيّة الجنوبيّة، لكنّه لم ينسَ أنّها كانت تملك صوتًا جميلًا، خوّلها ربّما أن تصير اليوم مطربة. إذن، هذا يطرد احتمال أن تكون مُرسلة من إحدى الجهات المعارضة بهدف النّيل من سمعته، أو مخطّطة لاستغلاله والاستحصال على المال، أو معجبة مهووسة أو هاربة من مستشفى المجانين...

مهلًا! بدر خولي هو شقيقها الذي وظّفه في قصره منذ سنتين، بعدما تعرّف إليه من خلال بياناته وصورته. ما زال يذكر لحظة استدعاه إلى المكتب ليرحّب به في القصر كحارسٍ جديد لمدخله. صافحه بدر بقبضة رخوة، وجلس أمامه في حياء، ناظرًا إلى وجهه كأنّما يحاول التّذكّر. لكنّ لعبة الأقنعة جاءت مجدّدًا لمصلحة «خالد»،

حتّى في حضرة ابن جيران «عمر»، ذاك أنّ نظرة بدر لم تطُل، وبقيت عيناه أرضًا معظم الجلسة.

أمّا الآن، فالمفارقة أنّ تلك اللعبة التي أتقنها حدّ أن صارت حقيقةً، دخلها على غفلة طرف غير متوقّع، نقطة على الهامش، جلبة عقيمة. إن كانت التّفاصيل تحيي وتميت، فهي كالآلهة، منها يجب توخّي الحذر.

إذن، إنّها ندى. النّاقمة والمنتقمة. الكارما المفتقرة لحسّ دعابة. إنّها ندى، وها هي قد عادت لتفتح عليه أبوابًا مسدودة. لكن، ما قصّة الطّفلة التي تدّعي أنّه أنجبها منها؟ لقد ضاجع الكثير من النّساء في لبنان قبل العودة إلى أحضان أنيتا في إسرائيل، إلّا أنّه كان يأخذ كلّ الاحتياطات الممكنة! ما العمل؟ فحص نسب له ولابنتها للتّأكّد من صلة القرابة بينهما؟ لكن ماذا لو جاءت النّتيجة إيجابيّة؟ أيسلّم عندها بالأمر ويعتبرها ابنته؟ والنّاس؟ والإعلام؟ والفضائح؟ وإيهود؟ وأنيتا؟ عمر، ماذا دهاك؟ لا تخُض في الأمر. إنّه لا يستحقّ شبه التفاتة منك. لكن، ماذا لو لم تكفّ ندى عن طرق بابه؟ ماذا لو راحت تطرق أبوابًا أخرى إن قطع عليها الطّريق إليه؟ ألا يستدعي هذا القلق؟ ربّاه، من أين جاءت تلك المخلوقة، وفي هذا الوقت الحالك بالذّات؟ لعلّها بحفنة دولارات تسكت أبدًا؟ أو لعلّه بتسويق صورتها الفنّيّة على نطاق أوسع يجبرها على تناسي الموضوع تمامًا؟ سيخبر منظّم مواعيده بأن يعطيها موعدًا يوم غد أو بعد غد أو في الأسبوع المقبل، وإن اضطرّه الأمر، فسيتباحث معها طويلًا لحسم الخيار المناسب له. كفى! لقد شغل هذا الموضوع حيّزًا كبيرًا من وقته، لينتقل الآن إلى ما هو أهمّ.

ينفض سيجاره من رماد هواجسه، ويطلب منظّم مواعيده مستفسرًا عن توقيت زيارة الوفود المهنّئة بفوزه بمقعد في البرلمان عن دائرة منطقة الزّهراني الانتخابيّة.

ما إن تتجاوز ندى حاجز الجيش على مدخل صيدا الشّمالي، حتّى تطلق العنان لدوّاسة البنزين؛ الظّلام يغشي صدرها، ورغبة ملحّة في الانتقام تموج في عينيها. لا تنتبه إلى عدّاد السّرعة الذي بلغ مداه، فتقطع حوالى أربعين كيلومترًا حتّى مدخل ضواحي العاصمة، بنصف الوقت الذي يتطلّبها عادةً. ومن غير أن تدرك، تجد نفسها تترجّل إلى المستشفى الذي فيه أختها، تحثّ خطاها نحو قسم العناية الفائقة. ما إن يستقرّ نظرها على أمّها المتلفّعة بالسّواد، حتّى تطلق صرخةً مدوّية، تهتزّ لها جدران الرّواق:

– أكرهك، أكرهك كره العمى!

ترتعد فرائص أمّ بدر؛ يهالها وجه ابنتها المضرّج حمرةً، وعيناها المستعرتان، واندفاعها الضّاري نحوها. يتفاقم فيها الشّعور بالخوف، بالضّعف، بأنّها صارت صغيرةً أمام كبيرتها، بأنّ كلّ السّخط الذي أنزلته عليها في الماضي، ها هو ينفجر بها اليوم.

– ثلاثة وأربعون عامًا. انتظرت ثلاثةً وأربعين عامًا لأقولها لك. أكرهك أكرهك أكرهك!

كانت بعض الوجوه المستغربة قد أطلّت مواربةً من الأبواب المجاورة، ومجموعة من الممرّضات هرعت تطلب من ندى الخروج فورًا قبل قدوم الحرّاس. لكنّ قلب الأخيرة كان محتدمًا طافحًا ملتهبًا بكلام كثير لم تقله بعد. أخذت يد أمّها المبتلّة حزنًا، وجرجرتها خارج القسم، لتفرغ باقي بخار صدرها المكتوم في وجهها، وأمام أعين وآذان كلّ من تحلّقوا حولها:

– لِـم لـَم تقتليني في رحمك النّجس، ما دمت تعتبرينني قاتلة أخي التّوأم؟ يا ليته وُلد ولم أولد. يا ليته خرج إلى الحياة، ودُفنت أنا تحت التّراب. يا ناس، أعلموها أنّي لست مسرورةً لكوني حيّةً، ففمي هذا رضع من حليبها الوسخ!

احتماءً من أيّ ضربة قد تباغتها، ترفع أمّ بدر ذراعيها إلى وجهها. تغمغم:

– أنا آسفة يا ابنتي، والله العظيم آسفة...

فتندّ عن ندى ضحكة فيها من الهزء بقدر ما فيها من الغُصّة. تتراجع قليلًا إلى الوراء. تدور حول نفسها بحركات عشوائيّة راقصة شاخصةً إلى السّماء:

– أتعرفين من يجب أن يكون الآسف هنا؟ فوق. ذاك الكائن الذي تصلّين له. ذاك الكائن فوق. بشرفِكَ يا من لست موجودًا من الأساس، ألستَ آسفًا؟ ألست نادمًا على خلقك سافلةً كهذه؟

تجمد في أرضها. تنزل عينيها إلى أمّها الباكية، المطرقة خجلًا من تهامس النّاس حولها.

– آسفة تقولين؟ علامَ تأسفين يا أمّاه؟ أمّاه! ياه كم أشمئزّ حين تخرج هذه الكلمة اللعينة من فمي. أشعر على الأثر برغبة ملحّة تداخلني وتقول لي: ابصقي!

وتبصق بين عيني أمّها. بصقة كراهية كتلك التي لفظتها في وجه عمر قبل ساعة، غير أنّها تفوقها برودة.

تفقد أمّ بدر اتّزانها. تشعر بأنّها تستأهل البصقة، بل عقابًا أقسى. تذعن لانخفاض رجليها. تقتعد الأرض مكسورةً. أصوات نسويّة مستنكرة ترتفع طالبةً إلى ندى أن تكفّ عن هذه المهزلة لأنّ المخلوقة، مهما فعلت، تبقى أمّها، ومن المعيب أن تحكيها

بهذه اللهجة النّابية وهذا المنطق الأعوج أمام الملأ. إلّا أنّ ندى لا تمتثل لأيٍّ من التّدخّلات. تستأنف انفجارها:

– اسمعوا يا بشر. أمّي العزيزة تعرب أخيرًا عن أسفها لي. جميل. ومؤثّر. لكن، لحظة واحدة، لمَ لا تخبرين المتأثّرين عن أيّ شيء وشيء وشيء تأسفين؟ أعلى سنوات المرارة التي أمضيتها هاربةً من جوركما أنت وابنك؟ أم على ابنتي التي اغتُصبت؟ أم على أختي الميّتة منذ شهور؟ أم على ابنة أختي التي قضت مقتولةً؟ كلّ هذا البلاء بسببها، لا أحد يعجب، بسبب فخامتها! فانظروا إليها كيف تموء اليوم كقطّة. نادمة. وآسفة. انظروا. لكم تبدو امرأةً مغلوبة على أمرها. أمّا لي فتبدو شيطانة. بل أقسم إنّها إبليس بعينه. أجل، ارفعي يديك إلى السّماء واطلبي الرّحمة. فهذا فقط ما تحسنين صنعه. اللعنة عليك. كلّ اللعنة!

يحتبس بركان ندى. لا يبقى داخلها سوى حزن هائل تمطر له عيناها. تترك أمّها جالسةً مع النّساء اللائي أقبلن يواسينها، وتعود إلى العناية المركّزة. قلبها المضطرب يسائلها:

– ألهذا الحدّ بتِّ قاسية؟

يتولّى عقلها الإجابة:

– هذه ليست قسوة، بل ردّة فعل طبيعيّة لشخصٍ لم ينصفه أقرب النّاس إليه، لشخصٍ ما إن يلمح طيف السّعادة، حتّى يقع في هاوية أتراحٍ تظهر له من العدم.

– لكن ما ذنب أمّ بدر المكسورة لتلقى معاملة ظالمة كهذه؟

– إنّها الآثمة الأولى! فَلَو كانت أُمًّا بحقّ، لو كانت لديها ذرّة رحمة، لما كانت العائلة تعاني ما تعانيه الآن. ثمّ إنّ بعض الصّراخ والبصاق ليس مجحفًا بحقّها إلى هذا الحدّ. إنّها تستأهل أكثر.

الموت مثلًا. بدل كلّ من مات جسديًّا ونفسيًّا بسببها. بدل حياة، وسوسن، ولميا.

– قد تكون أذنبت في مطارح، لكنّ هذا فقط لأنّها ضحيّة هي الأخرى.

– ...؟

– بشر هذه الأرض كلّهم ضحايا؛ المظلومون منهم والظالمون على السّواء. ضحايا لحياة فارغة، وزمن صدئ، وتقاليد سافرة.

بعد أخذ وردٍّ بين قلبها وعقلها، تبايع الأخير باقتناع. تمسح خدّيها. تسند ظهرها إلى جدار الرّواق. وتستغرق في التفكير كيف ستنتقم من عمر.

الوغد أشعلها بإنكاره لعلاقتهما ولابنتها. وجدت نفسها مكبّلة، عاجزة أمام سطوته ونبرته الواثقة. وللحظة كادت تشكّ في أنّه ليس الرّجل الذي انتظرته طويلًا لتثأر منه، فقالت له دفعةً واحدة كلّ ما يعتلج في صدرها، لعلّه يخافها. لكن، كيف يمكن لرجلٍ في مثل مقامه أن يحسب حسابًا لبعوضة؟ بالفعل شعرت (رغم البصقة التي ظفرت بها منه، والتي مسحها عن وجهه ببرودة) أنّها مجرّد بعوضة. تراه كان من الأجدى إعلام كريم بأخذها للموعد؟ لقد تسرّعت ربّما، ولشدّ ما كانت تنتظر مواجهة عمر، غاب عنها أنّه يجب مواجهة خالد أوّلًا، فسبقها لسانها، وخرجت من عند الاثنين صفر اليدين، محمومة الصّدر.

ما العمل الآن؟ أتُعلم كريم بما حدث معها؟ لا لا... إعلامه لن يقدّم أو يؤخّر؛ هذه معركتها هي، وستخوضها وحدها.

تمشي في الرّواق جيئةً وذهابًا. تحفّ كفّيها كمن يشعل نارًا. تبدأ خطط الانتقام بالتّداعي إلى رأسها. لكن سرعان ما تلمح

إحدى الممرّضات تدخل غرفة أختها بحركة مستعجلة لا تدعو إلى الاطمئنان. تتوقّف. ماذا هناك؟ تزدرد ريقها. تتعرّق. تداخلها هواجس وظنون سوداء. تندفع فجأةً كالهوجاء. قلبها بين قدميها. تلتصق بالزّجاج لتتبيّن صحّة الأمر.

رفّة عين، رفّتان، وتكرّ دموعها. تنتبه وهي تنفذ إلى ثغرها أنّ طعم الفرح ليس مالـحًا كما يُقال. دموع الفرح حلوة المذاق، شديدة الحلاوة.

يا أهلًا بعودتك يا لميا.

والليلِ إذا سجى...

«إنّ الموت ليس هو الخسارة الكبرى.
الخسارة الأكبر هي ما يموت فينا ونحن أحياء.»

محمّد الماغوط

1

1. بُعَيد نيله شهادة الثّانويّة العامّة بمعدّل 10 من 20، راح هلال يقنع أمّه بضرورة الرّجوع إلى كفرشوبا بعدما قضيا عشرة أعوام في صيدا، ذاك أنّه استشعر تأهّبًا أمنيًّا في المدينة مع تفاقم حوادث اختفاء الأطفال، وانتشار شائعات عن وجود شبكة خطف منظّمة تتاجر بهم في أوروبا. نزلت أمّه عند مطلبه، ولا سيّما حين وعدها بإكمال دراسته الجامعيّة فور تسلّمه شؤون أبيه العقاريّة من قريب لها ضليع في المهنة، كانت قد وكّلت إليه إدارة أعمال زوجها الجانبيّة مؤقّتًا، ريثما يبلغ هو الثّامنة عشرة.

معًا رجعا إلى الضّيعة، حيث استأنف ما كان قد بدأه في المدينة.

هناك، وجد الأمر أسهل وأمتع، أوّلًا لأنّه يعرف تقريبًا كلّ النّاس ولديه خلفيّة عن أمكنة سكنهم وتحرّكاتهم، وثانيًا لأنّ شبع الثّأر لنفسه غدا أكبر وأبقى. فأولئك الذين ارتكبوا قديمًا في حقّه جرائمَ لا تُغتفر، أولئك الذين كبروا وتزوّجوا وصار لديهم أطفال يشبهونهم، يركضون في السّاحات وأسفل الهضاب، رتق الانتقام منهم شروخًا أخرى فيه، ما كان انتقامه من والده وحده ليرتقها. واحدًا إثر آخر، كال لهم الصّاع صِيْعان؛ كان يستدرج أولادهم، يسوقهم سرًّا إلى

أماكن جنوبيّة وجبليّة نائية، ويفرغ فيهم – وهو يتوعّدهم بحياة أجمل في المقلب الآخر – حقدًا دفينًا يكنّه لذويهم، من دون أن يريهم وجهه، إذ صار، بعد الخبرة الكبيرة التي اكتسبها، يمعن مليًّا في التّخطيط والتّنفيذ وأخذ التّدابير الاحتياطيّة.

طوّر كذلك التّفاصيل التي تثيره جنسيًّا. في الاعتداءات اللاحقة صار يلبس الجلد، ينتعل الجزم، يدخّن، يسكر، ويستخدم الألعاب الجنسيّة وأدوات أخرى حادّة. وكتذكار يستطيع اللجوء إليه حين تضيق به سبل الإيقاع بضحيّة، اشترى كاميرا تطبع صورًا فوريّة، راح يوثّق بها لحظات انفراده بضحاياه، محتفظًا بالصّور المثيرة الممتعة لخياله في صندوق سرّي متين.

وتزامنًا مع ارتياده كلّية إدارة الأعمال خلال عامي 1989 و1990، استطاع تثبيت قدميه في إدارة مكاتب أبيه العقاريّة. افتتح في عدد من المناطق فروعًا إضافيّة درّت عليه أرباحًا وفيرة، استغلّها في تملّك البيوت في كلٍّ من العاصمة وبكاسين وإهدن وبرمّانا، لمزيدٍ من الاحتراز.

عام 1990، حين بلغ عامه العشرين، أخبرته أمّه أنّ الوقت صار مناسبًا ليتزوّج.

قالت إنّ لا شيء ينقصه، لا المال ولا الصّيت ولا العلم. وتمنّت أن ترى أحفادها يبعثون الحياة في أرجاء منزل كفرشوبا الذي غدا أكبر بعد إعادة إعماره، تمنّت أن تأخذهم في حضنها، وتغدق عليهم الحبّ والرّعاية. احتاج منه الأمر إلى ليالٍ من حكّ الرّأس، أوّلًا لأنّ النّساء لا يعنين له شيئًا، وثانيًا لأنّه لم يكن بوارد الارتباط بأحد يمكن أن ينغّص عليه نمط حياته، وثالثًا لأنّه لم يتخيّل نفسه يومًا قادرًا على أن يكون والدًا لطفل؛ كان راضيًا كلّ الرّضى عن مواصلة

حياته على تلك الشّاكلة، من دون أن يعكّر عليه صفوها أحد. فظلّ متجاهلًا الموضوع، حتّى عاودت أمّه فتحه ذات يوم:

– أنت تعلم أنّ والدك رحمه الله قرأ الفاتحة مع عمّك أبو بدر على نيّة تزويجكما أنت ولميا حين تكبران. لقد أراد الأمر كثيرًا، حدّ أن ذكره في وصيّته. وها أنت اليوم صرت مستعدًّا من كلّ النّواحي لتذهب إلى عمّك وتطلب يد لميا منه. إنّها فتاة خارقة الجمال، تدرس التّمريض، وتقاربك سنًّا. ولا أظنّ أنّها ستجد شابًّا أفضل منك؛ ما قولك؟

عندها أعاد النّظر في الأمر من زاوية مختلفة. وجد أن لا ضير من خوض تلك المغامرة، أوّلًا لأنّ ارتباطه بلميا وسيلة انتقام مبتكرة من الطّفلة الخبيثة داخلها، وثانيًا لأنّ الزّواج بالإجمال غطاء قد يبعد أنظار المشكّكين فيه مستقبلًا.

ورغم سعيه إلى الاستحصال على رضى ابنة عمّه، كان يعلم أنّها لم تكن تريده، أو بالأحرى لم تكن تطيق وجوده. خلال جلوسهما مُنفردَين، كان يلمح في عينيها نظرات السّخرية ذاتها التي كانت تنحره بها أيّام الطّفولة. حاولت مرارًا إفهامه أنّها لا ترى فيه الرّجل الذي تتمنّى الارتباط به، أو بالأحرى لا ترى فيه رجلًا، لكنّه كان يدير الأذن الصّمّاء لكلامها السّامّ، فيرسم ابتسامةً عريضة على شفتيه، ويتصرّف كما لو أنّه يجهل ما تلمّح إليه، ذاك أنّها كانت تزيده بلؤمها تطلّعًا إلى جعلها تنهش أصابعها ندامةً على ما اقترفته بحقّه. ثمّ إنّه كان يعلم أنّها ستقبل به في النّهاية رغمًا عن أنفها، لأنّ عمّه وزوجة عمّه لا يريدان سواه زوجًا لها، لا اضطرارًا لتنفيذ وصيّة والده بالطّبع، بل طمعًا بماله، وظنًّا منهما ربّما بأنّه يمكن أن يكتب باسمها يومًا شيئًا من أملاكه الهائلة. لذا، عمل على إيهام

عائلة عمّه بأنّه المخلّص الذي سينتشلهم جميعًا من جحر فقرهم. صار ينقدهم المال بين الحين والآخر، مدّ إلى بيتهم خطّ تليفون ثابتًا، اشترى لهم غسّالة أوتوماتيكيّة، تلفازًا ملوّنًا، برّادًا أميركيًّا، ومشغّل كاسيتات مع رزمة أفلام مصريّة وأميركيّة مدبلجة، تكفّل بشراء مواد البناء ليرتفعوا طابقًا آخر فوق بيتهم، علّم لميا القيادة، اشترى لها سيّارة موديل السّنة، ملأ خزانتها بأثواب وأحذية ومجوهرات باهظة الثّمن، وراح يصحبها في مشاوير إلى مناطق لم تسمع باسمها، ملتذًّا برؤية البريق الذي تحاول عيناها إخفاءه تكبّرًا. وحين حصل على ما أراد، حوّل حياتها جحيمًا.

من ليلتهما الأولى كزوجين، كشف لها عن شيء من جانبه المظلم. قطع علاقته بعائلتها، ونجح في جعل العلاقة بينها وبينهم رسميّة. كان، بماله، متحكّمًا بمسار حياتها، ومدركًا أنّها لن تستطيع أن تترك النّعيم الذي تعلّقت به، وترجع – وهي على ذمّة رجل يأبى أن يطلّقها – إلى كنف الفقر. وعندما لحظت أمّه توتّر العلاقة بينهما، طلبت الحديث إليه على انفراد، فجلس قبالتها مصغيًا، مطرقًا، مشدوهًا بها وهي تنبش أمامه، لأوّل مرّة في حياتها، كلّ ما يطمره وجدانها:

– لو تعلم يا بنيّ كم أنا فخورة بك. أنت اليوم الرّجل الذي لطالما تمنّيته ابنًا لي. رغم كلّ الأسى الذي عانيتَ، أراك الآن تقف بإصرار على قدميك، متحدّيًا كلّ شيء، الماضي والحاضر والمستقبل. لذا ها أنا اليوم أتحيّن الفرصة لنحكي معًا، بكلّ صدق وشفافية، ودون جدران تحول بين أمٍّ وفلذة كبدها. إنّي أعلم يا هلال كم كابدتَ من ألم بسبب والدك. أعلم أنّه طوال وجوده لم ينصفك، أو حتّى ينصفني أنا. كان ظالـمًا بحقّك، بقدر ما كان ظالـمًا بحقّي. لم

يشعرني يومًا بالدّفء. بالحبّ. بالأمان. لم يشعرني بأنوثتي حتّى. كانت طباعه البشعة طاغية على وجودنا، محتكرةً حياتنا نحن الاثنين. وأنا، لقلّة حيلتي، لم أكن قادرة على الوقوف في وجهه. أنت لا تعلم ربّما أنّ والدك انتشلني من حياة العوز إلى حياة مُترفة. يمكنك القول إنّه اشتراني، أجل، تلك هي الكلمة الأدقّ. بماله، جعلني طوع بنانه، لا يحقّ لي أن أنبس بحرف زائغ في حضرته، أو في غيابه. دائمًا كان عليّ أن أدعس على كرامتي وأحاسيسي، وأبتسم له. ولأنّي أكره أن يدري النّاس بمعاناتي، خوفًا من ألسنتهم التي لا ترحم، كنت أجد لتصرّفاته الذّرائع، وأقنع نفسي بأنّه سيتغيّر ربّما. أعلم كم كنت غبيّة لاعتقادي ذلك. فوالدك لم يكن ليتغيّر. قبلت به وأنا على دراية بمعظم علّاته، من الغموض والعصبيّة الزّائدة والطّباع الازدواجيّة، إلى السُّكر والعربدة. قد تسألني كيف قبلت به إذن. أقول لك إنّي تغاضيت عن ذلك الجانب من شخصيّته، وركّزت على خصاله القليلة الحسنة. أكرّر أنّي كنت بأمسّ الحاجة إلى يد تقتلعني من بين ثمانية أفواه لا تجد من يطعمها، في بيتٍ لأبٍ صار مقعدًا، وأمٍّ هربت مع عشيق يصغرها سنًّا، وإخوةٍ منهم من تزوّج، ومنهم من سافر ولم يعد يسأل. أنت تفهم ما أرمي إليه، صحّ؟ أنا يا هلال امرأةٌ من حُطام، بداخلها حروق لن يداويها الوقت. لكنّ وجودك اليومَ أمامي، عصيًّا على آلام الماضي، بعث فيّ الأمل والطّمأنينة من جديد، أكّد لي أنّ ثمّة مجالًا بعدُ لكلينا لنتصالح مع أنفسنا، ونشفى ممّا كان دومًا يؤرّقنا. لذلك، فإنّ كلّ ما أطلبه منك ألّا تكون نسخةً طبق الأصل من أبيك في تعاملك مع زوجتك. أحسن إليها. لا تكن ظالـمًا بحقّها. فها أنا اليوم أمامك، خير مثال عمّا يمكن للظّلم أن يلد.

لم يجد في كلّ كلامها ما يعزّيه. قال بصوت مخنوق، حشرجه الحزن:

– إن كنتِ تنعتين نفسك بالمحطّمة، فأيّ الكلمات تفيني حقّي أنا؟ لقد أمضيت يا أمّي حياةً بأكملها أتمنّى أن تسمعيني لدقائق، لثوانٍ، للحظة. أن لا تقاطعيني أو تسكتيني أو تتجاهليني. أن تسمعي أنيني وأنا مسحوق تحت جسد زوجك، ذاك الذي جعلك تحيين حياةً برّاقة للعيان، لكن عفنة في الصّميم. زوجك يا أمّي، لا أبي، الذي كان يغتصبني كلّ يوم. أجل، أقولها ملء ثغري، يغتصبني كلّ يوم، وأنت لا تنين تمجّدينه! أخبريني أين كنت حين كان ينفرد بي، حين كان يقتسمني مع رجال آخرين؟ ألهذا الحدّ كنت غبيّة؟ أيُعقل أنّك لم تستشعري وجود أمرٍ مريب؟ كنت أنظر إلى عينيك لعلّك ترين ما يستعصي عليّ إفهامك. لكن عبثًا! إنّي أكره نفسي. أكرهني حدّ العمى يا أمّي. دلّيني كيف أتخلّص من إحساسي بأنّي رخيص؟ كيف أزيل رائحته عن جسدي؟ كيف أسكت صوته المعشّش في أذني؟ كيف أقتصّه للأبد من هنا، من ذاكرتي؟! أسألك وأنا أعلم أنّك لا تحوزين جوابًا واحدًا يشفي. أسألك وأنا أعلم أنّك لن تعيدي لي شعورًا افتقدته منذ زمن بعيد... الأمومة! الأمومة!

ارتجّ جسده الصّغير بالبكاء، وسرى فيه إحساسٌ بالنّدم عميق، لكونه تعرّى أمام شخص لأوّل مرّة، شخص يعدّ بالمبدأ الأقرب إليه، وكم يصعب على المرء أن يتعرّى أمام من يعرفه حقّ معرفة. فقامت أمّه تهدّئه بضمّه وتقبيله وتربيت ظهره، كما عاشت عمرًا تفعل. ثمّ قالت ودموعهما تملأ البئر التي شكّلها تشابك جسديهما:

– أتظنّ أنّي لم أعلم بالأمر؟ عجزت عن تصديقه حين اكتشفته أوّل مرّة. قلت في سرّي إنّها نزوة، أو غلطة، أو... لا أدري. وأقنعتُني

بأنّ الأمر لن يتكرّر. ثمّ حين اتّضح لي العكس، لم أعرف ماذا عليّ فعله. كنت خجلة منك، من نفسي، وخائفة من المواجهة. كان والدك مدركًا أنّي أعلم، لكنّه بنظرة واحدة أفهمني أنّ عليّ أن أخرس. صدّقني يا هلال، حاولت مرارًا وضع حدٍّ للأمر، لكنّي لم أُفلح. كنت عندما يدخل غرفتك ويقفل الباب أدعو ربّي ألف مرّة أن ينتهي الأمر سريعًا على خير. ولسنوات لاحقة ظللت معذّبة الضّمير، مكتئبة، أشعر بسكاكين النّدم تفلق جبهتي. عشت في دوّامة من القلق، من خوفي عليك أن تؤذي نفسك. لكن، بعد رحيل أبيك، حمدت الله لأنّ الأمر انتهى. قلت إنّك مع مضيّ الوقت ستُشفى. ستنسى. ولأوّل مرّة في حياتي، يبدو أنّي لم أخطئ الاعتقاد. انظر إلى نفسك اليوم. لقد كبرتَ، نلت الشّهادة، ارتدت الجامعة، تزوّجت، ونجحت في عملك أكثر من أيّ إنسان آخر لم يتعرّض لنصف ما تعرّضت له أنت. لقد أثبتَّ لوالدك في قبره أنّك رجلٌ صرْف! هذه هي إرادة الحياة يا حبيبي، متجلّية فيك، وأنا فخورة بهذا كلّ الفخر، وسعيدة كلّ السّعادة. صدّقني يا هلال، ما فاتَ مات، ولن يسعنا سوى المضيّ قدمًا. وإن كان الماضي لا يجلب لكلينا سوى التّعاسة، فسحقًا له. لنطمره الآن. إنّ حياتك لا تزال طويلةً أمامك. لا تجعلها تضحك عليك، اضحك معها.

انتفض هلال مقطّبًا، وهُدمت البئر الطّافحة بينهما بمرّ الدّموع والحقائق:

– كفاكِ هراءً وأخبريني! كنت على دراية طوال الوقت بما أتعرّض له، وظللتِ ساكتة؟ ساكتة يا الله؟!

لم يَلْقَ منها إلّا صمتًا، فانفجر:

– لا أصدّق كم أنتِ مجنونة! لا أنت لست مجنونة. أنت مخبولة. معتوهة. حيوانة قذرة! بكلّ صفاقة تعترفين أمامي بأنّك كنتِ شاهدة ملء جفنيك على اغتصابي وبقيتِ متغاضية عن الأمر؟ سحقًا لك أُمًّا! لا أفهم كيف يعقل رأسك الفارغ الأمور. هيهات يا حمقاء أن أنسى. هيهات أن أمضي وحياتي كأنّ شيئًا لم يكن. هيهات! إن كنتِ بارعة إلى هذا الحدّ في الكذب على نفسك، فأنا لست بارعًا أبدًا. اختفي من وجهي أفضل لك. ولك اختفي بسرعة!

قامت وهي تدعك عينيها، وحثّت خطاها نحو الباب، فيما لم تصبها المزهريّة التي رماها بها. وعندما صارت خارجًا، ارتمى على الكنبة، احتضن أحد مساندها، شدّه بعنفٍ إلى صدره، وغرق في كآبته متفكّرًا.

بدا له أنّ الكون بأسره متآمرٌ ضدّه.

الأفكار السّوداء تؤرجحه جيئةً وذهابًا. لم يُرد تصديق ما سمع، لكنّه أذعن مُكرهًا لمرارته. وعندما عاودته صورة أمّه بقامتها القصيرة، وأبيض وجهها الباهت، وعينيها البليدتين، وشعرها البنّي، جرفه شعور ملحّ بالانتقام منها.

انتظر رجوع لميا من عند الطّبيب النّسائيّ، ثمّ هبوط الليل، وقام إلى غرفتها خلسةً. فتح الباب. كانت نائمة. مشى كأنْ لا جاذبيّة. لم يفلت منه حسٌّ. التصق بسريرها. تناول مخدّة أبيه التي تحتفظ بها تذكارًا فيه رائحته. يا لها من بَغِيٍّ فاشلة. أضاء اللمبادير ذا النّور الفاهي. لكزها مبتسمًا. فتّحت عينيها. ردّت له الابتسامة بمثلها. لم تلحق أن تتفوّه بكلمة. باغتها منقضًّا على رأسها بالمخدّة. لم يلقَ ولو حركة مقاومة مضادّة. ظلّ ضاغطًا على وجهها بأعصاب واءمت زمهرير الخارج، حتّى ماتت مختنقة.

أخفى معالم جريمته. نزل إلى المطبخ. احتفى بسيجارة. أخرج من خزنته الصّندوق واستمنى على إحدى الصّور. لم يغتسل. عاد إلى سريره.

في الصّباح تناهت إليه استغاثات لميا من غرفة أمّه. سبب الوفاة، كما جاء في الشّهادة، ذبحة قلبيّة.

* * *

يقضي معظم الوقت المسموح فيه للمجانين بالخروج إلى الحديقة ممدّدًا على العشب؛ يتوسّد ذراعيه، يعكف قدمًا على قدم، يرنو إلى السّماء، ويستحضر – كما الآن – شذرات من ماضيه. يتخيّل جسد والده المشويّ، ابتسامة أمّه المختنقة، ووجوه الأطفال الذين أرسلهم إلى فوق. وحدها وجوههم يتخيّلها تتراقص وسط العراء الأزرق في هالات ملوّنة، مُدندنةً ألحانًا متناغمة كأنّها سمفونيّة.

أحيانًا يعنّ له البقاء هنا، في مستشفى الأمراض العقليّة، حيث قرّر عقلاء العالم الحجْر على مجانينه، ووصمهم كُلًّا بصفة: مازوشيّ، مفصوم، نيكروفيل، كليبتوفيل، وغيرها من تسميات تدور في فلك الجنون. تسميات يؤمن بأنّها ابتُكرت لاحتجاز المختلفين، الحقيقيّين، الذين لا يبذلون جهدًا لطمس نزعات النّفس البشريّة أمام أحد. هنا في سجن المظلومين، وجد أنّ التّقرّب من الغير لا يحتاج إلى تخطيط، وأنّ تعرية الفكر لا تتطلّب أيّ تفكير. ثمّة تخاطر ذهنيّ عجيب بين الجميع؛ يكفي أن يومئ اثنان أحدهما للآخر حتّى يفهم الأخير. لكن، في أحايين أخرى، تحديدًا قبل الخلود إلى النّوم، يعصف به الورع؛ تترامى إليه أصوات الماضي، وشذاه الكريه. يحسّ بالانكسار، بالوحدة، بحاجة قاتلة للعودة إلى حياته السّابقة،

حياته التي ينوي ترميمها جذريًّا، بعدما نجح خلال أعوام زواجه الأربعة عشر في قتل لميا نفسيًّا، على البطيء.

ما زال أمامه 60 يومًا للخروج. مذ صدر حكم القاضي قبل 43 يومًا بحجب المسؤوليّة العقابيّة عنه لأنّ اعترافاته وسلوكه في السّجن أكّدا أنّه «مجنون»، وهو يعدّها بالسّاعات والدّقائق.

– قطعنا الشّوط الكبير يا صديقي، ولا ضير في قليل من الصّبر. اطمئنّ. كلّ شيء يسير وفق ما خطّطتُ له. يبقى أن تلتزم حرفيًّا بما أخبرك أن تفيد به صديقي الطّبيب خلال جلسات العلاج النّفسي، وتتناول الأدوية الوهميّة المعطاة لك بانتظام ودون عناد، لنحرّر لك تقريرًا طبّيًّا يثبت شفاءك التّام. عندها فقط سترتاح وتتخلص نهائيًّا منّي ومن قرف المحاكم.

أخبره المحامي ذلك خلال زيارته له الأسبوع الماضي.

– وكيف ستستطيع فعل هذا؟

سأله هلال بلهجة ترشح قلّة ثقة، فابتسم المحامي مداريًا اضطراب مُوَكِّله:

– وهل أجبتك يا صديقي حين سألتني ذات السّؤال قبل إصدار القاضي حكمه؟ كما تعلم، هذه أسرار المهنة، وليس من شيمي أن أفشيها لأحد. أعود وأكرّر، كلّه بثمنه. أنت كنت كريمًا معي، وأنا سأكون أكرم. دع كيف لي. لا تشغل بالك بتفاصيل. اتّفقنا؟

– هلال!

يطلّ فوقه ممرّض في روبه الأبيض. يحجب عن عينيه زرقة السّماء. وينفض من ذهنه سحابة أفكار وذكريات.

– لديك زائر. أأستدعيه إلى هنا، أم تفضّل رؤيته في الدّاخل؟

دفء اليوم يروقه. يطلب من الممرّض مقابلة الزّائر هنا، حيث هو مُستلقٍ، على هذه الرّقعة الخضراء من الحديقة.

زائر؟ يسائل نفسه حين يمضي الممرّض. أم هي زائرة؟ أيُعقل أن تكون... هي؟ لا يستبعد الأمر، خاصّةً أنّ محاميه أخبره البارحة أنّها أفاقت من الكوما بأعجوبة. إن كانت هي، فماذا تراها تريد بعد؟ أَلَمْ تكتفِ بما سبّبه لها؟ يبتسم مستحضرًا لحظات حياتهما الزّوجيّة على مدى أربعة عشر عامًا. حقيقةً، كانت في ما مضى صبيّةً جميلة، تموج حياةً وأنوثة. لكنّها سنةً تلو سنة، وانكسارًا تلو انكسار، استحالت شبحًا. امرأةً بلا روح. شحبت، هزلت، وهرمت، وحول سريرها الذي ما عاد لها حيلٌ لمفارقته، تكوّمت علب أدوية الأعصاب والمهدّئات والمناديل الورقيّة. كم يزداد سعادةً بتعاستها. قلبه يطفح قوّةً حين يستذكر كيف صيّرها. تراها بكت حين أفاقت من الغيبوبة، وتذكّرت أنّ ابنتها لم تعد موجودة؟ أم ما عاد في عينيها دموع تُذرف؟

– صباح الخير.

يقوم باستياء غير معلن، مدركًا من خشونة الصّوت أنّ الزّائر ليس لميا كما كان منتظرًا.

– قبل أن أعرّفك بنفسي، هلّا تفضّلت أستاذ هلال إن لم يكن لديك مانع، بإجابتي عن سؤال غريب بعض الشّيء؟

يحدّق مليًّا في ملامح الشّاب. يقدّر له تسعةً وعشرين، أو ثلاثين عامًا. لديه وجه مألوف. لا بدّ رآه مسبقًا، في مكان ما، لكن أين؟ تخونه الذّاكرة. يكنّس بلاط أفكاره ويقول:

– تفضّل.

– من دون تفكير، ما أكثر عضوٍ تكرهه فيك؟

يُعجب للسّؤال، وللسانه الذي يسبقه:

– عيناي.

يطرق الشّاب مطقطقًا أصابع يديه:

– لماذا؟

لا يُحير هلال جوابًا. يجد رجليه تخطوان رغمًا عنه إلى الأمام، لما يخلّفه السّؤال من ارتدادات في الذّاكرة. يلحق به الشّاب هاتفًا:

– أستاذ هلال مهلًا!

خطوات إضافيّة ويقتعد هلال يسار مقعد أخضر في أقصى الحديقة، مظلّلٍ بشجرة سروٍ باسقة.

– عذرًا. لم أقصد التطفّل. أتسمح لي بالجلوس؟

يهزّ هلال رأسه بالإيجاب.

– كيف سمحوا لك بزيارتي؟

– أوووه. قصّة طويلة، قد أتطرّق إليها بعد قليل. بالمناسبة، قصيّ. (يضع يده على صدره) اسمي قصيّ.

يسدّد هلال إلى الشّاب نظرةً يكتنفها شكّ. لا يعجبه قميصه الأسود وبنطلونه الجينز، ولا السّيف الفضّي حول عنقه.

– ماذا تريد منّي؟

يستدير قصيّ تسعين درجة إلى يمينه، يلفّ ساقًا على ساق، ويواجه هلال بشبه ابتسامة:

– أريد أن أكتبك.

– عفوًا؟

– أنت شخصيّة فريدة من نوعها أستاذ هلال، تصلح لأن تكون بطل رواية. وأنا بدوري كاتب صاعد، انتظرت كثيرًا الحدث الملهم، إلى أن طالعتني قصّتك الباهرة في الإعلام.

يضحك هلال ساخرًا:

– سأعتبر هذا إطراءً منك.

– أأفهم أنّك مستعدّ لتحكي قصّتك؟

– ألم تقل إنّك سمعتها في الإعلام؟

– بلى. لكن السّطحيّ منها فقط. وأنا مهتمٌّ بالجوهر.

– جوهر؟

– أريد معرفة الأسباب الحقيقيّة وراء قضيّتك. ما الذي دفعك إلى اغتصاب كلّ أولئك الأطفال، وقتلهم بدمٍ بارد؟

– أوَلَم يذكروا السّبب في التّلفاز؟

يصمت قصيّ لحظات قبل أن يجيب:

– لم يذكروا إلّا أنّك مجنون، تنقضّ على الأطفال بلا وعي.

– جيّد. لم يبقَ شيءٌ لأضيفه.

تنفرج عن شفتي قصيّ تنهيدة تخفي سأمًا عميقًا:

– أستاذ هلال. قاصٌّ مثلي، يهوى الخوض في تحليل الشّخصيّات والغوص في الدّوافع والتّفاصيل، لن تنطلي عليه حيلة نفاذك من القضيّة بنَسْب الجنون إليك. اسمع. أنا لا أعلم كيف خرجت من السّجن. ولا يهمّني معرفة الأمر. جلّ ما يعنيني أن أفهمك. أعني كشخصيّة غامضة لديها ماضٍ لا يزال حتّى اللحظة مجهولًا.

رغم اضطرابه، يحاول هلال مجاراة الشّاب:

– أفهم أنّك لا تصدّق أنّي مجنون؟

يعاود قصيّ الاستدارة بقامته المربوعة تسعين درجة إلى اليسار، ويقول ساهم الطّرف:

– عندما ينظف هذا البلد من نُتنِه، عندها فقط، يمكن أن أصدّق تلك الكذبة.

يهتف هلال بزَيْفٍ:

– الحمد لله. هناك من يصدّق أنّي لست مجنونًا! (يمسك منكبَي قصيّ ويرجّهما) قل لهم أنا لست مجنونًا. لا أحد يريد أن يصدّقني!

لا يحتمل قصيّ الهراء الماثل أمامه، فيكشّر عن أنيابه:

– كفاك! أتظنّني مخبولًا لأصدّق تمثيليّةً سخيفة كهذه؟

يتسلّل الخوف ببطء إلى هلال. يدرك أنّ الشّاب ليس من جملة المخدوعين بالحكم النّهائي الصّادر بحقّه. ومن الوارد أيضًا ألّا يكون كاتبًا كما يدّعي. أين أوراقه وقلمه أصلًا؟ من سمح له بالزّيارة؟! تتجمّع على جبينه حبيبات عرق يمسحها بكمّه. إنّه ليس بارعًا في مواجهة الرّاشدين، ولا سيّما إن كان لا يملك حدًّا أدنى من المعلومات عنهم. أيصرخ إلى رجال الأمن ليُخرجوا قصيّ قبل أن يوقع به في الكلام؟ لكنّ ذلك سيمنعه من إيجاد تسلية عدا محادثة المجانين. لا ضير من أن يراوغ قليلًا بعد. وإذا وصل إلى طريق مسدود، عندها ينادي رجال الأمن.

– ماذا تريدني أن أقول لك، مسيو قصيّ؟

يتحوّل هلال إلى السّماء، هازًّا رجليه في ما يشبه العبث. يعدّ قصيّ إلى عشرة قبل أن يُطرق ويقول:

– سعيد محمّد. جان مخّول. علي فخر الدّين. جيزيل ونّا. كرم الحريري. نجاة البنّا. ماري حايك. عبد الله يونس. أديب جباعي. لميس إيليّا. هادي زعيتر. فرح فاعور. ليزا مارشيليان. نمر حاتم. دينا شبلي... ماذا تعني لك كلّ هذه الأسماء؟

لا يُبدي هلال أيّ ردّة فعلٍ. يتابع قصيّ محاولًا إخفاء حرقته:

– هذه أسماؤهم. أسماء من لم يكفِكَ افتراس براءتهم، فسدَدْت جوعك بتعذيبهم. بقتلهم. بدفنهم أحياءً يَئنّون.

يقبض هلال بكفّه اليمنى على حافة المقعد. يدعك عنقه بيسراه. هذا اليوم لن يمرّ على خير، يحادث نفسه.

– أجبني. بمَ كنت تشعر حين تركن سيّارتك في مكانٍ مزدحم، أو خالٍ من النّاس، وتجلس منتظرًا أن تطلّ عليك الفريسة؟ ما كانت معاييرك في انتقائها؟ كيف كنت تستدرجها؟ ماذا كنت تقول لها وهي إلى جانبك؟ كيف كانت تواتيك الجرأة لتغتال طفولتها؟

يبتسم هلال للتّأثّر في أسئلة الشّاب:

– هل هذا تحقيق؟ لأنّ أسئلتك لا تختلف كثيرًا عن أسئلة القاضي والمحقّقين.

– سمّه كما تريد. كلّ شيء تقوله يفيد في بناء القصّة.

– وهل اخترت لقصّتك هذه عنوانًا؟

– لم أفكّر في ذلك بعد.

– عظيم. أقترح عليك.. «الوحش المظلوم».

يرمق قصيّ هلال بطرف عين:

– أتعتبر نفسك مظلومًا؟

يطرق هلال بحركة مضطربة. ثمّ يقول بخفوت الصّوت:

– ما رأيك أنت؟

– رأيي هنا لا يهمّ. أودّ لو أعرف رأيك أنت بنفسك.

لحظتئذٍ يودّ هلال لو ينفجر بالبكاء. لو يشقّ بالصّراخ وجه السّماء. لو يشجّ رأسه، يقتلع ذاكرته، يغسلها، ويعيدها مكانها

خاليةً يخزّن فيها ما يشاء. لكنّه يتمالك نفسه، ويلقّم قصيّ ما ظنّ أنّه يريد سماعه:

– أجل، أنا الظّالم. أنا الوحش الكاسر. أنا من انقضّ على حيوات بريئة، لا لسبب، إلّا لأنّي مجرم. ماذا تريد بعد؟

– يبدو أنّنا سنراوح مكاننا. أستاذ هلال، ما قلتَه بديهيّ، لا يحتمل تشكيكًا. إلّا أنّي مهتمٌّ بالدّوافع. بالطّبع غير دافع الجنون الذي أتحف به القاضي أهالي الضّحايا، وغير دافع تخليص الأطفال ممّا يتربّص بهم من عذاب، الصّادر عن لسانك خلال مسار المحاكمة والتّحقيقات. اسمع. سأبسّطها لك. أديب جباعي. تعرفه طبعًا. الطّفل البالغ عشرة أعوام. المصاب بمتلازمة داون. المعاق، كما يقول الجهلة. الذي، كما أفاد الإعلام، كان بصحبة شقيقه الأكبر في أسواق صيدا، يتبضّعان معًا لشراء ثياب العيد. طلب منه أخوه أن ينتظره خارجًا أمام أحد المحالّ ريثما يرى إن كانت الخيّاطة أنهت تقصير بنطلونه. غاب عنه دقيقتين، دقيقتين فقط، وعندما خرج إليه، لم يجده. صرخ فزعًا. لـمّ النّاس على صراخه. قالت له امرأة قرب واجهة المحلّ إنّها رأت ولدًا بأوصافه، يمسك رجُلًا بيد وبالونًا باليد الأخرى. سألها عن الاتّجاه الذي سلكاه. قالت إنّهما غابا في الزّحام فلم تنتبه. غابا وحسب. رجلٌ آخر قال إنّه رأى البالون يدخل سيّارة سوداء حديثة ما لبثت أن تبخّرت. جُنّ جنونه. قلب السّوق، فالشّوارع، فالمدينة بحثًا عن أخيه. لم يدع مارًّا إلّا سأله إن كان رآه أو لمحه. انهار. ولدى سماع أمّه الأرملة بالخبر، انهارت هي الأخرى. ولسنوات في ما بعد، ظلّ يبحث عنه. دون ملل. دون كلل. لكن، دون جدوى. إلى أن عثروا على رفاته في برمّانا، في حديقة منزل من منازلك. أديب جباعي. الطّفل الذي يتكلّم بصعوبة، صاحب

عضلة القلب الضّعيفة، والبسمة الخجولة الدّائمة على شفتيه، هذا الطّفل البريء، من أين جئت بقلبٍ لإيذائه؟!

يفغر هلال عينيه؛ هذا الشّاب ليس كاتبًا يبحث عن مادّة دراميّة لباكورة أعماله. إنّه أكثر من ذلك لا محالة. لذلك، بما أنّه تأكّد للتّو بأنّه في موقع القوّة هنا، فعليه أن يحاول استدراجه لمعرفة هويّته وما يروم حقيقةً من هذه الزّيارة.

– يا كاتبي العزيز، ما بالك إن قلت لك إنّ كلّ ضحاياي في كفّة، وأديب هذا في الكفّة الأخرى؟

يحكم قصيّ قبضتيه لجمًا للرّعشة التي طالتهما. يزدرد ريقه:

– ماذا تعني؟

يشبك هلال كفّيه خلف عنقه. يمطّ رجليه إلى الأمام. المسار الذي اتّخذه هذا الحوار يشعره بالارتياح:

– أووووه. أديب هذا كان أسهل طريدة. لم يتكبّدني صيده سوى بالون هيليوم أعطيته إيّاه قائلًا إنّ هناك المزيد منه في سيّارتي إن رافقني. وهكذا صار. رافقني. ثمّ كان ما كان ممّا لا داعي لذكره الآن. سأترك الباقي لخيالك الرّوائي...

ينتفض قصيّ قائمًا. بؤبؤاه مشتعلان. صدره يكاد يتمزّع:

– أنت أقبح إنسان عرفته! (ينقضّ على هلال المرعوب مالخًا عنقه) مهما كان بشعًا ما صيّرك اليوم هكذا، فاعلم أنّك ضاهيته بشاعةً!

يصفرّ هلال. يلمح نهايته معكوسةً في عينيْ قصيّ القابض بقوّة على حنجرته. يحاول أن ينطق مستنجدًا. لا يُفلح. يلمح رجلي أمن هارعين من بعيد صوبه. يتراءى الحارسان لقصيّ أيضًا. فيفلت عنقه دافعًا إيّاه بعنف إلى ظهر المقعد:

– أنا لست كاتبًا لكنّي اليوم سأكتب نهايتك بيدي. قلت لي إنّ عينيك أكثر ما تكرهه فيك؟ أنت من جنيت عليهما.

يستلّ من رأس سيف الإمام علي المعلّق في سلسلة سوداء حول عنقه شفرة موسى مسنّنة، تلوح لامعةً بين أصابعه.

– لا، لا تفعلها، قتلي لن يفيدك، ستقضي على مستقبلك!

– لن أدعك تهنأ بالموت. سأجعلك تمضي بقيّة حياتك في العتمة، لأنّ أمثالك لا يليق بهم ضوء الشّمس. يا واطي أنا ليس لديّ شيء أخسره. أخي الصّغير سلبته منّي. أمّي قتلتها بحسرتها. قلت لي مستقبل؟ لا شيء في هذا البلد الزّفت ينذر بمستقبل!

يهوي قصيّ على جسد هلال؛ عملاقٌ منكفئٌ على قزم. يشطب عينيه الاثنتين بالشّفرة الحادّة. يتلبّسه شيطان الانتقام وغريمه ينزف بين يديه دمًا وألمـًا. لا يرتوي. يهشّم معالم وجهه بضربات متواترة. شخطة من اليمين. وأخرى من اليسار. يتلطّخ المقعد بدم هلال الذي لا يلبث أن يغيب عن الوعي، ويسبح في ظلمة حالكة، توائم تلك التي خنقته لأعوام.

2

الليل. أثقل الكائنات دمًا. أعدمها رحمة. يتوسّد السّماء، محتكرًا لنفسه أوكسيجين الأرض. صدرها صار مشاعًا له. حين يلقي عليه بسواده، تشعر كما لو أنّ يدين غليظتين تخنقانها، تدفعانها إلى هاوية بلا قعر، الذّاكرة، حيث تظلّ تسقط، حتّى تبزغ شمس النّهار، لتنتشلها إلى برّ السّكينة. السّكينة. الشّعور الذي ما خبرته إلّا أخيرًا. وتكاد اليوم تجزم بأنّها أوّل كائنٍ فعل. لا سكينة سوى في سكنى الموت، وهي أوّل مَن سكنه. حسب تقارير الأطبّاء، كانت خلال مئة وتسعة أيّام ميتة سريريًّا، لكن، حسبما خبرت هي، كانت على نقيض ذلك تمامًا. طوال تلك المدّة، كانت حيّة. تجوب بروحها مكانًا أبلغ من الوصف. مكان لو سمعها أحدٌ تلفظ اسمه لحسبها مجنونة؛ الجنّة. أجل، الجنّة. لكنّها ستبقي ذلك لنفسها. لن تخبر عن رحلتها أحدًا. حتّى أمّها. لقد قرّرت ألّا تخوض في ما قد يوجع الرّأس.

109 أيّام لم تشعر بمرورها في ساعة جسدها. تعاقبت عليها بغمضة جفن. رويدًا، راح النّور الإلهيّ حولها يختفي. ثمّ أحسّت بروحها تهوي إلى حفرةٍ سوداء، ارتطمت في نهايتها بجسد ممدّد

على سرير في مستشفى. كان جسدها هي. تلبّسته، وفتّحت عينيها، عائدةً إلى الحياة دون رغبة. لقد عادت إلى حيث لم تكن تودّ أن تعود. لكنّها لم تعترض على ذلك، لأنّه لا اعتراض على مشيئته. مشيئة الله الذي بقيت مغمورةً بنوره لمئة وتسعة أيّام. لقد أراد لها الله هذه العودة. إنّها مؤمنة بهذا. مؤمنة بأنّه صفح عنها، عن كلّ فعل أسود سطّرته خلال أعوامها الأربعة والثّلاثين. لقد أراد لها الله أن تبني حياةً جديدة، من الصّفر، حياةً ملؤها التّقوى. في هذا علاجها، لا في عيادة المعالج النّفسي الذي اقترح عليها الأطبّاء اللجوء إليه، خلال الأيّام الخمسة الماضية التي قضتها مع ندى وأمّها في المستشفى، بهدف متابعة حالتها الصّحية والاطمئنان إلى أنّ الغيبوبة لم تعِث تَلَفًا في وظائفها الدّماغيّة.

في هذه الليلة الحالكة، ليلة السّبت 12 حزيران، يسمح لها الأطبّاء بمغادرة المستشفى، بعدما استعادت بعض عافيتها. تستقلّ وأمّها سيّارة أجرة، وتنطلقان إلى بيت العائلة في كفرشوبا. أمّها عن يمينها تحادثها بأمور شتّى، وهي شاردة، شاخصة إلى سواد السّماء المطبق، تفكّر مليًّا.

ساعتا قيادة تصلان بعدها إلى الضّيعة. أمام بوّابة الدّار، تفاوض أمّها السّائق على أجرته، وتنزل هي مرتقيةً الدّرج. تلحق بها أمّها حاملةً شنطتين كبيرتين، تفتح الباب، وتدعوها للدّخول:

– نوّر البيت لميا. لو أنّ أباك معنا، لذبح في التّو، هنا على المدخل، خروفًا لعودتك بالسّلامة.

لا تُعلّق. تأخذ من أمّ بدر الشّنطة التي تحوي أغراضها، وتمضي إلى الدّاخل. بعد الاستحمام وتناول عشاء خفيف صامت، تخلد الاثنتان إلى الفراش، كلٌّ في غرفة، نزولًا عند طلب لميا. لكنّ لميا

لا تنام. تظلّ ممدّدةً على السّرير وسط الظّلام، منتظرةً أمّها لتغطّ في النّوم. وحين يترامى إليها صوت شخير من الغرفة المقابلة، تقوم نحو الشّنطة، تستلّ كيس الأدوية والمكمّلات الغذائيّة التي وصفها لها الطّبيب المعالج، فضلًا عن التّوفرانيل الذي كانت تتناوله قبل دخول الكوما، تستلّه فترميه في حاوية المطبخ. ثمّ تسحب مناديل ورقيّة، تبلّها بالماء، ترشّها بقليل من البُنّ، وترميها في السّطل على نحوٍ يخفي الكيس: مثلما رفضت العلاج النّفسي، سترفض تناول الدّواء، لأنّها على يقين بأنْ لا دواءَ قادرًا على إخماد الحزن الذي أحرق صباها خلال سنوات الزّواج. لقد أدركت أخيرًا، بعد كلّ ما التهمت سدى من مضادّات كآبة، وكلّ ما تعلّمت من دروس في كلّية الصّحّة وفي جامعة الحياة، أنّ علّتها الوحيدة كانت في اعتناقها الجانب الفاني من الدّنيا؛ لقد كانت مادّية. في تفكيرها وتصرّفاتها وطموحاتها. هذا ما حملها على اعتناق التّعاسة في كنف زوج لم تكن ترى فيه سوى وسيلة إثراء. ولـمّا طُرحت في الفراش قبل سنتين، مريضة كآبة حادّة، ظنّت أنّ حبوب التّوفرانيل ستداويها. سترفع في جسدها معدّلات السّيروتونين، المركّب الذي يُبحر بين مشابك الإنسان العصبيّة، ليزوّده بالرّضى والسّعادة. اليوم أدركت أنّ المشاعر لا دخل لها بكيمياء الجسد، وأنّها أسمى من أن تكون مجرّد مادّة يمكن أن تُركّب. المشاعر هي من أثر الله في الإنسان. نثرها بين خلاياه مُركّباتٍ تُبحر إليه. تمخر من الرّوح كمراكب مثقلة بحثًا عن يابسة، عن ضوء منارة، عنه هو، لتفرغ حمولتها. وهي، لمادّيتها، كانت تبحر بأحاسيسها إلى الوجهة الخطأ، حيث لا يابسة، ولا منارة، بل حمل أكبر من الأسى، وحمل أكبر من التّعاسة. أمّا اليوم وقد أدركت أنّ الله هو يابستها، ستبحر

بأحاسيسها وجهة منارته، لتفرغ حمولة الحزن، وتشحن نفسها بالسّعادة. لم يفُت بعد الأوان لهذا. ستحاول بعون الله بناء حياتها من جديد. ستُصلح ذهنها وتُعيد طلي أفعالها. ستُرمّم روحها جذريًّا. ببساطة، وحدها الصّلاة ستكون دواءها؛ خمس منها كلّ يوم حتّى آخر العمر كفيلة بشفائها. بحبل الله ستتعلّق. وإلى برّ الخلاص سترتفع.

قرابة الثّامنة صباحًا، تنقلب ابتسامة أمّ بدر رأسًا على عقب لحظة تطأ قدماها عتبة غرفة لميا:

– ماذا تفعلين؟ (تقول كمن لدغ في لسانه).

– صباح الخير.

لا تستدير لميا نحوها وهي بمواجهة المرآة، تلفّ رأسها بحجاب أسود، يماثل لون العباءة المنسدلة على جسدها.

– ما بكِ يا ابنتي؟

تقترب أمّ بدر منها ببطء.

– الحمد لله يا أمّي.

– يا حبيبتي يا لميا، شو صرلك؟

تستدير لميا نحوها بشبه ابتسامة، وعينين أنهكهما السّهر:

– مبسوطة يا إمّي. مبسوطة.

– انظري إلى عينيك. لا يبدو لي أنّك كذلك.

– من أين لك أن تعرفي؟ هل دخلت قلبي؟ هل رأيت ما يعتمل فيه؟ الله هداني أخيرًا يا أمّي. يجب أن تسعدي.

تفأقئ والدتها بدمعها، وتسرع في الخروج. تقتعد لميا السّرير غير متعجّبة لردّة فعلها. فأمّها ليست محجّبة، وإن لم تخنها ذاكرتها، فإنّها لم تُصلِّ يومًا صلاتين متتاليتين. مع الوقت

ستتفهّمني، ستتفهّم أنّ هذا هو درب سعادتي، وأنّ السّعادة ليست في ما نكسو جلودنا به، بل في كساء الرّوح، في ما بأحداقنا من ألوان؛ تقول في سرّها، ثمّ تتناول القرآن عن طاولة السّرير، وتقرأ في جزء عمَّ.

بعد أيّام من الصّمت الموتور بين الاثنتين، تُفاجأ لميا بأمّها تدخل الغرفة أثناء مطالعتها كتاب «قصص القرآن»، بصحبة امرأة خمسينيّة مربوعة القامة، مألوفة الملامح، تبادر بالحديث قائلةً:

– صباح الخير لميا. أنا أمّ محمود. أتذكرينني؟ جارتكم في الحارة المجاورة. كيف حالك؟

تغلق لميا الكتاب. تضعه برفقٍ على الطاولة.

– نشكر الله.

تهزّ المرأة رأسها مبتسمة، فيما تكتّف أمّ بدر يديها كاسرةً الصّمت:

– أمّ محمود أتت يا ابنتي لتقوم بما كان يجب أن تقوم به من 14 سنة.

يَبينُ في عيني لميا استهجان، فترتئي المرأة أن تمسك دفّة الحديث:

– أمّك لديها حقّ. أتذكرين يا لميا ما حدث مع ندى وقتذاك؟

لا تُبدي لميا اكتراثًا. تأخذ المرأة نفسًا عميقًا. تمسح العرق المتصبّب على وجهها السّمين وتضيف:

– أقصد... حين أتتني أمّ بدر لأساعد أختك، وأفكّ السّحر الذي كُتب لها... تذكرين، صحّ؟

تحدّق لميا بالاثنتين، بالجارة فأمِّها، ثمّ تستغفر ربّها. مرّتين.

– المهمّ، أختك عاندت أمّك رافضةً رؤيتي، مخافة أن يعلم أحدٌ بحملها.

– أمّ محمود، شو بدنا بهالحكي؟ لا داعي له بعد كلّ تلك السّنين. أتمنّى عليك ألّا تعاودي نبش الماضي، لأنّه سبب تعاستنا.

– لا يا ابنتي. أنت مخطئة. إنّه السّحر. السّحر الذي كتبته جارتكم البرصة زينب هو السّبب. وأنا جئتكم اليوم لأخلّصكم جميعًا من شرّه...

– أمّ محمود، ما هذا الكلام الفارغ؟!

تنتفض لميا لإيقاف الجارة عند حدّها.

– يا لميا، اقعدي واسمعي. جارتنا عم تحكي عين العقل.

– عين العقل؟ يا إمّي هيدا نقص عقل. وأنا ما بدّي إسمع هيك هبل ببيتنا!

– لميا، سأكون معك واضحة، أنا مش طالعلي شي. اسألي أمّك. القصّة أنّي متعاطفة معك، ومش قادرة شوف بيتكم عم ينهار أكتر وإبقى ساكتة.

– بيتنا لا يعيبه شيء.

– ماذا؟ أختك اقترفت الخطيئة. أبوك راح سكتة قلبية. بدر تزوّج حرباء جعلته يترك أمّك ويعاديها. وأنت تزوّجت مغتصب أطفال اعتدى على ابنة ندى، وقتل ابنتك. وتقولين لي بيتكم لا يعيبه شيء؟ بعدين، إمّك من حقّها تخاف عليكِ.

– عليَّ أنا؟ مِمَّ؟

تنظر أمّ بدر إلى لميا بعينين متلبّدتين، وشفتين مقوّستين تتملّك منهما الرّعشة:

– انظري إلى نفسك يا ابنتي. كأنّك شخصٌ آخر. بعد أن صحوتِ من الغيبوبة، تغيّرتِ عليّ. فاجأني رفضك اللجوء إلى الطّبيب النّفسي، رغم أنّ زوج أختك دبّر بالواسطة نفقات العلاج ونفقات رقودك في المستشفى. كما أنّ كلامك بات أقلّ من المعتاد. معظم الوقت أراك شاردة، منزوية طوال اليوم في هذه الغرفة لا أعلم بما تفكّرين. وحين أسألك شيئًا، تردّين لي الجواب بالقطّارة. وأهمّ من هذا كلّه، لم أرَكِ تذهبين بعدُ إلى قبر أبيك. أو إلى قبر... سوسن. حتّى إنّك لم تأتي أمامي على سيرتها إطلاقًا. ماذا تفعلين بحقّ نفسك يا لميا؟ احكي لي. لا يجوز أن تكبتي. أخاف عليك من انهيارٍ عصبيٍّ قد يباغتك لا قَدَّر الله.

بلهجة هادئة، متّزنة:

– الحمد لله أنا ما فيني شي. بالعكس، صرت أحسن ولست بحاجة للمساعدة من أحد.

– أمّي حبيبتي دعي أمّ محمود تحاول. لن تخسري شيئًا.

– آمنت بالله على هالنّهار!

تأبى لميا سماع المزيد من ترّهات فكّ السّحر أو الكتيبة أو غيرها من الخزعبلات التي لم ولن تؤمن بها، فتغادر الغرفة مستعيذةً من الشّيطان، ومتجاوزةً أمّها وأمّ محمود، رأسًا إلى المطبخ.

– عجبك هيك؟ المرا انقهرت منِّك وراحت.

تتبعها أمّها بعد دقيقتين، وتتسمّر قرب الثّلاجة.

– إيه الله والنّبي معها.

تقضم لميا تفّاحة.

– يا بنتي ليه عم تعملي بحالِك هيك؟

تبتلع ابنتها قطعة التّفّاح وتقول بصبر نافد:

– لا أصدّق يا أمّي! جعلتِني مسكونةً أمام الجارة، وأحضرتها إلى هنا لتفكّ السّحر الذي كُتب لي؟ لماذا؟ أَخِلتِني جُننت؟ بالله عليك، ألا تسمعين ما تقولين؟ ثمّ، لا أعلم لم لا يعجبك انبساطي. أكنت تريدينني أن أظلّ مكسورةً ومقهورةً ومطروحةً في السّرير أبكي وأنوح ليل نهار على سوسن؟ أهذا كان سيسرّ خاطرك؟

تنحدر أمّ بدر بقامتها الفارعة على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ قرب الطّاولة المغطّاة بـمُشمّع من البوليستر، تنحدر كالعَبَرات على خدّيها المتآكلين، ولا يصدر عنها صوتٌ واحد.

– ما حدث معنا لا علاقة له بالسّحر أو الكتيبة أو التّفاهات التي تبتدعانها أنت وأمّ محمود. اللي صار، سامحيني على قول الحقيقة، كان بسبب تربيتك يا أمّ بدر. تربيتك البعيدة كلّيًّا عن الدّين!

تخترق قلب الأمّ سهام تحيله مُزقًا. يطول سكوتها. تدرك أنّ ابنتها التي التأمت جراحها بسرعة عجيبة هي على حقّ. يا ضيعان تربايتك يا هيام. ربّيتِ وربّيتِ وبالأخير كلّه راح للكبّ. تنكبّ تخاطب نفسها وتلومها. منذ سنتين وهي تلومها. تشعر بأنّها المسؤولة الأولى عن بلوغ ابنتيها حدّي التّطرّف. أنا المسؤولة عن كلّ هذا الخراب، وَلْأَجْنِ كلّ ما زرعته يداي! أخيرًا، ترفع الرّاية. ترى أن لا طائل ممّا تحاول القيام به لاسترجاع لميا الواقفة قبالتها بالزّي الإسلاميّ الشّرعي، تعبيرًا عن التزامها الدّيني المستجدّ. لميا التي تدرك، في الوقت عينه، أنّ هذا البيت، بيت المرحوم أبيها خليل الذي تلوذ به منذ أيّام، لم يعد المكان المناسب لها. إنّها

بغنى عن أن يحاول أيّ مخلوق زجّها في المعاصي والباطل. يا ربّ، اهدِني إلى الصّواب. تقول لنفسها سرًّا، وتشرد تفكّر.

3

لصق ملعب التّنس ضمن مجمّع خالد عبّود الرّياضي، يقف بدر ظهر الثلاثاء 15 حزيران منتظرًا انتهاء آدم من مباراة ودّية مع أصدقائه. عيناه تتردّدان بين اللاعبين في جريهم وقفزهم وضربهم للكُرات، وشعورٌ مخيفٌ يحدوه فجأةً، شعورٌ بأنّ بساط العمر يطير به مسرعًا، رغمًا عنه. لا. ليست فكرة الموت بذاتها ما يخيفه، إذ قبل التزامه الدّيني وحتّى بعده، لا يزال الموت بالنّسبة له حدثًا طبيعيًّا، حتميًّا، لا مفرّ منه. لكنّ طريقة الموت هي ما يهجس به. يتساءل دومًا، وقد صار اليوم على أعتاب الأربعين، كيف ستكون النّهاية؟ لطالما تمنّى أن يموت ملتحفًا في سريره، عجوزًا لا عاجزًا، وفجأةً لا على مراحل. الله كريم – يردّد في سرّه. حقيقة الأمر، رؤية آدم أمامه على هذا النّحو، شابًّا مرحًا ذا أخلاق حميدة ومستقبل مُرفّه مؤمّن ووظيفة مرموقة في حقل الطّب النّفسي، هي ما يجلب ذلك السّؤال إلى الواجهة. إنّه يودّ لو يرحل مطمئنًّا إلى أنّ أولاده بخير، يعيشون في بحبوحة واستقرار مع أزواجهم أو زوجاتهم، وعيونهم شبعى من أبيهم ومن الدّنيا. لهذا يحدث أحيانًا أن يحسد الدّكتور عبّود على النّعيم الذي يسبح فيه، والذي سينتقل حتمًا إلى ابنه آدم البالغ

اليوم 27 عامًا، لكن سرعان ما يتعوّذ من الشّيطان، مُطهّرًا كيانه بسورة الفَلَق. ويحدث أحيانًا أن يؤرّقه حديث الرّسول: «إنّما الأعمال بالنّيات»، فيفجّر فيه مزيدًا من الأسئلة: يا ربّ، من نيّته أصفى؟ من الواقف في صفّ أعداء الدّين والمشارك في إحباط الذين يحاولون نشر رسالتك؟ من يريد لدينك أن يصبح سيّد القوانين، ومن يحاول زرع مبادئ الغرب الكافر أينما اتّفق؟ أنا، يا ربّ، أم ربّ عملي؟ إنّه يدرك جيّدًا أنّ ثمّة الكثير في دينه ممّا لن يقدر على استيعابه، أو حتّى هضمه، لكنّه لن ييأس. سيحاول جاهدًا إيجاد أجوبة عن كلّ أسئلته. يستغرق بدر متفكّرًا، ثمّ لا تلبث أن تنتهي المباراة، فيدخل اللاعبون إلى غرف تبديل الملابس، يستحمّون، ويتعطّرون، ويرتدون ملابس أخرى نظيفة. يخرج آدم بقميص أبيض فِتْ وبنطلون جينز غامق، يودّع أصدقاءه، ويمضي مع بدر ومرافِقَيْن آخرين إلى مطعمٍ يابانيّ كان قد تواعد وصاحبته على الالتقاء فيه لتناول السّوشي، قبل أن يعود مع انتهاء النّهار إلى قصر العائلة في صيدا.

في القصر، ما إن يسلّم بدر مهامّه إلى مرافق آخر ويهمّ مغادرًا إلى منزله، حتّى يُستدعى إلى مكتب الدّكتور عبّود. يخبره منظّم مناوبات المرافقين بذلك، فتنسرب داخله الرّعشة. لقد حانت لحظة المواجهة. المواجهة التي ينتظرها متوجّسًا مذ غادر السّجن وعددٌ صغيرٌ من موقوفي التّظاهرة يوم السّبت الفائت، بكفالة قيل له إنّ الدّكتور دفعها بنفسه. ماذا تراه سيقول له خالد عبّود؟ هل سيؤنّبه؟ هل سيوبّخه؟ هل سيستغني عن خدماته؟ خير – يقول لنفسه مرتقيًا الدّرج إلى «غرفة الاجتماعات السّرّية». وقع الاسم وحده يضرم التّوتّر.

– اجلس.

يبادره الدّكتور عبّود من خلف المكتب، نافثًا سحابةً هشّة من سيجاره. يمتثل بدر ويجلس. على أعصابه.

– كيف الأحوال؟

– الـ... الحمد لله. مستورة.

– زوجتك وأولادك بخير؟

– نـ... نشكر الله.

– دائمًا وأبدًا.

يطفئ الدّكتور سيجاره. يشبك أنامله السّمراء الغليظة فوق المكتب:

– صراحةً، فاجأتني. أعني كونك من أنصار الشّيخ السّلفي الفارّ من العدالة، ذكّرني، ما كان اسمه؟

ليس سلفيًّا – يودّ بدر أن يقول، لكنّ الجرأة لا تؤاتيه، فيتمتم مُطرقًا:

– مـ... محمود عبد الأمير.

– سيّد بدر، نشكر الله أنّك والقليلين أبرياء من كلّ ما وُجّه إلى معشر الشّيخ من اتّهامات. ولولا تيقّني بذلك، ولا سيّما ببراءتك أنت، لما عاد أحدكم إلى عائلته.

يرفع بدر وجهه ويقول بلهجة أقرب إلى الهمس:

– شـ... شكرًا لك. هذا من فضلك.

وفي سرّه يودّ لو يضيف: لِم لَم يخرج الباقون؟ لست وحدي البريء. كلّنا أبرياء. وأنت الأدرى بهذا!

– لا داعي لتشكرني. أنت رجل شهم، وأنا لديّ ثقة عمياء بك. والدّليل، تعييني لك حارسًا للقصر رغم عدم حيازتك خبرة، وترقيتي لك لاحقًا مرافقًا شخصيًّا لابني. الخلاصة، لا أحد منّا معصوم عن

الخطأ. فاعلم أنّي غفرت لك زلّتك الصّغيرة، آملًا ألّا تزلّ قدمك مجدّدًا، لأنّه عندها لن يعود باستطاعتي تخليصك.

يهزّ بدر رأسه بابتسام مضطرب.

– ألديك فكرة لم أنت الآن هنا، في مكتبي؟

يومئ بدر سلبًا، فيرجع الدّكتور إلى الخلف، ويشعل سيجارًا آخر:

– أنت بصدد سماع أخبار فائقة السّرّية، لا تدعو أبدًا إلى الاطمئنان. وقد استدعيتك إلى هنا لثقتي بأنّك ستكون متعاونًا معي لنقف في وجه الانفجار الذي إن لم نتداركه بسرعة، فسينسف الوطن والمحيط بأكمله.

يعرض على بدر سيجارًا كوبيًّا يرفضه بإيماءة.

– أتعرف سبب سجنكم يوم خرجتم في تلك التّظاهرة؟

لأنّ فريقك السّياسي دسّ في حراكنا زعرانه ليخرجنا أمام النّاس كمخرّبين وقتلة ومشعلي فتن! لكنّه لا يجرؤ على إجابة كهذه. يكتفي بهزّة رأس نافية.

– لا لاستشهاد عنصري جيش ودرك بنيران شيخك، بل لأنّ أجهزة الأمن اكتشفت أنّ الجماعة التي انزلقتَ إلى وكرها سهوًا، من أنصار القاعدة، أو لنقل على صلة وثيقة بها. وأعتقد أنّك تعرف تمامًا ما هي القاعدة، وما هي أهدافها.

يرنو بدر باستهجان إلى الدّكتور الذي يتكلّم ويدخّن في آن واحد. يقول بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

– عذرًا سيادتك، لا أعتقد أنّ الشّيخ محمود يؤيّد القاعدة.

ينفض الدّكتور سيجاره، ويقول مبتسمًا ملء شدقيه، حتّى يبرز له ضرسٌ مُذهّب:

– هذا ما حملكم الشّيخ على الاعتقاد به. أنا أثني على ذكائه. فشيخك الذي ستثبت إدانته قريبًا، قبل تعيينه إمامًا على جامع جعفر بن أبي طالب، دُرِّب في أفغانستان مدّة سنتين مع أعدادٍ هائلة من الأئمّة العرب، ثمّ عاد إلى لبنان وبدأ، كما غيره، بالعمل على تنفيذ خطّة القاعدة. ولولا اكتشاف أجهزة الأمن المبكر لحقيقته وحقيقة عددٍ من نظرائه، لفُجّر الوضع الرّاهن برمّته. لمَ أنت مستغرب؟ خطّته كانت محكمة. أولى خطواتها كانت حيازة رضى الجمهور، وكلّ العوامل المحيطة به كانت مؤاتية. فأبوه اعتزل الغناء وصار منشدًا في المناسبات الدّينيّة. وأمّه تحجّبت فتجلببت. وهو يمتلك صوتًا قويًّا وشكلًا حسنًا ولسانًا ذلقًا وحسًّا فكاهيًّا، وخطبه مقتضبة ترضي النّاس صغارًا وكبارًا، وفي حملات الدّعوة التي خرج بها، عرف كيف يشدّ إليه الشّباب العاطل عن العمل ويغذّي لديهم ولعًا بالانقلاب على الدّولة وتحقيق حلم من المبكر جدًّا بعد الحديث عنه، ألا وهو قيام الدّولة الإسلاميّة. أنت تدرك سيّد بدر أنّنا كمسلمين لا نعيش وحدنا، وأنّ هناك عشرات الطّوائف والمذاهب، إن هبّ أحدها ينشد دولة أحلامه، فسيندلع اقتتال أهليٌّ طائفيٌّ جديد، ويسيل الدّم حتّى الرّكب. وهذا ما نحن بغنى عنه. لقد اكتفينا وشبعنا دمًا. ونريد أن نعيش حياتنا مستقرّي البال. ألا توافقني الرّأي؟

يلزم بدر الصّمت. يستحكم الذّهول بِقَطْرَي بؤبؤيه. يسلم نفسه لعاصفة أفكار: أهذه تلفيقة أخرى من تلافيق النّظام السّوري، أم هو الواقع؟ لكنّ الشّيخ محمود ليس ممّن يتحدّث عنهم الدّكتور خالد، وإن اجتمعت كلّ تلك المفارقات لتنقض ذلك. إنّه يعرفه. يعرفه عن كثب. لكن ماذا لو أنّه متوهّم معرفته؟ أيُعقل أنّ ما سمعه

حقيقيّ؟ أم هي مؤامرة، تهمة يحاولون إلصاقها به ليهشّموا صورته لدى العامّة؟ لا، الشّيخ محمود ليس إرهابيًّا – يؤكّد أخيرًا لنفسه، ثمّ يقول:

– أتّفق معك. هناك محاولات لتفجير البلد. لكن الشّيخ محمود وراءها؟ لا أظنّ...

– حقًّا؟ إن لم يكن مجرمًا كما تعتقد، فهلّا أخبرتني لمَ فرّ بجلده؟ لمَ ترك رجاله في ساحة معركة كان قد خطّط ودعا هو إليها؟ لمَ تركهم ينالون العقاب وحدهم، بينما هو يسرح ويمرح؟ ثمّ، ما بالك إن أخبرتك أنّ جهاز المعلومات داهم قبل ساعات أحد فنادق الحمرا وألقى القبض على انتحاريّين اعترفا بأنّهما من أنصار الشّيخ محمود، وأنّهما كانا مرسلين منه لتفجير نفسيهما في حاجزين للجيش اللبنانيّ؟

– لا أظنّ...

تعلو نبرة الدّكتور:

– لا يهمّني ما تظنّ! إنّها الحقيقة!

ثمّ تنخفض:

– بعنادك يا بدر ستجعلني غير راضٍ عنك. أفهم من حديثك أنّك مؤيّدٌ شرس للشّيخ محمود. يحقّ لك طبعًا تأييد من تشاء، في النّهاية أنا أحترم كلّ الآراء وأؤيّد فيها الاختلاف، لأنّ التنوّع دليل صحّي على سلامة الدّيمقراطيّة، لكن حتّى الدّيمقراطيّة تخضع لشروط. فحين تدافع أمامي عن إرهابيٍّ وبكلّ توكيد، لا يعود ذلك حرّية تعبير، بل يغدو وقاحة. وحين تثبت إدانة شيخك، يغدو خيانة. خيانة عظمى!

إرهابيّ؟ خيانة عظمى؟! تموت في بدر كلّ الشّكوك. يتيقّن بأنّ طبخةً سامّة تُطبخ على نارٍ هادئة للشّيخ محمود الذي لا بدّ استدرجوه لفخاخهم وحملوه على الفرار ليغدو مطلوبًا للعدالة. عدالة المنافقين أمثال هذا النّائب أمامه. سؤال مخيف يثب إلى رأسه: أيُعقل أن آكل شيئًا من تلك الطّبخة؟ يأتيه الجواب على لسان الدّكتور عبّود:

– أراك شاردًا يا بدر. أرجو أنّك تعاود حساباتك الآن. غدًا صباحًا، سيزورك في بيتك إعلامي يرافقه مصوّر تلفزيوني. سيقيمان معك حوارًا صغيرًا ويسألانك بضعة أسئلة. لا تخف. سأعطيك أمثلة. سيسألانك عمّ كان يتحدّث الشّيخ في الجامع. سيسألانك إن كان يظهر نزعةً نقلابيّة شرّيرة على النّظام. إن كان يظهر ميولًا إرهابيّة، أو إن كان كلامه يشي بطموحاتٍ دفينة. سيسألانك إن كنت على دراية بالجهات الخارجيّة التي تموّله، من ينظّم تحرّكاته، وكيف يهرّب السّلاح إلى الدّاخل. وأسئلة أخرى مشابهة.

يزدرد بدر ريقه؛ سيشركونني في تحضير الطّبخة.

– وأعتقد أنّك ذكيّ كفايةً، وتهمّك مصلحتك وراحتك وسلامتك و... سلامة عائلتك، لتعرف كيف وبمَ تُجيب. صحّ؟

يستصعب بدر النّظر في عيني الدّكتور الذي نزل للتّو من عينيه. يكتفي بهزّ رأسه مرارًا، علامة الإيجاب المرير، المرغم. يفكّر بأنّ دخوله هذا القصر لم يكن نعمةً، بل ابتلاء.

– سيّد بدر، أعرف أنّ علي وعائشة وسارة وبتول وخليل، بحاجة إلى مصاريف كثيرة هذه الأيّام. لذا أرجو أن تعتبر هذا هديّة صغيرة منّي لأسرتك الجميلة، ربّي يخلّيلك هيِّ.

يفتح الدّكتور دُرجًا، يستلّ ظرفًا متخمًا، ويناوله لبدر الذي يرى أنّه علق بين فكّي كمّاشة ليس سهلًا الفكاك منها.

– ش... شكرًا لك. يكتّر خيرك دكتور.

يبتسم خالد عبّود ابتسامةً صفراء، ساحقًا بقوّة عقب سيجاره:

– لا داعي. يمكنك أن تنصرف.

ينصرف بدر متحسّسًا عنقه. خلف المقود، يشهق، وتكرّ دموعه.

4

باكرًا في الصّباح، تخرج لميا إلى مصطبة الدّار مزدحمة الفكر. الجوّ دافئ والنّسيم عليل، وعبق أصص الغاردينيا المزروعة في تنكات حليبٍ صدئة على جدار الحوض الأماميّ الواطئ يزكّم الأنفاس. إنّه أوّل يومٍ تخرج فيه إلى العيان بحجابها الذي وضعته منذ ثلاثة أيّام. رغم إحساسها بغرابته وبحكّةٍ مزعجة يسبّبها في فروة رأسها، هي مزهوّةٌ به، وتتحرّق شوقًا لمعرفة كيف سيتفاعل النّاس معه لدى رؤيتها. هل سيَرون فيها لميا الجديدة التي قرّرت أن تقوم من تحت الرّدم وتكابر على كسورها لتبدأ حياةً أخرى من الصّفر؟ أم سيُبدون، شأن أمّها، تململهم واعتراضهم، مفسّرين التزامها ضربًا من ضروب الجنون؟ فليقولوا ما يشاؤون. إنّه قرارها، ومهما كان ما ستفعله، فلن تستطيع إرضاء أحد. من اليوم وصاعدًا، ستعمل على إرضاء من كان يجب أن ترضيه أوّل المطاف؛ الله. وحده رضى الله سيجعلها سعيدةً وراضية.

بعباءتها الفضفاضة التي من مخلّفات المرحومة عمّتها، تتهادى حول المصطبة، وكلّها أملٌ بأنّ الله من عليائه يبتسم لكونها تخطو أولى خطواتها في طريق تقويم الفكر والنّفس. ثمّ تشعر بأنّ أملها

تُرجم حقيقةً، إذ يتراءى لها وسط السّماء سربٌ من طيور السّنونو يحلّق على شكل ابتسامة. تملأ رئتيها بهواء السّرور، وترتقي الدّرجتين المؤدّيتين إلى جلّ الدّار. تقطف من شجرة الإجّاص حبّةً كبيرة تمسح عنها الغبار بكُمّها. تقضم طراوتها فيسيل ماؤها طِيبًا عذبًا في فيها، مثلما يسيل الدمع على خدّها لذكرى أبيها. هذه الشّجرة من عطر أبي بدر. من بقاياه. زرعها ساعداه صيف 1989، قبل عامٍ ونيف من رحيله. لم يتسنَّ له تذوّق خيرها. تذكر أنّه زرعها وأشجارًا أخرى لأنّ طبيب السّكري آنذاك نهاه عن الحلويات ونصحه بالاكتفاء بحبّة فاكهة يوميًّا. هكذا صار يأتي كلّ مدّة بنصبة شجرة فواكه مختلفة يزرعها في الجلّ، يقلّم ما ييبس من أغصانها، يرشّها بالمبيدات، ويطعّمها إن أجهضت ثمارًا سيّئة. لكن، إثر رحيله، لم يدأب أحدٌ من العائلة على الاعتناء بالنّصبات. تعاقبت الفصول، والأشجار تموت واحدة إثر أخرى. ماتت العريشة، فالدرّاقة، فالتّفّاحة، فالكرزة. ماتت شابّةً، شأنها شأن أبيها. وحدها نصبة الإجّاص تحمّلت الإهمال وكابدت صيف كفرشوبا الحارق وشتاءه القارس، فكبرت وأورقت وأثمرت بأعجوبة. كأنّما روح أبي بدر سكنتها.

تجرّ الذّكرى معها آلاف الذّكريات، ذكريات جميلة بمعظمها، تجعلها تتحسّر على ذاك الزّمن، تتحسّر رغمًا عنها، هي التي صمّمت أخيرًا على الخروج من عباءة الماضي، الجميل منه والقبيح. حتمًا هي ليست بهذه السّذاجة لتظنّ أنّها تستطيع محو الماضي بسهولة. إنّها تدرك أنّ ذلك مجرّد رجاء، حثٌّ للرّوح على التّزوّد بوقود التّجدّد، ومواصلة الحياة. فالماضي، وإن قرّرت الالتفاف عليه، لن يني يباغتها. سيظلّ مشرّعًا بابه على مصراعيه، مسلّطًا عليها

رياحه. «إنّ لمن الخطأ ما يقال عن الماضي، عن إمكانيّة طمره. الماضي يخلب طريقه إلى الخارج». قرأت ذلك السّنة الماضية في رواية أجنبيّة، تزجيةً للوقت. الآن تلتمس ما تعنيه العبارة فعليًّا. تنتشلها من قعر أفكارها قطّة بيضاء سمينة تثب إلى الجلّ من ناحية منزل جارهم عمر، الرّجل الذي ضحك على ندى وأقام معها علاقةً عابرة، ثمّ غادر إلى غير رجعة. يبدو لها أنّ المنزل ما زال مهجورًا. تتساءل: هل سيعود صاحبه يومًا، ويرى ما حلّ بأختها وحياة بسببه؟ لو يدرى أنّه مهما غاب عن عيون النّاس، فلن يستطيع أن يغيب عن عين الله. لا أحد يستطيع أن يغيب عن عينه؛ ربّ العزّة! من لا يحول ولا يزول! من يسبّح البشر والشّجر والحجر باسمه! مهما استعلى المرء بظلمه، مهما استكبر بجوره، فالله في عليائه دومًا له بالمرصاد. سبحان حكمته. إنّها مؤمنة بأنّ الله سيقتصّ عاجلًا من كلّ الذين ألحقوا بها وبأحبّائها الأذى، من الخبثاء أمثال هلال وعمر. سيجرّعهما كأس المرّ ذاتها التي جرّعاها لها، لندى، لحياة، ولسوسن.

سوسن... أحمقُ من يظنّ أنّ أمّك تحاول أن تنساك. وكيف تنسى الأمّ بعضًا من ذاتها؟ إنّك يا سوسن مقيمةٌ للأبد في الذّاكرة. في الرّوح. في شغاف القلب الموجوع. لكنّ أمّك تؤثر عدم الإتيان على سيرتك. تريد للكلّ أن يتذكّرك بالحسنى. بصورة الفتاة الجميلة، ذات العينين الملوّنتين. أمّا صورتك في ساعاتك الأخيرة، فتريد أن تبقيها لنفسها. لا تريد لأحدٍ أن يتصوّرك غارقةً بدمائك، تئنّين تحت وطأة رصاصة استقرّت في كبدك. لا تريد لأحد أن يأسف على نهايتك. على صباك الضّائع. فوحدها أمّك تعرف إلام آلت إليه نهايتك. وحدها تعرف أنّ صباك لم يضع. خلال الغيبوبة، تأكّدت أين

أنت الآن. وبصحبة من. لذلك فإنّها سعيدةٌ لأجلك. وتتحرّق شوقًا لتلاقيك من جديد، حين تحلّ ساعتها.

تتحوّل إلى الشّرق، إلى جبّانة البلدة التي تبعد حوالى 4 كيلومترات. تبسط يديها وتتلو الفاتحة لروح سوسن. حالما تصل إلى «... مالك يوم الدّين، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» تحاول أن تتمالك نفسها. ستتماسك. لن تبكي. ولن تدعس الجبّانة مطلقًا لئلّا تنهار فوق قبر سوسن المسجّاة تحت التّراب. لا لا لا... سوسن ليست تحت التّراب! التّراب هناك لا يحتضن ابنتها. بل جسدها. وسوسن الآن روح لا جسد. تذكّر نفسها بهذا، فتصحّح وضعيّة جسدها رافعةً وجهها ويديها إلى السّماء، حيث روح صغيرتها. تكمل: «اهدنا الصّراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم...»، ثمّ تمسح وجهها بباطن كفيّها وتمشي بضع خطوات نحو شمال الجلّ. تطالعها واجهة بيت جارتهم زينب البرصاء، ذات الجلد والشّعر والحواجب البيضاء. تراها قرب مدخل المنزل حانية الجذع، منهمكةً في الكناسة. تشعر زينب بأنّها مراقبة، فتلتفت إلى لميا وترمقها بنظرة غريبة. ما عرفتني، تقول لميا في سرّها ضاحكةً على ما سمعته من أمّها وأمّ محمود البارحة.

تعاود النّزول إلى المصطبة لجلب مياه للشّرب. تتناول الدّلو المعلّق بحبل ثخين قرب باب الدّار وتلقي به مقلوبًا إلى البئر على يمين المصطبة. يرتطم الدّلو بسطح الماء ويندفع نزولًا. ينقلب وحده ممتلئًا ويطفو إلى السّطح. تأخذها الحركة بضع ثوانٍ. تعلّمت سرّها على يد أبي بدر. ذات يومٍ طلبت منها أمّها تعبئة قناني الشّرب من البئر. فرمت بالدّلو إلى فم البئر وراحت تترنّح مع ترنّح الحبل بين يديها، والدّلو يأبى النّزول تحت الماء. حرّكت الحبل يمينًا ويسارًا،

نزولًا وصعودًا، بلا نتيجة. رآها والدها فأتى وأخبرها أنّ الأمر، رغم سهولته، يحتاج إلى القليل من الذّكاء. قال إنّ السّر يكمن في رمي الدّلو مقلوبًا، ومائلًا بضع درجات. ومع أرجحة حبل خفيفة، يقوم وحده بباقي العمل. طبّق أمامها الدّرس طالبًا منها إعادة الكرّة. من المحاولة الأولى، أتقنت الصّنعة. لو أنّه علّمها فنّ التّأقلم مع الوجع!

تروح تترحّم على أبيها ساحبةً الحبل خارج البئر. تفرغ الدّلو في مطرة بلاستيكيّة كبيرة تحملها بصعوبة إلى المطبخ. هناك تجد أمّها تغلي القهوة.

– صباح الخير.

تبادر أمّ بدر ولميا تميل المطرة عن حافة المجلى لتفرغها في أباريق الفخّار.

– صباح النّور.

– كيفك اليوم؟

– الحمد لله.

– أريد أن أشرب معك القهوة.

– حسنًا.

تطفئ أمّ بدر النّار تحت الرّكوة. تتناول فنجانين وعلبة بسكويت دبكة تحملها إلى غرفة الجلوس على صينيّة ستانليس ستيل.

تفرغ لميا من تعبئة الأباريق الثّلاثة. تبلّ ريقها من ماء أحدها وتلحق بأمّها.

– اجلسي يا ابنتي. أريد أن أحادثك.

تجلس لميا جنبها:

– أنا أيضًا.

– لم أنم منذ ليالٍ. والليلة الفائتة كنت أفكّر بلا هوادة.

تصبّ أمّ بدر القهوة في الفنجانين. تقول لميا:

– أنا أيضًا أستصعب النّوم. فكّرت ولم أزل. وخلصت إلى أمور كثيرة تتعلّق بعلاقتنا نحن الاثنتين.

تسمع أمّ بدر هذا فتهاجمها أسراب هواجس: ما الذي تقبل لميا على إفصاحه؟ هل سيكون انكسارًا جديدًا لها؟ إخفاقًا آخر يضاف إلى إخفاقاتها كأمّ؟ رجاءً لا تقولي إنّكِ اخترت الابتعاد. برحمة خليل لا تقوليها.

– بـ... بمَ فكّرت يا ابنتي؟

تتناول لميا بسكويتة، تقتطع من جانبها، تغطّس القطعة في القهوة، وتجعلها تستقرّ في فمها مستمتعةً بذوبان الكريما:

– سأترك لك الكلام أوّلًا.

ترتشف أمّ بدر من الفنجان، ثمّ تقول:

– يا ابنتي... منذ أن حدث لندى ما حدث، اجتاحني شعورٌ بغيض بأنّي أخطأت في مكانٍ ما كَأُمّ. بأنّ هناك ثغرةً في تربيتي لكم، أنا غافلة عنها. لكنّي لا أخفي عنك. أقنعت نفسي بأن لا يد لي في فضيحة أختك. قاومت شعور الخيبة معتبرةً أنّ ندى خُلقت لتكون مصدر شؤم لعائلتنا. تصوّري! لكن، عندما تدهور زواجك ولم يعد هناك أملٌ ضئيلٌ بإصلاحه، وعندما صارت صحّتك النّفسيّة في الحضيض، تأكّدت من وجود تلك الثّغرة. من حجمها الهائل. فوجدت حلًّا بديلًا لسدّها، عبر التّقرّب من حياة. لعلّي بهذا أعود وأتقرّب من ندى، كخطوة أولى لإصلاح بيت العائلة. لكنّي كنت أصلح في مكان، وأتسبّب بنشٍّ في مكان آخر. فتقبّلي لحياة حضّ بدر على مغادرتي مع عائلته وشنّ حربٍ باردة عليّ لم تزل قائمة بيننا. ثمّ كان مقتل سوسن وصمت حياة ودخولك الكوما. عندها، أيقنت أنّ

الأوان لترميم بيتنا قد فات. أيقنت أنّي أمٌّ خائبة، فاشلة، لم تحسن التّربية إطلاقًا. ما أقبح أن يدرك المرء متأخّرًا أنّه فشل في العمل الوحيد الذي أسنده إليه القدر. ما أقبح أن يدخل بملء إرادته نفقًا مظلمًا ويدرك أن ليس فيه مخرج!

تجهش أمّ بدر بالبكاء. ينحسر صوتها عن شهقاتٍ عميقة متقطّعة ولا تستطيع مواصلة الحديث. تضمّها لميا إلى صدرها في شيء من التّأثّر، مُربِّتةً ظهرها:

– اهدئي... وحّدي الله...

تستكين حال أمّ بدر. تمسك بيدي لميا رانيةً إلى وجهها المتعب الذي يفاقم الحجاب نحوله:

– اعذريني على ما بدر منّي البارحة. يبدو أنّي لم أتعلّم الدّرس. ما كان يجب أن أزجّ أنفي في شؤونك. الحقّ عليّ. افعلي ما شئت يا ابنتي. ما يجعلك مرتاحةً وراضية. المهمّ ما تتركيني وتمشي. أنا لن أتحمّل رحيلك عنّي.

هنا، تواخذ لميا نفسها. تتساءل، كيف خطر لها أن تترك أمّها وحيدةً وتمضي إلى الحياة الجديدة التي تنشد؟ معاملة أمّها لها البارحة كانت مزعجة، نعم، لكنّ ذاك ليس بالسّبب الكافي لتفكّر بالانتقال إلى بيروت. إلى من كنت ستتركين أمّ بدر ساعة تغادرين؟ إنّها أمّك، أمّك التي مهما فعلت، يجب أن تجثي عند قدميها وتقبّليهما. فطريق الجنّة التي خرجت منها يمرّ فيهما! تستعيذ من الشّيطان سرًّا، وتستغفر الله على ما كانت تنوي فعله دون أن تأخذ في الحسبان أبعاده الوخيمة. ثمّ تقول:

– لن أتركك يا أمّ بدر. أنتِ وحياة وندى كلّ ما بقي لي من بعد الله. حتّى بدر، سأساعدك في تقريب المسافات في ما بيننا وبينه.

إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم. وأنتِ يا أمّي سبق أن بدأت تغيّرين ما بنفسك، مثلما أفعل أنا اليوم. إنّي مؤمنة بأنّ كلّ ما مررنا به هو اختبار لنا. فالله إن أحبّ عبدًا ابتلاه.

– أتمنّى أن يكون ذلك صحيحًا.

– إنّه كذلك فعلاً. أتعرفين لماذا يا أمّي؟ أتعرفين لماذا أحدّثك بكلّ ثقة؟ لا؟ لأنّي رأيت النّهاية. رأيتها بأمّ عيني!

تغشى عينا لميا بقشرة لامعة من الدّمع، وبعد صمت يدوم لحظات:

– المعذرة. لم أخبرك بهذا من قبل. قلت إنّي إن أخبرتك، فستعتبرينني مجنونة. لكن لا يهمّ. سأكون في كلّ الأحوال مجنونةً إن لم أفعل.

ترميها أمّها بنظرات متسامحة، مستدركة، منتظرة:

– أخبريني. سأكون سعيدةً إن فعلتِ.

تفلت لميا يدي أمّها، وتبتسم رانيةً إلى الأفق الأزرق البعيد الذي يلوح عبر نافذة الغرفة المفتوحة:

– لن تتصوّري ما رأيتُ في الغيبوبة يا أمّ بدر. كيف لأحد أن يفعل أصلًا؟ طوال مئة وتسعة أيّام لم أكن ميّتة كما أخبرك الأطبّاء. كنت حيّةً. لا أعلم كيف وجدتني هناك. في ذاك المكان الأبلغ من الوصف. المكان الموعود. ألا تدركين ما أقصد؟ لا؟ الجنّة! نعم يا أمّي، زرتُ الجنّة. جلتُ فيها. في قطعة صغيرة منها، لكي أكون صريحة. ما رأيته هناك لا يصدّقه عقل يا أمّي. يفوق كلّ إبداع. خُضرةٌ على مدّ النّظر. عيونٌ تتفجّر بضربة يد. أنهارٌ تجري بما تشائين. ماء، لبن، عسل، كلّ ما يمكن أن يراود خاطرك. أرائك وأسرّة أينما اخترت أن تَقِيلي. أشجارٌ باسقة تظلّلك كيفما مشيتِ. والبحر! البحر يا

أمّي كان ينبع من السّماء، صافيًا، رقراقًا، حلو المذاق. والنّخيل الرّاقص، والدّوالي الواطئة، والزّيتون، والإجاص، وكلّ ما تشتهين من فاكهة، ثمرة واحدة منها تمدّك بشبع لذيذ لأيّام. والقصور! فارهة متراصّة تناطح السّحاب، مبنيّة من حليٍّ، وتظلّلها على مدار السّاعة أجنحة الحمام. لا ظلام هناك يا أمّي. النّور أبديّ، يخترق الجسد ويجعل ما بداخله مرئيًّا للعيان. أمّا الدّموع... نذرفها لا حين نحزن. الحزن أصلًا لا وجود له هناك. الدّموع تعبير الجسد عن الشّعور بالنّشوة. حين تنتشين، يسيل الدّمع على خدّيك، يتساقط أرضًا، ويتجمّع على هيئة طائرٍ وضّاء، حسن الصّوت، يتجنّح ويحلّق بعيدًا منك. هل أضيف بعد يا أمّي؟ لو بقيت أصف لك ما ينتظرنا في الحياة الأخرى، لاحتجت إلى دهر بِطولِه!

كانت أمّ بدر تنظر إلى لميا متأثّرةً وذاهلةً في آن واحد. ابنتها تتحدّث عن تجربتها العجيبة برباطة جأشٍ لا يستسيغها عقل. فهل تصدّقها؟ هل تصدّق أنّها زارت... الجنّة؟ يحيّرها كلام لميا، يخيفها، ماذا لو سمعها أحدٌ تروي قصّة كهذه؟ ألن يحسبها مجنونة؟ تقلّب بصرها لعدم معرفتها كيف تتفاعل مع هذا الحوار، فتحين من لميا التفاتة مفاجئة إليها، تمسك بذراعيها وتقول بانفعال:

– رأيتها هناك أيضًا! سوسن يا أمّي. سوسن! لم تفارقني روحها لحظةً واحدة. كانت في هيئة عصفور، تحوّم بأجنحة مزركشة حولي، وتحطّ على كتفي حين تتعب. قبّلتها وداعبتها واحتضنتها. مسّدت ريشها. لعبنا وغنّينا وحكينا كثيرًا. أخبرتني أنّها سعيدة هناك، وأنّها ازدادت سعادةً بوجودي المؤقّت معها. طمأنتني. وهدهدتني. قالت إنّ الله لا يريدني أن أبكي على فراقها، لا يريدني أن أبكي على شيء، لأنّه يومًا ما سيجمعني بها مجدّدًا، وإلى

الأبد. كانت سوسن صلة الوصل بيني وبين الله. حين ترفرف عاليًا وتبتعد غائصةً بين الغيوم تجاه النّور المشعّ، نور الله، كنت أعرف أنّها ستعود ناقلةً إليّ أخبارًا كثيرة عن لسانه. أحدها كان أنّه سيعيدني إلى دنياه لأُؤسّس لحياةٍ أخرى أسعد من الأولى. أخبرتني أيضًا أنّ عليّ ألّا أخاف أو أزعل، لأنّ الله سيقتصّ ممّن آذوني. قالت إنّ حياة هلال ستغدو كليلةٍ ليلاء، وصوت حياة سيعلو فوق كلّ الأصوات. لم أفهم ما عنَتْه يا أمّي، ولم يعنِني سُؤْلُها. كنت متيقّنة بأنّ الله سينصفني كيفما جاء حكمه. ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّار﴾. صدق الله العظيم. أما زلتِ غير مصدّقة؟ لا تعرفين؟ طيّب، احزري بمن التقينا إذن. بتوأم ندى. الطّفل الذي وُلد ميتًا في رحمك. سليم، كما كنتما أنت وأبي مقرّرين أن تسمّياه. أصدّقتِ أخيرًا أنّي لا أبتدع أيًّا من هذا؟ أجل يا أمّي، بالطّبع، كان سليم عصفورًا كسوسن. والاثنان يعرف أحدهما الآخر. أتعرفين ما قاله؟ أقسم ليس صعبًا أن تحزري، فأنقياء القلوب كولدينا لا يتحدّثون بشيء غير الحبّ. أخبرني أنّه اغتبط يوم قرّرتِ يا أمّ بدر أن تسامحي ندى على خطئها. قال لي لا تدعي أمّك تيأس من محاولات التّقرّب من أختك، لأنّه ذات يوم ستتعدّى علاقتكما أنتما الاثنتين حدود الأمومة إلى الصّداقة. لم يسعني السّرور خلال المئة وتسعة أيّام يا أمّي. ولا لحظت انتهاءها. مرّت بي كومضة. وها أنا ذا، عدت إلى الدّنيا لأفعل ما أملاه عليّ الله. فهل فهمتِ أخيرًا سبب تغيّري؟

ترتبك أمّ بدر. يساورها شعورٌ مخيفٌ بأنّ الغيبوبة قد ألحقت الأذى بدماغ لميا. قد أتلفت بعض الأنسجة فيه، ما جعلها تتوهّم أشياء لم تحصل. لكنّها سرعان ما تتذكّر أنّ الطّبيب، بعد صور الرّنين

المغناطيسي والتّحاليل المتنوّعة التي أمر بإجرائها للميا عقب استيقاظها، طمأنها أنّ ابنتها على ما يُرام، وأنّه يكفي أن تأكل جيّدًا وتواظب على تناول الأدوية والمكمّلات التي وصفها لها لتستعيد عافيتها كاملةً. إذن، هذا يضع في الواجهة احتمال أن تكون لميا على حقّ. أن تكون تجربتها معجزة إلهيّة أخرى. لكن، ألا يقولون إنّ زمن المعجزات ولّى؟ تفاقم الأسئلة خوفها وارتباكها. ثمّ تستدرك. من واجبها أن تصدّق ابنتها ولو كذبًا. فمعارضتها للميا في ما تقول، أو في ما تريد، يمكن أن تولّد لديها ردّة فعلٍ عكسيّة، ستجعلها تفكّر في الرّحيل عنها، وهذا ما لا تريد هي إطلاقًا. لذا، تلملم شتاتها وتقول:

– يا ابنتي، كان يجب أن تخبريني بهذا يوم أفقت من الكوما. تأكّدي من أنّي لم أكن لأحسبك كما كنتِ تعتقدين. أنا أؤمن بالمعجزات. خالتك حسنا أتاها الرّسول في الحلم بعد عشر سنوات زواج بلا أولاد يقول لها صَبرتِ فَنِلتِ. أفاقت وتقيّأت. أخبرتها القابلة في اليوم ذاته أنّها حامل بتوأم. أؤمن بالمعجزات يا لميا، بلى. وما عشتِه يُعدُّ معجزة!

تضمّ أمّ بدر ابنتها إلى صدرها، جاهدةً في حبس دمعٍ صارخ.

5

إلى طاولة الفطور، يبدو بدر لخديجة ممتقع الأسارير، مهمومًا، يأكل الفول المدمّس الذي يحبّ من يديها بغير نفس. تظنّ أنّ للأمر علاقةً بأمّه أو أختيه، لكنّها تُفاجأ به يدمع عند سؤاله عمّا يشغل باله.

– سأختنق يا خديجة.

تحسّ زوجته بجدّيّة الموقف. تضع كأس الشّاي من يدها على المائدة المستطيلة قائلةً:

– ما بك يا بدر؟ ماذا دهاك؟

يفرك بدر عينيه ويقول بلهجةٍ لا تخلو من ذعر:

– لم أَنَم طوال الليل. لا أعرف ماذا أفعل. الوضع لا يطمئن أبدًا.

– أيّ وضعٍ يا بدر؟ عمّ تتحدّث؟ أخبرني، لقد أخفتني!

يخبرها بدر، متلعثمًا بين الجملة والأخرى، عن الحديث الذي دار بينه وبين الدّكتور خالد عبّود في غرفة الاجتماعات السّرية مساء أمس. يقول إنّه رأى في ملامح الدّكتور شرًّا مستطيرًا لم يره مسبقًا، وإنّه اكتشف أنّ جماعته تخطّط للنّيل نهائيًّا من الشّيخ محمود عبر تلفيق تهمةٍ من العيار الثّقيل له.

– الشّيخ محمود إرهابيّ؟ كيف؟
– كما سمعت إخواني في السّجن يقولون، إنّها تهمتهم الجديدة. قديمًا، كانت العمالة لإسرائيل هي التّهمة الرّائجة. يلفّقونها لأيّ أحدٍ يرون فيه خطرًا على مصالحهم، ليجعلوا منه فزّاعةً تخيف النّاس. والنّاس إن خافوا أحدًا، انقلبوا ضدّه، حاربوه باللسان والأسنان! لكنّ هذه التّهمة بهتت مع الزّمن، إذ صار الجميع يعرف أنّها في معظم الأحيان مجرّد تلفيقة. لذا، ها هم اليوم يستوردون فزّاعةً جديدة من المؤكّد ستخدمهم مدّةً أطول.
– الله أكبر!
– العمى ما أغباني. كنت أعلم أنّ الدّكتور يتّبع خطّهم السّياسي، لكنّي كنت أظنّه مختلفًا عنهم. البارحة تبيّنت أنّي مخطئ. وأنّ إخواني في السّجن على حقّ؛ الدّكتور عبّود تشرّب عقيدتهم. (يتوكّأ بمرفقيه على المائدة، دافنًا وجهه بين راحتيه) تصوّري يا خديجة. يريدون أن أشاركهم في القضاء على الشّيخ.
تفغر خديجة فاها:
– أنت؟ كيف؟
ينزل بدر كفّيه عن وجهه مداعبًا لحيته الكثّة، فتلوح عيناه الغائرتان في يمٍّ من الهمّ:
– بعد ساعة تقريبًا سيأتينا صحافيٌّ من قبل الدّكتور ليجري معي مقابلة، بصفتي كنت مقرّبًا من الشّيخ ومصلّيًا شبه دائم في جامعه. تخيّلي! لم يكفهم الإيقاع به ودفعه للهرب من عدالة الخراء. يريدون تسليط ألسنة رجاله عليه، نحن الذين منّوا علينا بإطلاق سراحنا. سيجعلوننا نكذب لنساعدهم في إظهار الشّيخ كما

يريدون إظهاره أمام النّاس، أي إرهابيًّا يريد إشعال الفتنة الطّائفيّة وجرّ البلاد إلى الخراب، لتأسيس إمارة إسلاميّة.

ترتعش خديجة:

– وهل ستفعل هذا؟

يجيب بدر والكرْب يكاد يبتلع لسانه:

– وهل ترين حلًّا آخر؟

وبعد صمتٍ شنيع يردف:

– كمن يحاول إسكاتي أو ترهيبي، ناولني الدّكتور ظرفًا من المال وصرفني.

تتساءل خديجة بنبرة خفيضة وبؤبؤين متّسعين:

– مال؟ كم قدره؟

– قرابة سبعة أو ثمانية أشهر عمل. لكن ما الفائدة يا خديجة؟ إنّه مال حرام. ثمن سكوتي عن الحقّ وتفوّهي بالباطل!

تطرق خديجة وتروح تعابث الملعقة التي في صحنها:

– وماذا ستفعل الآن؟

– لا أدري.

ينتفض بدر قائمًا عن كرسيّه ويروح يذرع الغرفة بالطّول، قبالة خديجة، منكّسًا رأسه، وكتفيه وأنفاسه، وضاربًا كفًّا بكفّ.

– حقيقةً يا بدر، لا أرى مانعًا من الامتثال لطلب الدّكتور. لا أدري. قد يكون محقًّا.

يتوقّف بدر فجأةً، متحوّلًا إلى خديجة:

– وهل صدّقت أنت هذا الهراء؟

– لم أصدّقه. لكنّه... قابلٌ للتّصديق. لا أعرف. صار عسيرًا على المرء اليوم أن يميّز الصّادق من الكاذب. حتّى الصّادق يمكن أن

يكون في أعماقه وفي ما يضمر بالخفاء كاذبًا، يضاهي بكذبه الكاذب المعروف أشواطًا.

يتوكّأ بدر بيديه على تاج الكرسيّ أمامه:

– ماذا تعنين؟

دون أن ترفع خديجة ناظريها عن الملعقة التي لا تزال تعبث بها:

– أعني... بصرف النّظر عن الحقيقة السّاطعة لجماعة الدّكتور عبّود التي يحاربها الشّيخ محمود، أنت وأنا لا نستطيع أن نعرف ماذا يمكن أن يكون الأخير مخبّئًا. قد يكون كاذبًا يبطن في أعماقه شرًّا أعمى. وقد لا يكون. لكنّي أرجّح... أن يكون. أجل، أظنّ ذلك.

يتحوّل بدر عن خديجة مواجهًا النّافذة المطلّة على شارع دلّاعة، أكثر شوارع مدينة صيدا ازدحامًا:

– إنّ بعض الظّنّ إثم...

– أعلم والعياذ بالله. لكن هذه القصّة بالذّات تحتمل الظّن. ألم تقل لي أنت ذات يوم إنّ الشّيخ ذكر على لسانه شخصيًّا أنّه يتمنّى قيام دولة الخلافة الإسلاميّة؟

– بلى. لكن ليس في ذاك المعنى الأسود الذي تتخيّلين. المعنى الذي فسّره خالد عبّود على هواه، بما يخدم مصالحه. كان الشّيخ يتمنّى رجوع العدل الذي كان يتسيّد تلك الأيّام... لا أكثر!

– لنفترض أنّك في تلك النّقطة محقّ. هلّا فسّرت لي إذن لمَ فرّ الشّيخ إلى مخيّم عين الحلوة تاركًا رجاله يواجهون العدالة وحدهم؟ ألا يمكن أنّه كان بالفعل يخطّط لتفجير البلد؟ لا تستبعد أيضًا أن يكون هو الآخر يعمل لمصلحة النّظام السّوري.

يحدّ بدر بصره:

– لا يمكن. تحليلاتك ليست في محلّها هذه المرّة.

– لا أدري. لا أنا ولا أنت ولا الشّيطان الأزرق ندري. نحن النّاس العاديّين لسنا بدهاء رجالات السّياسة والدّين. الاثنان يحوكان المؤامرات، كلٌّ بتجيير ما يختصّ به لمصلحته؛ السّاسة بتجيير القوانين، ورجال الدّين بتجيير عواطف العباد.

يعاود بدر الاستدارة نحو خديجة، عقله يهضم ما سمع منها للتّو. فجأةً يتذكّر السّبب الذي جعله يتعلّق بها؛ حنكتها. لقد لفتته فيها حنكتها. فُتن بعقلها التّحليلي، بنزعتها القياديّة، بحسّها العالي بالمسؤوليّة، وبسرعة بديهتها. لكن، رغم كلّ ما قالته، لم تنجح هذه المرّة، ولأوّل مرّة منذ بدء زواجهما، في إقناعه.

– كلامك جميل يا خديجة. لكنّ الشّيخ محمود، مثلنا جميعًا، مظلوم ومغلوب على أمره. ولا شيء يمكن أن يزعزع صورته في رأسي. لا هراء خالد عبّود ولا مؤامرات من بظهره. لكنّي للأسف مجبر على السّكوت مؤقّتًا. (يلتفت نحو النّافذة) سامحني يا ربّ. سأسكت ريثما أتأكّد من أنّك والأولاد لن ينوبكم مكروه.

– ماذا قرّرت يعني؟

– حاليًّا، أن أنصاع لعبّود الكلب.

– ولاحقًا؟

– لا أعلم...

يعاجلها وهي مستغربة به. تشعر كما لو أنّ بدرًا جديدًا يولد اليوم. يحثّ خطاه نحو غرفة النّوم. قبل الشّروع بصلاة الضّحى، يروح يردّد في سرّه: «اللهمّ إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس يا أرحم الرّاحمين، يا أرحم الرّاحمين، يا أرحم الرّاحمين، أنت ربّي وربّ المستضعفين!».

بعد حوالى نصف ساعة، يُقرع جرس الباب.

يستعيذ بدر من الشّيطان وقلبه مطرقةٌ في صدره. يطلب إلى خديجة أن تفتح الباب وتُدخل الطّارق الصّالون، ريثما يبلّ هو ريقه بكأس ماء.

– مرحبا.

تفتح خديجة الباب عن رَجُلين، أحدهما يبدو في العقد الثّالث من العمر، والآخر في عقده الرّابع، بيده شنطة سوداء كبيرة الحجم.

– أهلًا.

– لدينا مقابلة مع السيّد بدر خولي. هذا هو منزله، صحّ؟

– نعم. تفضّلا.

تريهما الطّريق إلى الصّالون. يخرج الأكبر سنًّا من شنطته كاميرا يروح يعبث بأزرارها.

– السّلام عليكم.

يدخل عليهم بدر، محاولًا الابتسام.

– وعليكم السّلام.

يقول الرّجلان بصوت واحد. ثمّ يعرّف الأصغر سنًّا عن نفسه:

– أنا أمجد، سأجري معك المقابلة وأطرح عليك بضعة أسئلة.

– وأنا الكاميرامان. نسيم. اسمٌ على مسمّى صدّقني. لن تشعر بوجودي. المؤسف أنّ عليك أن تتحمّل سماجة أمجد لبضع دقائق.

– أهلًا وسهلًا. شرّفتونا. خديجة، اغلي لنا قهوةً لو سمحت.

تهمّ زوجته بمغادرة الصّالون، لكنّ أمجد يستوقفها:

– لا، أرجوكِ. لقد شربنا القهوة لتوّنا.

يزدرد بدر ريقه:

– حسنًا. كما تريد.

يجلس بدر وخديجة على الكنبة الفسيحة، صامتين، يراقبان الرَّجُلَين في تحضيرهما المعدّات من كاميرا ومايكروفون، وفي تشاورهما لاختيار المكان المناسب للتّصوير.

– كلّ شيء جاهز.

يقول أمجد.

– سيّد بدر، أرجوك، اجلس هنا.

يشير المصوّر نسيم إلى الكنبة التي تتلقّى أكبر نسبة ضوء من لمبات الصّالون ومن خارج النّافذة. بمواجهتها يكون قد ثَبّت الكاميرا على حاملة سوداء معدنيّة بثلاث أرجُل.

– أريدك وأنت تجيب عن أسئلة أمجد أن تنظر إليه، لا إلى الكاميرا، اتّفقنا؟

يهزّ بدر رأسه إيجابًا، حلقه جافٌّ، وصدره ما زال ينبض بعنف. يلقي نظرةً سريعة إلى خديجة. يلمحها تقضم أظافرها بترقّب. المسكينة. لا أحد يحسّ به مثلها. واللهِ من الظّلم أن يدخلها معه هذه المتاهة. لكن، ماذا يستطيع أن يفعل؟

– لا داعي للارتباك أثناء الإجابة. هذا ليس بثًّا مباشرًا.

يقول الصّحافي أمجد وهو جلوس على الكنبة الموازية، خارج إطار الكاميرا، وبيديه بضع أوراق يقلّب بها.

– جاهز يا بدر؟ جيّد. 3، 2، 1، go.

يعدّ المصوّر تنازليًّا ويعطي الصّحافي إشارة البدء.

– عرّفنا عن نفسك أوّلًا. اسمك ومن أين جئت.

يجد بدر نفسه يقول بنبرة لا تخلو من ارتباك:

– اسمي بدر خولي، من كفرشوبا.

– ما الذي جعلك تنجرّ خلف الشّيخ محمود وجماعته؟

هيك من الباب للطّاقة؟ مهلًا عليّ!

– بالصّدفة... قبل سنتين، رافقت صديقًا لي إلى جامعه. وأسرتني شخصيّته الفريدة.

– حدّد ماذا تعني بشخصيّته الفريدة؟

– الشّيخ لديه صوت رائع، ومظهر شبابيّ حسن، وخفّة ظلّ، وحضور آسر، وثقافة واسعة لا يُملّ منها.

– سيّد بدر، أنت خرجت في التظاهرة التي أطلقها الشّيخ محمود عبد الأمير، صحّ؟

– نعم. خرجت في تلك التظاهرة.

– ما الذي دفعك إلى الخروج في حراك يدعو إلى الفتنة الطّائفيّة وتخريب البلد؟

هنا، يلوح لبدر من العدم سيجار الدّكتور عبّود، ابتسامته الصّفراء، وضرسه المذهّب. يراوده إحساسٌ مخيف بأنّ الدّكتور، في هذه اللحظات، يشاهد من خلف مكتبه في الطّابق الثّاني هذه المقابلة، منتظرًا إيّاه أن يقع في غلطة صغيرة ليرسل إليه، بإشارة باردة، رجاله الرّعاديد يطلقون بين عينيه رصاصة النّهاية. وفي ذات الوقت، يتخيّل الشّيخ محمود، القابع قسرًا في أحد زواريب مخيّم اللاجئين الفلسطينيّين، المسكين، لا بدّ من أنّه مختنق من الظّلم، من الغبن، من الشّعور بأنّه مكبّل لا حَوْل له ولا قوّة. تُرى ماذا سيكون موقفه حين يعلم أنّ رجاله المقرّبين يختلقون بشأنه كلامًا لا صحّة فيه، هدفه الوحيد النّيل من سمعته، وتاليًا، من حياته؟ لكنّ تهديد الدّكتور عبّود المبطّن لخديجة وعلي وسارة وبتول وخليل وعائشة يكون ذا أثرٍ أكبر فيه، إذ يزيح صورة الشّيخ محمود من الواجهة، دافعًا بدر ليجيب رغمًا عنه:

– يبدو أنّي... أنا وغيري... وقعنا ضحيّة الشّيخ محمود... لم... لم نكن على علم بأهدافه البعيدة.

المغفرة يا الله. المغفرة يا شيخ محمود.

– بالحديث عن تلك الأهداف، ألم يمرّر الشّيخ في خطبه وفي الدّروس الدّينيّة رسائل مبطّنة عن مشروعه؟

– أ... أجل... كان يمرّر.

– حدّث المشاهدين عنها.

– في أكثر من خطبة، كان يدعو الشّباب المتحمّس إلى الثّورة والانقلاب على الوصاية السّوريّة.

– وإلامَ كان يرمي من خلال دعوة الانقلاب تلك؟

– كان يريد قيام الخلافة الإسلاميّة التي ستمكّن المسلمين من تحرير فلسطين.

– ماذا عن النّبرة الطّائفيّة التي كان يتكلّم بها؟

– لم... لم أنتبه إلى أنّ نبرته غدت طائفيّة... إلا في المدّة الأخيرة أقصد... بعد أن تأكّد من أنّ ثمّة أناسًا كثيرين صاروا في صفّه.

– صحيحٌ أنّ الشّيخ كان يدعو إلى الجهاد؟

– نعم... كان يدعو إلى الجهاد، ضدّ إسرائيل. وذكر في إحدى خطبه السّاخنة أنّ الجهاد غير ممكن ما لم تنتهِ الوصاية السّورية.

– بمَ تعلّق على تمرير الشّيخ في مجالسه السّريّة أقوالًا تفيد بأنّه يكره الشّيعة والمسيحيّين ويريد تنظيف البلد منهم؟

– صرّح... صرّح أخيرًا بذلك... كذا مرّة خلال اجتماعاتنا السّرية.

– وماذا تعرف عن مصادر تمويله بالمال والأسلحة التي اشتبك بها مع رجال الأمن، والتي وجدت مخازنها في جامع جعفر بن أبي طالب؟

– المتبرّعون لتمويل تحرّكاته كانوا من المتردّدين إلى الجامع. لكن، أظنّ أنّي سمعت أنّ مصادر خارجيّة تموّله. أمّا بالنّسبة للأسلحة، فقد كانت تأتينا من الخارج، عبر وُسطاء.

أيّتها الأرض، أما آن أن تنشقّي بعد؟

– إذن كيف تعلّق على ما حدث يوم التّظاهرة؟

– كانت تسير على ما يرام، وفجأةً اشتدّ عصب الجميع فاستحالت خرابًا.

– أثناء التّظاهرة، أطلق رجال الشّيخ، مدفوعين بالكراهية وحبّ الفتن، النّار على الجيش ورجال الأمن، وخرّبوا المحالّ ونهبوها، كيف تعلّق؟

يحسّ بدر بضغط هائل على رئتيه. أسئلة الصّحافيّ السّريعة والمتواترة لا تترك له حيّزًا للتّنفّس. كان الكلام يخرج من فيه متقطّعًا، موزونًا بين ما يمكن أن يرضي ربّه، وما يمكن أن يرضي ربّ عمله. إنّها المرّة الأولى التي يوضع فيها في موقف قبيح كهذا. يشعر كما لو أنّه في مدرسة، أمام امتحانٍ سيقرّر مصيره، هو الذي ترك المدرسة باكرًا، مدفوعًا بكرهه للأساتذة والنّظّار والعلم والامتحانات. فهل سينجح الآن؟

– أنا عن نفسي فوجئت بالفوضى التي اندلعت. صار هناك إطلاق رصاص كثيف واختلط الحابل بالنّابل.

– وهل أطلق المخرّبون الرّصاص على رجال الأمن؟

– لـ... للأسف... أُطلق الرّصاص على الجيش والأمن وعشوائيًّا في الهواء. وللأسف فقدنا عنصرين من الجيش وقوى الأمن الدّاخلي.

– قيل إنّ إطلاق الرّصاص على الجيش ترافق مع صرخات «الله أكبر» و«لعنك الله يا جيش الصّليبيّين»؟

– أ... أجل... سمعت بعضًا من تلك العبارات.

– نعود إلى الشّيخ، هل أنت نادم اليوم لأنّك مشيت خلف جماعة محسوبة على القاعدة؟

– بالطّبع... نادم. أشعر بـ... بالغبن. كنت معميّ البصر عندما دخلت هذا الجحر. وحمدًا لله أنّي فتّحت عينيّ على الحقيقة. الله أكبر على الظّالمين.

– هل سمعت بخبر إلقاء القبض على الشّابّين اللذين عُثر بحوزتهما في الفندق الذي يمكثان فيه على متفجّرات وأسلحة كانا سيستخدمانها في تفجيرات إرهابيّة متنقّلة؟

– نعم سمعت. وسمعت أنّهما على صلة بالشّيخ محمود. تبًّا له. لقد لوّث سمعة الدّين بأفعاله.

– كيف هرب الشّيخ؟ وهل لديك معلومات عن مكان وجوده الحاليّ؟

– هرب في سيّارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني. يقال إنّه هرب إلى مخيّم عين الحلوة في صيدا. لكنّي لا أدري مدى دقّة هذه المعلومات.

– من برأيك أمّن له الحماية خلال فراره؟ ومن يؤمّن له الحماية حيث هو حاليًّا؟

يودّ بدر لو يقول: «الله». لكنّ صوت النّائب خالد عبّود الذي يفوق صوته جهوريّةً يمسكه من لسانه، فيجيب:

– لا بدّ أمّنت القاعدة له الحماية للفرار، وتؤمّن له الحماية داخل مخيّم عين الحلوة. فالمخيّم تستشري فيه الجماعات الإسلاميّة

التّابعة بطريقة أو بأخرى لأجهزة القاعدة.

– هل هناك من شيء تودّ إضافته؟

– لا... نعم... أودّ أن أشكر الدّكتور النّائب خالد عبّود الذي آمن ببراءتنا أنا وغيري عندما كنّا رهن التّحقيق، فدفع بقضيّتنا إلى الأمام لنخرج بسرعة إلى حرّياتنا. كلّ الشّكر له ولأمثاله من حماة الوطن.

تنفرج أسارير بدر لحظة تنتهي المقابلة. يعبّ نفسًا عميقًا، ويلتفت إلى خديجة ليتبيّن ردّة فعلها، بينما الصّحافي والمصوّر يوضّبان المعدّات لتصوير مقابلات كهذه مع سجناء آخرين أفرج عنهم. كما كان متوقّعًا، تهزّ له خديجة رأسها علامة الرّضى الحذر. يبتسم لها، لكن سرعان ما ينقضّ عليه تأنيب الضّمير، فينهشه.

6

تمضي تسعة أيّام على وصول ندى وحياة وكريم وماريبيل إلى ولاية بنسلفانيا في الولايات المتّحدة الأميركيّة. كان كريم هو من قام بكلّ الإجراءات اللازمة تمهيدًا لهذه السّفرة؛ تواصل مع المركز التّخصّصي للصّمت الانتقائي بالتّنسيق مع طبيب حياة في لبنان، أجرى المعاملات الرّوتينيّة الواجبة لدى وزارة الصّحّة والسّفارة الأميركيّة، اهتمّ بشؤون جوازات السّفر وتأشيرات الدّخول، وحجز شقّة قريبة من المركز تبلغ من المساحة 100 متر مربّع، نزلوا فيها فور هبوط الطّائرة في بلاد العمّ سام. كلّ هذا تمّ بينما كانت ندى منهمكة بأشياء أخرى، كترقّبها للقاء عمر، وتخطيطها المستمرّ للانتقام منه، وتمضية الوقت في المستشفى مع لميا التي أفاقت أخيرًا من الغيبوبة. حقيقةً، كانت تودّ لو تستطيع البقاء بضعة أيّام إضافيّة في لبنان بجانب أختها الصّغيرة، إذ لم تكفِها الأيّام الخمسة التي أمضتها معها في المستشفى للتّعبير عن مدى حنينها إليها، ولا تسنّى لها إخبارها بكلّ ما حدث خلال رقدتها الطّويلة في العناية المشدّدة. لكن لا بأس. من جهةٍ، هي مطمئنّة إلى أنّ أهمّ ما كان يجب أن يُقال قد قيل، وأنّ صفحةً جديدة قد فُتحت بينهما.

ومن جهة أخرى، إنّها متلهّفة لشفاء حياة، وتنتظر على أحرّ من الجمر سماعها تتكلّم. وقد وطّد أملها بهذا الاختصاصيّ النّفسي ذو الأصول المصريّة الذي التقته في هذا المركز. في اليوم الأوّل رافقها وكريم في جولة على المكان، أخبرهما خلالها عن حيثيّات العلاج، وشرح لهما مفصّلًا عن الطّرق العلاجيّة المتّبعة والمطوّرة من قبل اختصاصيّين أميركيّين وبريطانيّين ويابانيّين، والتي تتيح للطفل، عبر العمل على خفض قلقه الاجتماعيّ وزيادة ثقته بنفسه، أن يتفاعل تدريجًا مع من حوله. من بين هذه العلاجات تقنيّة يستخدم فيها الطّفل كُروتًا ملوّنة عليها كلمتا نعم ولا، يرفع أحدها للإجابة عن أسئلة الطّبيب المعالج بحضور من انتقى الصّمت أمامه. وفي تقنيّة أخرى تدعى «سلايدنغ إن»، يُدرَّب المريض على الحديث أثناء ممارسة هواية أو لعبة يهواها. كما تُرتّب في المركز لقاءات بين الأطفال المصابين ليصبح اندماج بعضهم ببعض خطوة أوّليّة لاندماجهم في المجتمع، وبموازاتها تُرتّب لقاءات بين أهل الأطفال المصابين ليتشاركوا تجاربهم ويؤازر بعضهم بعضًا في محنتهم. فضلًا عن ذلك، عرّفها إلى فريق عمله المؤلّف من عالمة في النّفس السّلوكي ومساعدين آخرين صحّحوا لديها بعض المفاهيم المغلوطة الشّائعة عن المرض، أهمّها كان أنّ صمت المريض ليس خياره، بل إنه يتمنّى الكلام في مواقف معيّنة لكن عبثًا. بمعنى آخر، طبيعة المرض لاإراديّة، على عكس ما قد يظهره المريض. كذلك أخبروها أنّها هي وكريم جزء أساسيّ من العلاج ما دامت حياة تعيش الآن تحت جناحيهما، ما يستوجب حضور كليهما بجانبها في معظم الجلسات. وقد بدأت تلك الجلسات المشتركة على قدمٍ وساق منذ بضعة أيّام، كما بدأت لقاءات الأهل التّعاضديّة

(support groups) التي أمدّت ندى بأمل مكين، وأكّدت لها أنّها ليست الوحيدة في هذا العالم التي تنحرها أنظار ابنتها وصمتها المرعب.

7

شمسٌ أخرى تلوح ساطعةً في سماء الجنوب، مجتذبةً إلى حبال أشعّتها أسرابًا من الطّيور تستعرض حركات بهلوانيّة متقنة. ونسيمات دافئة تتزلّج على منحنيات جبل الشّيخ، حاملةً معها روائح بساتين وكروم عطرة، تتسرب إلى منازل القرية من شبابيكها المفتوحة.

للصّباحات الحزيرانيّة في كفرشوبا سحرٌ لا يُضاهى. لا يعرف قيمته سوى من يفيق باكرًا، قرابة الخامسة، ويصلّي ركعتين في الخارج، حافيًا، على باطون مصطبة الدّار المحتفظ ببرودة الليلة السّابقة، ظهره للسّاحل وخنقة مدنه، ووجهه لجبال لبنان الشّرقيّة المعانقة للسّماء، ثمّ يشرب القهوة محلّاةً بصوت فيروز ينساب من فم راديو ترانزيستر أكل عليه الدّهر:

واللوزة والأرض وسمانا
هاو هِنّي بلدنا وهوانا
وزهر الإيّام البخيلة
حبيبي، احكيلي

لمثل هذه الصّباحات قُدسيّة لدى لميا. كانت تتشاركها والمرحوم والدها قبل أن يغادر إلى عمله في محلّ الخياطة الذي يملكه في البلدة المجاورة، والذي باعته أمّها قبل عامين بناءً على طلب بدر، فوسّعت بثمنه دكّان السّمانة المتواضع القريب من البيت والذي يلقى إقبالًا جيّدًا، خصوصًا في هذا الفصل، فصل الصّيف، حين يتوافد المغتربون إلى القرية للاصطياف. وها هي ذي، بعد أربعة عشر عامًا في بيت الزّوجيّة، قد عادت إلى دار العائلة لتستعيد تلك الطّقوس، لكن هذه المرّة مع أمّها التي تقرّبت منها مجدّدًا.

إنّها بالفعل سعيدة بالوقت الذي تمضيه وأمّ بدر. الأيّام تمضي والمسافة بينهما تتضاءل. باتت اليوم متيقّنة بأنّ أمّها لن تقف عثرةً في طريقها، وأنّها فهمت أخيرًا سبب تطلّعها إلى التّغيير الشّامل في حياتها، والدّليل ما فعلته البارحة، حين دخلت غرفتها على غفلة:

– لملوم!

قبّلت لميا دفّة القرآن. وضعته جانبًا.

– أمّي، تحجّبتِ؟ ما عم صدّق عيوني!

دارت أمّ بدر حول نفسها.

– ها، ما رأيك؟ أيليق بي؟

– لقد صنع لأجلك. قمر والله.

عاجلتها دمعة فرح، فقامت تضمّ أمّها إلى صدرها، ثمّ قالت:

– لكنّ الحجاب لا يكفي يا أمّي. ارجعي إلى الصّلاة، وري كيف سيتجدّد صبا قلبك.

– حبّة حبّة يا لميا.

ضحكتا معًا.

واليوم، تصلّيان الفجر كما اتفقتا معًا، حافيتين على المصطبة، وتشربان القهوة الـمُرّة على موسيقى فيروز.

ثمّ تجذب أمّ بدر يد ابنتها وتقول:

– احزري ماذا سنفعل الآن؟

يستعصي على لميا أن تجد جوابًا.

– ليل البارحة حضّرت العجين، والآن سنخبز كلتانا على الصّاج. انتظريني.

تهرع أمّ بدر إلى المطبخ. تأتي بجاط العجين مغطّى بكيس نايلون أسود.

– اتبعيني.

تلحق لميا بها إلى الجهة الخلفيّة للدّار. تدخلان غرفة الـخَبز المبنيّة والمسقوفة بـ أترنيت فضّي يخترق أحد جوانبه قسطل عريض لتصريف الدّخان. تستلّ أمّ بدر كذا حطبة من الأكوام المرصوصة جانبًا بإتقان، تلقّم بها بطن الصّاج الأسود، تضخّها بالمازوت من قنّينة صفراء متّسخة، وترميها بكبريتة مشتعلة. تهبّ النّار تحت قبّة الصّاج، حمراء صفراء جائعة، وتعاود أمّ بدر تلقيمها بقطع الجفت، أي نفاية حصاد الزّيتون، المنقوعة مسبقًا بالمازوت.

– ياه. ذكّرتِني بأيّام الطّفولة.

تبتسم لميا، فيما الماء الذي ترشّه أمّها على الصّاج لتنظيفه يبقبق، فينفلش، فيتبخّر.

– من المؤكّد أنّ ندى تعلّمت الخبز منك.

بلهجة لا تخلو من أسى:

– كانت تبلغ ثماني سنوات حين علّمتها. وفي ما بعد ضاهتني مهارةً. رزق الله على هيديك الأيّام.

تفرد أمّ بدر حرامًا مطويًّا أمام الصّاج. تجلس ولميا عليه.

– أذكر كيف كنت أجلس هنا بقربها، مأخوذةً بخفّة يديها في تلويح العجين. لم تكن تدعني أقترب من النّار. ولم تكن تدعني أساعدها. كانت تعطيني عجينةً أروح أعابثها وأمطّها في كلّ اتّجاه حتّى تتّسخ ويعلق بها التّراب والغبار. وحين ينضج أوّل رغيف، كانت تمرغ عليه اللبنة طالبةً إليّ أن أنده لبدر لأقتسمه معه.

تقتطع أمّ بدر كتلةً من العجين المختمر في الجاط جانبها. تروح تفردها بطول أصابعها على طبليّة ترشّها بالطّحين.

– كنت ظالمة بحقّ ندى، أليس كذلك؟

تكون لميا غارقةً في بحر ذكريات ورديّة، فلا تسمع.

– لا داعي لأن تجيبي. لم أكن أسأل أصلًا. أعلم أنّي ظلمتها. أكثر منك بعد.

فور أخذ العجينة شكل دائرة متوسّطة القطر، تروح أمّ بدر تلوّحها بين يديها، حتّى إذا كبُرت ورقّت، تنقلها برشاقة إلى الكارة، أي الوسادة الدّائريّة المشبّكة بالصّوف، وتشدّها من الأطراف لتتمدّد أكثر، ثمّ، بالرّشاقة ذاتها، تطبّ الكارة فوق صدر الصّاج السّاخن، لتلتصق به العجينة.

– ها، ما رأيك بالرّغيف الأوّل؟

كانت لميا قد عادت إلى الواقع، فتقول مبتسمةً ورائحة استواء العجين تدغدغ خياشيمها:

– شي بيشهّي!

– لم أنسَ إحضار اللبنة والنّعنع. أعرف أنّك تحبّينها على المرقوق الطّازج. خذي.

تناولها أمّها عروق النّعناع ومرطبان اللبنة المدحرجة المنقوعة بزيت الزّيتون. تأخذ لميا منه كرة لبنة تمرّغها على الرّغيف الذّهبيّ حالما ينضج.

– الله لا يحرمني من إيديك.

لفرط جوعها، تنهي لميا رغيف اللبنة والنّعناع في دقيقتين.

– فطست!

تهتف أمّ بدر مع تلويح الرّغيف العشرين. العرق يزرزب من جبينها. تناكفها لميا:

– لا تقولي إنّك ستخلعين الحجاب الآن!

تضحك أمّها:

– نعم سأخلعه. وْهِهْ.

بحركة واحدة تنزع الحجاب عن رأسها. تضحك لميا:

– ماذا لو أطلّ علينا أحد فجأةً؟ أصلًا أنت تريدين حجّة من غيمة كي تخلعيه.

– يا عمّي شو بعدني على باب زيجة؟ هرهرنا يا لميا خلص ما عاد حدا يقشعني.

– الشّغلة مش بالعمر يا إمّي. الشّغلة مبدأ.

– آخ. ليتهم يرأفون بحالنا نحن النّساء ويصدرون فتوى للبس الحجاب شتاءً وخلعه صيفًا. صدّقيني، سترين المحجّبات في لبنان بالملايين.

لا تتمالك لميا الضّحك من جديد:

– على أساس إنّو الحجاب موسمي؟

– دخيل الله! يا ريت لبسته بالشّتا كنت هلّأ تعوّدت.

– كم يوم بعد وبتتعوّدي.

– الله يسمع منّك. يلّا خذي هذه العجينة. ليس عادلًا أن أتعرّق وحدي.

– لكنّي لا... لا أعرف ماذا أفعل بها.

– لا تتكاسلي. الأمر سهل. كمّا علمت أختك، سأعلّمك.

لا تكاد أمّ بدر تنكبّ على تعليم ابنتها فنّ الخَبز المتوارث عن جدّاتها، حتّى يترامى إليها صوت مألوف ينادي عليها.

– لميا، هل سمعت؟

– أظنّ أنّها إحدى الجارات. انتظري لأرى.

ما إن تهبّ لميا واقفةً حتّى ينزرع على باب الغرفة صبيّ في السّادسة أو السّابعة من العمر، تهتف أمّ بدر بابتسامة غامرة لرؤيته:

– خليل؟! ريتها تقبرني هالطّلّة. اشتقتلّك يا عمري.

تلقي ما في يديها جانبًا، وتهرع نحو حفيدها تمطره بالقبل.

– حبيبي تعال، تذوّق خبز جدّتك.

تستلّ رغيفًا ساخنًا تناوله إيّاه. تخرج الكلمة من فمه الصّغير خجولة:

– شكرًا.

– لا أصدّق عينيّ. القلوب عند بعضها يا لميا.

تتبادل أمّ بدر ولميا نظرات سعيدة وابتسامات عريضة. تطفئان النّار، تغطّيان الخبز بحرام رقيق، ثمّ تعودان مع خليل إلى مصطبة الدّار.

– سارة! بتول! عائشة! علي!

تندفع أمّ بدر نحوهم. تضمّهم بلهفة. تقبّلهم حفيدًا تلو الحفيد. أمّا لميا، التي لم ترَهم منذ حوالى ثلاث سنوات لقطع بدر علاقته بها، فتبادلهم سلامًا وقُبلًا أخفّ حرارة من قُبل أمّها.

– خديجة... كيفك؟

كانت خديجة، بهامتها الوسيعة وقامتها الطّويلة، واقفةً على مسافة من الجميع، أعلى الدّرج المؤدّي إلى بوّابة الدّار، بحجاب أسود مخطّط، وقميص طويل الكُمّين، وبنطلون أبيض فضفاض، تنظر إلى مشهد الشّوق المتبادل بين أولادها وعمّتهم وجدّتهم، بشبه ابتسامة.

– الحمد لله يا أمّ بدر.

تغتنم أمّ بدر الفرصة التي تنتظرها منذ سنوات، والتي جاءت اليوم من تلقاء نفسها، وتهرع إلى زوجة ابنها تضمّها، بصدر رحب تاق كثيرًا لتشريع أبواب الحبّ غير المشروط:

– أقسم بالله أنّك نوّرت الدّار. لكن أين بدر لا أراه معك؟

تكرّ دموع خديجة بسخاء. وجهها الأسمر تائه، متعب الملامح.

– خديجة ما بك؟ لقد أخفتني. أأصاب بدر مكروه لا قدّر الله؟

لا تكاد خديجة تنهار بين يدي أمّ بدر، حتّى تطلب لميا من الأولاد جميعًا الدّخول إلى الدّار وإدخال الخبز إلى المطبخ.

– تنفّسي يا خديجة واهدئي. تعالي هنا. اجلسي.

تتساعد لميا وأمّ بدر في جرّ خديجة إلى أقرب كرسيّ على المصطبة. تجلسانها عليه، وتجلسان كلٌّ إلى جانب تهدّئان من روعها.

– وحّدي الله يا خديجة وخبّرينا. شو صار؟

تقول لميا بلهجة متّزنة. تلملم زوجة أخيها أنفاسها ودموعها وتقول:

– إنّي خجلى منك يا أمّ بدر. ومنك أنت أيضًا يا لميا. ليست لديّ الجرأة للنّظر في عيونكما.

– لا بأس يا ابنتي. كلّ ذاك صار ماضيًا. الأهمّ هو اليوم.

– أمّي محقّة يا خديجة. المهمّ أن تصفو القلوب، ونرجع عائلة واحدة.

– أتمنّى أن تعذرا حماقتي. لم أكن لطيفة معك يا أمّ بدر، أدرك ذلك. وأنت يا لميا، أرجو أن تسامحيني لأنّي لم أكلّف نفسي عناء الاتّصال بك في محنتك.

تعاود لميا وأمّ بدر طمأنتها. تخبرانها أنّهما كانتا ستتّصلان قريبًا ببدر لتزوراه في صيدا كخطوة أولى لإعادة لُحمة العائلة، لكنّ أمّ بدر لا تتمالك قذف السّؤال العالق على باب مريئها:

– لم تقولي لي أين بدر؟ لـمَ لَـم يأتِ معك؟

بعينين مغرورقتين، وصوت متهدّج:

– بدر في السّجن...

– ماذا؟

تفغر أمّ بدر فاها. تسأل لميا:

– سجن؟ منذ متى؟ ولماذا؟

– صدرت بحقّه مذكّرة توقيف يوم الجمعة. من أربعة أيّام. القصّة طويلة ومعقّدة. ولا أعرف غيركما أحدًا ألجأ إليه.

– ماذا ارتكب ابني ليدخل السّجن؟!

– ابنك لم يرتكب شيئًا. أدخلوه السّجن ظلمًا.

– أدخلوه؟ من هم؟ احكي يا خديجة!

– سأحكي. لكن أريد أن أبلّ ريقي. حلقي جافّ مذ استقللت والأولاد التّاكسي من صيدا.

تهرع لميا إلى المطبخ. تعود بإبريق ما إن ترتوي منه خديجة حتّى تطفق تروي تفاصيل قصّة بدر بأسى يتفاقم.

– قبض عليه أوّل مرّة بسبب المتأسلمين الخارجين عن النّظام ثمّ خرج سريعًا بكفالة. والآن هو خلف القضبان مجدّدًا بتهمة الإرهاب. يا عين. كلّ هذا يحدث مع ابني، وأنا ما عندي خبر؟

تضع أمّ بدر يدها على خدّها. تسرح بنظرها بعيدًا نحو سهل الخيام. تحسده على انبساطه. تودّ لو يداري حالها. لو يرأف بصدرها الذي أَوْعَر به الزّمن.

– أفهم من كلامك أنّ أخي صار رجلًا آخر. غريب كيف لحدث واحد أن ينفض الإنسان نفضًا.

تسمع لميا جملتها الأخيرة فتتذكّر نفسها. بدر ليس الوحيد الذي تغيّر على نحوٍ هائل. هي أيضًا فعلت.

– لم أدع أحدًا إلّا هاتفته. لا قريبًا ولا صديقةً ولا جارًا. لكن دون جدوى. حتّى إنّ بعضهم أقفل الخطّ أو الباب في وجهي. لم يبقَ لديّ أحد غيركما. ضاعت منّي كلّ السُّبل. قولا لي ما العمل؟ من يستطيع تخليصنا من هذه المصيبة؟

تتبادل لميا وأمّها نظرات يشوبها اضطراب ورهبة. تبعثران أمامهما كلّ الأسماء التي تعرفانها، التي قد تمونان عليها، ربّما تكون على معرفة بأحد يعرف أحدًا لديه معارف ذوو صلة بالرّؤوس الكبيرة والأيدي الطّويلة التي تستطيع إطلاق بدر لحرّيته بمهاتفة واحدة. وبعد لحظات من التّفكير ومصمصة الشّفاه وقضم الأظفار جماعيًّا، تهتف لميا:

– ندى وكريم! كلاهما لديه علاقات، ويمكن أن يساعدانا.

لا ترى أمّ بدر بدًّا من إعادة لميا إلى الأرض:

– لا أعتقد أنّ ندى ستساعدنا... أنت تعرفين...

تساندها خديجة:

– أمّك محقّة. أنا شخصيًّا أستبعد ذلك.

– لا تقلقا. أنا واثقة بأنّي سأجعل أختي تلين تجاه بدر. صدّقاني.

تتململ أمّ بدر وخديجة، غير واثقتين بكلام لميا. فمن جهة، لم تشهد أمّ بدر حتّى اللحظة بوادر إيجابيّة في معاملة ندى لها، إذ إنّ الأخيرة لا تني تحكيها بذات اللهجة النّاشفة والقاسية، وحين تتّصل من أميركا، تلقي سلامًا باردًا متجهّمًا عليها، وتطلب على الفور محادثة لميا. ومن جهة أخرى، خديجة مستبعدة كلّيًا احتمال أن تمدّ ندى يد العون لبدر.

لكنّ خديجة وأمّ بدر ليس لديهما حاليًّا حبل نجاة آخر ينتشلهما من هذا المأزق. لذا فإنّهما مستعدّتان لأن تتعلّقا بقشّة. أيًّا كانت اليد حاملتها.

8

قبل نحو ساعتين، على متن الحافلة التي تقلّ الأطفال المرضى وأهاليهم في رحلة ميدانيّة حول مدينة فيلادلفيا، لحظت ندى رقم منزل أهلها مكرّرًا تسع مرّات في قائمة المتّصلين على جوّالها. أخافها الأمر، فعاودت طلب الرّقم. جاءها صوت لميا من الرنّة الأولى:

– أينك لا تردّين؟ من العصر وأنا أتّصل بك!

– المعذرة لميا. كان تليفوني سايْلِنْت.

– أرجو ألّا تكوني مشغولة. الأمر خطير.

– أأنت بخير؟

– نعم بخير. أمّي كذلك، إن كان يعنيك أمرها.

– إذن؟

– بدر. بدر يا ندى دخل السّجن، دخله زورًا أقسم بالله، وأتمنّى أن تساعديه ليخرج.

– أخوك؟ في السّجن؟ هِهْ!

– أتشمتين؟ عيب يا أختي. مهما حدث، بدر أخونا من لحمنا ودمنا.

– لحمنا ودمنا؟ أختي، أتتحدّثين عن ذات الأخ الذي زارك في المستشفى مرّتين فقط؟ ماذا حلّ بعقلك؟

– لم يحدث شيء لعقلي. أقسم. لكنّ قلبي تبدّلت دماؤه. أودّ بالفعل تقريب المسافات في ما بيننا. أختي، أيصحّ أن نظلّ غرباء؟ عائلتنا جميلة، لكنّنا نحن من قبّحناها. أمنيتي الوحيدة أن أرانا مجتمعين من جديد. كما في الماضي. نتدفّأ حول الصّوبية، كتفًا بكتف، نتسامر ونقهقه ونشوي البطاطا الحلوة ونشاهد الأفلام المصريّة.

– يا لَهْوي! اقشعرّ بدني. دمعت عيناي. لملوم أفيقي من وهمك. منذ متى كنّا عائلة؟ شكلك نعسانة.

– أنت تذكرين حتمًا لكنّك لن تتجشّمي الاعتراف. اسمعي. ليس لدينا أحد غيرك يستطيع مساعدتنا. أنت وكريم لديكما علاقاتكما. إن كنت عزيزةً لديك، فلتساعديني. أرجوك أختي. أيهون عليك أن تردّيني خائبة؟

صمتت ندى. التفتت إلى يسارها، فاحتكّت عيناها بعيني كريم المتسائلتين. ثمّ اختلست نظرةً خاطفة إلى المقاعد الخلفيّة، حيث حياة وعدد من أصدقائها الجدد منزوون، يتحادثون بصوت خفيض كالهمس، كما لو أنّهم أشباح في جلسة فائقة الخصوصيّة.

– لميا يجب أن أعرف أوّلًا كيف دخل أخوك السّجن.

– كنت أعلم أنّك لن تخيّبي أملي. أحبّك ندّوش.

ابتسمت ندى ملقيةً بنظرها خارج زجاج الحافلة، ومرهفةً السّمع إلى رواية أختها لقصّة بدر بتفاصيلها المتشابكة. ثمّ، ما إن ترامى إليها اسم خالد عبّود، حتّى انتابتها مشاعر وأفكار متضاربة، عاودت إشعال حطب الانتقام في موقد ذهنها.

والآن، في هذا المتنزّه الأخضر الذي ترجّل إليه الجميع لتناول الغداء، ما زالت تستحضر وتحلّل ما سمعت؛ يا لمحاسن الصّدَف. كان بدر يعمل لدى غريمها إذن، حارسًا لقصره فحارسًا شخصيًّا لابنه. حقيقةً، طوال تلك المهاتفة لم تُعِر أهمّية لمعرفة أنّ أخاها التزم دينيًّا، فتظاهر، فأُوقف، فأُطلق سراحه بكفالة، فأُرغم على الظّهور والكذب في مقابلة، ثمّ اعتُقل، بقدر ما اهتمّت بأنّ خالد عبّود محرّك أساسيّ لمجريات القصّة.

– ندى، ألن تأكلي؟ (ينتشلها سؤال كريم ولَكْزتُه من قعر ذهنها) ما الذي قالته لميا جعلك تشردين هكذا؟

– القصّة طويلة كريم. سأخبرك عندما نعود إلى البيت.

يهزّ كريم رأسه بشيء من الاستسلام. ثوانٍ وينسى. يعود يمازح الأهالي حول الطّاولة. يحدّث صديقهما الجديد برايان أوبري بفخر عن الكبّة اللبنانية. يخبره أن لا مجال للمقارنة بينها وبين طبق الهامبرغر الذي جاء به النّادل. في هذه الأثناء تكون ندى صابّةً جامَّ تركيزها في كأس مشروبها الغازيّ. تأسر الفقاقيع أفكارها. معها تطير بعيدًا عن أجواء الجلسة...

مكالمة لميا جذبت إلى الواجهة حبشتين مكتنزتين ستنال منهما بحصوة؛ أوّلهما إطلاق حرّية بدر كرمى للميا فقط، وثانيهما ردّ الاعتبار لنفسها، بتخويف عمر والكذب عليه. أمّا الحصوة فاتّصال واحد بغريمها القذر. أخيرًا ستردّ لعمر الضّربة ضربتين. لن تنتقم منه وحسب، لأنّ الانتقام كان لا بدّ سيحدث، مع اتّصال لميا أو بدونه. بل ستتلاعب به. ستشعره بأنّه لا شيء، مجرّد إنسان تافه وسهل ينضحك عليه. كيف؟ ستهدّده بشكل غير مباشر، إن لم يُخرج أخاها من السّجن، فستخرج هي إلى وسائل الإعلام وتنشر غسيلهما

النّتن. حدسها يخبرها أنّه اتّقاءً للفضيحة سيُحشر في خانة اليك ويرضخ. السّاسة أمثاله لا بدّ يخشون الفضائح، ولا سيّما إن كان أبطالها معروفين بين العامّة. بعدها ستفرح لميا وتهلّل أمّ بدر. لكن، ما لن يدرك الأحمق هو أنّها في كلّ الأحوال ستظهر عمّا قريب في مقابلة تلفزيونيّة وتفضح، فضلًا عن علاقتهما، بعض ما وقعت عليه من أسرار تخصّه، أسرار لا كتلك السّطحيّة التي تنبشها الصّحافة الصّفراء، بل أعظم. أسرار في غاية الخطورة، وكلّها موثّقة بالأدلّة والحقائق. مثلما أوقع بها قبل أربعة عشر عامًا، ستوقع به. ستنزل إلى مستواه وتشاركه لعبة الوساخة، لأنّ رجلًا مثله لا يعدو كونه حاوية قمامة.

عقب انتهاء المشوار، تعود إلى الشّقة. تستلّ قلمًا وورقة من الدُّرج وتدخل الحمّام.

– ندى، كلّ شي تمام؟

يطرق كريم الباب.

– نعم. سآخذ دوشًا ساخنًا فقط. بليز، جهّز سرير حياة ودعها تَنَم. تقبرني، لقد تعبت اليوم.

– كما تريدين. سأنتظرك في السّرير.

– لا لا داعي!

– كنت سأقرأ قليلًا قبل أن أنام. في كلّ حال إن احتجتِ إلى شيء اندهي لي.

– أوكي حبيبي.

تسكن خطوات كريم أثناء ابتعادها عن الباب. تجلس ندى فوق المرحاض تفكّر. عليها اليوم ألّا تكرّر خطأ اللقاء الماضي بخالد. يجب أن تدرس كلامها جيّدًا. يجب أن تضبط أعصابها. أن تتحدّث بلهجة

دبلوماسيّة واثقة كلهجته. يجب أن تفكّر بكلّ الاحتمالات وتضع خططًا بديلة. لذا ستكتب على الورقة بالتّفصيل ما ستقول للحقير بعد قليل. يجب أن تزرع في دماغه فكرة أنّها امرأة قويّة، خطيرة، يُحسب لها ألف حساب.

فكّري يا ندى. خذي وقتك. اليوم قُدُمًا، ستنقلب موازين حياتك.

تمضي أربعون دقيقة وهي تخطّ في الورقة وتصحّح وتشخط كلمات وتضيف أخرى. كلّ شيء جاهز الآن. ما عليها إلّا طلب الرّقم.

تقوم وتفتح صنبوري المغسلة والبانيو. صوت المياه المتدفّقة منهما سيموّه صوتها. تتناول جوّالها، وتعاود الجلوس على مقعد المرحاض.

إنّها الرّابعة بعد الظّهر بتوقيت فيلادلفيا، بينسلفانيا. يعني الحادية عشرة مساءً بتوقيت بيروت. ممتاز.

من النّاحية الأخرى، يردّ مكتب القصر. تطلب إلى الموظّف تحويلها إلى الدّكتور:

– قل له المطربة ندى تريدك.

موسيقى الانتظار. فرصتها لاختزان أكبر قدر من الهواء والشّجاعة في آن واحد.

– هلا بمطربتنا العزيزة.

يجيئها صوته طافحًا رجولة. صوته بلا ريب. لا صوت شبيهه كما لا يزال كريم معتقدًا.

– أشكرك على إطرائك. كلّك ذوق.

– تدرين؟ كنتِ على جدول أعمالي للأيّام المقبلة. لكنّكِ سبقتِني، وحسنًا فعلت.

هذا ما لم يكن في حسبانها. يعني كانت على خطأ لاعتقاد بأنّها بدت أمامه كبعوضة؟ مهما يكن. ستتصرّف. ستغيّر بالخطّة قليلًا. لا يجب أن تظهر امرأةً خارقة شديدة الذّكاء والخطورة؛ يجب أن تُظهر له نقيضين متكافئين في النّسبة: أنّها مسالمة وقويّة في ذات الوقت.

– توارد أفكار إذن.

– شيء من هذا القبيل. أراك تتحدّثين من أميركا؟

– صحيح.

– أتمنّى أنّك تقضين وقتًا ممتعًا.

– إنّي أروّح عن نفسي قبل العمل على الأغنية الجديدة. في كلّ حال، أودّ الحديث معك بأمر هامّ. هل الخطّ آمن؟

– أجل تفضّلي. كلّي سمع.

– بدايةً، أعتذر عمّا بدر منّي من بذاءة المرّة السّابقة. لا أقصد أن أكون وقحة، لكنّ دورتي الشّهريّة تجعلني مجنونة أحيانًا. يمكنك القول إنّ الجنون مشفّر في جيناتنا نحن بنات حوّاء.

تسمع ضحكة دبلوماسيّة مقتضبة. ترتاح.

– اعتذارك مقبول. بمَ كنت ستحادثينني؟

– أخي يا دكتور خالد. بدر خليل خولي. أحد رجالك. أدري كم أنت خَيِّر، تنظر في قضايا المساكين وتساعدهم. كما تعلم ربّما، أخي لديه عائلة كبيرة لا معيل لها سواه. من الممكن أن يكون أخطأ في مكان ما مع حضرتك، ما جعلك تستغني عن خدماته وتعيده إلى السّجن. لكن، سعادتك، المسامح كريم. أنا على يقين بأنّك ذو قلب رحوم. كلّ ما أطلبه من سعادتك أن تصفح عن بدر وتطلق سراحه. إنّ أخي رجل طيّب وعلى نيّاته، بخلاف ما يبدو عليه. طيّب

حدّ أن انزلق بغير عمد إلى أوكار تلك الجماعات السّلفيّة السّفيهة التي لا أعرف من أين نبتت. صدّقني، هذا طلبي الوحيد والأخير من سيادتك. أنت تذكر طبعًا ما دار بيننا من حديث في لقائنا الماضي. اليوم، أتمنّى منك أن تنساه كلّيًا. اعتبره لم يجرِ. أنا بدوري نسيته. حياة، ابنتي، تعيش اليوم مسرورةً مع والدها الذي هو زوجي الحاليّ. أجل، اعتبر هذا ثمن سكوتي إن أردت. هكذا، ستتخلّص منّي، ولن تسمع صوتي مرّةً أخرى. أقول صوتي، لا أغنياتي. فسماعي أغنّي لا يُحتسب. ما قولك؟

لحظتا صمت تلحظ فيهما أنّ البانيو غدا نصف ملآن.

– لا تعليق حاليًّا. لكنّ السّؤال الأهمّ، ما هي ضمانتي أنا، مدام ندى؟

جيّد. هذا السّؤال هو من جملة ما توقّعت. إجابته مكتوبة في الورقة. تجيل ناظريها بين الأسطر، ثمّ تقول في ما يشبه الانهزام.

– أعي أنّه ما من دليل حسّي على كلامي. لكن، من سيصدّق كلام مطربة في بداياتها عن علاقة عابرة برجل في مقامك؟ ثمّ، أنا أعيش اليوم حياةً هانئة وكريم، زوجي الذي صار، كما أخبرتك، والد ابنتي. لن أشغل رأسي بأشياء فات عليها الزّمن، ولا سيّما أنّي حامل بتوأم سيستنزف الكثير من طاقتي ووقتي. أؤكّد لك مجدّدًا، لا أريد شيئًا سوى رؤية أخي خارج السّجن. إنّه طلبي الوحيد والأخير. أرجو ألّا تخيّب آمالي.

– حسنًا، سأرى ما بوسعي فعله وأعلمك به لاحقًا. أأتواصل معك عبر هذا الرّقم الذي تتحدّثين منه؟

– نعم. لأنّ علاج ابنتي سيطول، سأبقى حوالى سنتين هنا في أميركا، ويمكن أكثر، أجل، لذا سيكون هذا مبدئيًّا رقمي الحالي

والدّائم.

– رائع.

– شكرًا جزيلًا دكتور عبّود. وعذرًا إن أخذت من وقتك. طابت ليلتك.

لتشعره بأنّه المتحكّم ههنا، تنتظر أن يبادر هو بإقفال الخطّ. ولفرط سعادتها بإنجازها، تخلع حذاءها الأسود وتروح تثب وترقص وتتمايل. ثمّ تقف قبالة المرآة بابتسامة عريضة تكشف عن أسنانها السّويّة.

للمرّة الأولى، ترى في انعكاسها امرأةً جميلة، ملامحها لم تتغيّر نتيجة عمليّات التّجميل التي خضعت لها، بل لأنّها غدت من الأعماق ندى أخرى. ندى اليوم. الصّلبة. التي بدأت تتحرّر من قيود الدّنيا.

9

من طاقة صغيرة لصق السّقف، يدخل ضوء الشّمس بخفر إلى الزّنزانة الحاوية أخطر المجرمين. يدخل منكسرًا في عيني بدر. لا يرى بصيص أمل فيه. يخاله يدًا ناريّة تحرق أيّامه ببطء، مجرّد مُذَكِّر بغيض بعَدّاد العُمر. لم يمضِ على وجوده هنا سوى أسبوعين، ومع هذا غدت أفكاره كلّها سوداء. كيف لمن يدرك أنّ حرّيته صارت حلمًا عسير المنال أن يفكّر بغير الأسوَد؟ رغم كونه بريئًا، هذا المكان القذر سيكون مضجعه الأخير. بريء! أيّها السّميع البصير، أتبصر؟ أتسمع؟! يواخذ نفسه. يشعر بأنّ صراخ أعماقه لامس الكفر. يستغفر ربّه. يرجوه أن يتفهّم وضعه الصّعب وحالته النّفسيّة التي تزداد سوءًا كلّ يوم. مجرّد تصوّر أنّ قضبان هذه الزّنزانة ستحول دون رؤية أولاده يكبرون، يبثّ فيه الرّعب. يتساءل سرًّا: بمَ سيجيب ابنه البكر علي النّاس حين يسألونه عن صنعة أبيه؟ هل سيطرق خجلًا ويقول «والدي سجين»؟ وإن سألوه عن التّهمة، فهل يقول «إرهابيّ»؟ مع الوقت، سيغدو ميّتًا في نظر أبنائه. ستتلاشى ملامحه شيئًا فشيئًا من ذاكرتهم، حتّى تختفي. سيغدو مجرّد صورة معلّقة، لا في صدر الدّار، بل في إحدى الغرف التي لا يدخلها

الضّيوف، وذلك اتّقاءً للحرج. بعد كلّ هذا العمر، سيغدو اسمه مدعاة إحراج.

– مذ رأيتك تدخل الزّنزانة والهمّ لا يفارقك.

يجلس قربه شابّ في أواخر عقده الثّالث. صلب البنية، أبيض البشرة، عريض المنكبين.

– أولادي بعيدون عنّي عشرات الكيلومترات، وتتوقّع منّي أن أبتسم؟

– اسمع هموم غيرك، تصغر همومك.

– هات ما عندك.

يعابث الشّاب لحيته غير المكتملة في المنطقة المتاخمة لفمه، ويقول بعد صمت:

– أعميتُ ألدَّ أعدائي.

– ماذا؟ أقصد... كيف؟

– شخطت عينيه القبيحتين بسكّين. أدميتهما حتّى انطفأتا. إلى الأبد، كما آمُل.

في سريرته، يستغفر بدر ربّه. يخيفه هدوء الشّاب وبرودة نبرته. كيف واتته الجرأة لارتكاب شناعة كهذه؟!

– أفهم أنّ تهمتك غير باطلة؟

– أقول ارتكبت جريمتي بيديّ هاتين.

يرتبك بدر. لا يعرف كيف يكمل الحديث. ربّاه! أهذا هو مصيره؟ أن يُسجن مع مجرمين مجانين؟

– ما اسمك؟

– بدر.

– أنا قصيّ.

– تشرّفنا.

لم يُشرّف بدر هذا التّعارف. أنظار الشّاب الحادّة اضطرّته لبصق الكذبة.

– تبدو لي رجلًا بريئًا يا بدر.

– رموني هنا زورًا.

– على عكسي إذن. يا لهذا البلد الخراء!

يطرق بدر، ثمّ تحين منه التفاتة إلى قصيّ:

– ألهذا الحدّ أنت فخور بما فعلت؟

– صديقي، ما فعلتُ لا يتعدّى الواحد بالمئة ممّا فعله عدوّي. لذا لمَ لا أكون فخورًا؟

– لكنّك ستقضي بقيّة حياتك هنا.

– لم يكن لديّ حياة قبل وصولي هنا. صدّقني، أسكتّ كلّ براكيني لحظة اشتممت دم الحقير.

– ماذا فعل؟

– لا شيء مهمًّا كما رأى القاضي. اغتصب وعذّب وقتل أطفالًا، صودف أنّ أخي واحد منهم.

يبتلع بدر ريقه. يبتلعه مرّةً أخرى حين يلامس إصبعه صرصور مقزّز يمعسه قصيّ بقبضته. يدرك السّبب الذي حمل شابًّا في ربيع العمر على أن يكتب نهاية حياته بملء إرادته. كذلك يدرك أنّ غريم الشّاب هو هلال، ابن عمّه، وزوج أخته الذي أودى بحياتها إلى الجحيم.

– أتعلم من هو عدوّك؟

– لا أعلم سوى أنّه أقبح البشر. مهما كان السّبب الذي جعله مغتصبًا دنيئًا، شهواته المريضة، مَلَله الحياة الطّبيعيّة، جنونه،

عجزه الجنسيّ، أقول مهما كان السّبب، فلا شيء يجب أن يشفع له. من مثله لا يستحقّ الموت. يجب أن يحيا عمره معذّبًا.

يدرك بدر أيضًا أنّ انطباعه الأوّل عن قصيّ لم يكن صائبًا. الشّاب ليس مجنونًا كما حسب. إنّه نار متخمة بالحزن، لشدّة سُعارها قد تذيب جليد العالم، وتسبّب طوفانَ تعاطف وشفقة.

– أفهمك يا قصيّ. الحقير أخذ نصيبه. لكن حبّذا لو كنتَ تركت العقاب لله!

– الله. أتظنّ أنّي ما زلت أؤمن به؟ أمّي أذابت عمرها تصلّي لعلّه يُرجع أخي إلى البيت، وينتقم ممّن كان السّبب. خائرة الأمل ماتت على سجّادة الصّلاة. ماتت ولم تدرِ أنّ أديب عاد إلى البيت في ما يشبه العلبة، عظامًا شاحبة. انظر إلى هذا العالم يا بدر. تلفّت حولك مليًّا. ألا ترى مدى قبحه؟ لا يملّون الحديث عن العدل الإلهي. أينه؟ أسألك أن تنظر إلى نفسك فقط. قبل قليل، قلتَ إنّك مظلوم. فسّر لي إذن كيف أصبحت هنا؟ يا صاحبي، إنّ الله بعضٌ من تخيّلنا. نمنّي به النّفس لنشعر بأنّا في هذا العالم لسنا وحدنا. لكنّا وحدنا. متروكون لقبحنا. وحدنا. الأمر مخيف، أليس كذلك؟

– يا قصيّ، ما هذه الحياة سوى اختبار تحمّل. من يصمد حتّى النّهاية، يفُزْ بقلب الله. أتدري أنّي رأيت فيكَ نفسي؟ رأيت بدر الشّاب الغاضب المندفع ذا النّزعة الإجراميّة. كنت مثلك يومًا. لكنّ الإيمان روّضني. خلّصني شيئًا فشيئًا من خصالي السّيئة. لا أخفي عنك. الكثير من تلك الخصال ما زالت موجودة بي، لكنّي أحاول انتزاعها دومًا.

– تريد إقناعي بأنّك لا تودّ اقتلاع رأس من أدخلك هنا زورًا؟ لا أصدّق أنّك جبان لهذه الدّرجة!

ينزل بدر رأسه جهة الأرض، منازعًا ما أحسّه إهانة. يجذب السّؤال إلى رأسه صورة خالد عبّود. الابتزازيّ الملعون! لقد أجبره على قول الأباطيل ليُشركه في تنفيذ أجندته. وحين نفّذ غدر به وأعاده إلى السّجن. لن ينسى لحظة تسمّره وخديجة أمام الشّاشة قبل أيّام، مشدوهًا برؤية نفسه يكذب خوفًا على أولاده، في فيديو قُطِّع وأُعيد تركيبه على نحوٍ يظهر الشّيخ محمود بصورة خليفة أسامة بن لادن. ولاحقًا في الصّباح، وجد نفسه في جيب الدّرك، معتقلًا بتهمة التّواطؤ مع إرهابيّين. يفكّر: إنّ خالد عبّود يوائم هلال في أمرين – مستوى الحقارة، واستحقاق أقسى عقابٍ ممكن. قولًا، يودّ أن يقتلع رأسه. لكن فعلًا، لا يستطيع ذلك. لا لأنّه جبان كما وصفه قصيّ، بل لأنّ... لأنّ بدر اليوم ليس ببدر البارحة، ولا شيء يمكن أن يحمله على... على اقتراف إحدى الكبائر! يجد لنفسه العذر المناسب، ثمّ يستدرك: لكن هذا لا يعني عدم الاقتصاص من خالد عبّود. إن حدث أن أُطلق سراحه بمعجزة ما، فسيجد الطّريقة الأعقل لينتقم. هذا أمر صار محتومًا بعد كلّ ذاك التّلاعب به.

– أودّ ذلك. لكنّي لن أفعلها. لأنّي لست مجرمًا.

يربدّ وجه قصيّ إزاء هذا الكلام. يشيح بوجهه يسارًا. يمسك الصّرصور المنقلب على ظهره من شاربيه، ويمسح به وجه الأرض.

– لا تغضب منّي. لم أقصد أن أُظهر نفسي كقدّيس. لستُ قدّيسًا. لعلمك، رغم عدم إعجابي بطريقة تحصيلك حقّك، أتفهّم أسبابك. نيابةً عن أختي، شكرًا لأنّك انتقمت لها.

يلتفت قصيّ إلى بدر مشتّتًا.

– عدوّك هلال، المدلّل والسّمج والغريب الأطوار، هو ابن عمّي الذي لم أستلطفه يومًا. لا تستغرب. أشمئزّ لقولها. وهذا جزء من الخبر. هلال زوج أختي أيضًا.

– هذا يعني أنّك شقيق ندى؟

– في السّجلّ العائلي فقط.

– لمَ لَم تكن تحضر جلسات المحاكمة إذن؟ لا أذكر أنّي لمحتك في إحداها.

– في عائلتنا مشاكل لا أحبّ الخوض فيها. ما علينا. كيف استطعت الانتقام من هلال؟ ألم يكن في مستشفى المجانين؟ من أذن لك بالزّيارة؟

يبتسم قصيّ بحرقة. يكاد جبروت عينيه يستحيل وهنًا. يقول رانيًا إلى منفذ الضّوء:

– كنت أعلم أنّ الوسخ سيخرج من القضيّة بطريقة أو بأخرى. كيف لا وعلى هذه الرّقعة شبه المرئيّة من الأرض نشهد يوميًّا أكبر المعجزات؟ كالمحامي ربيع برّي مثلًا. هل سمعت يومًا بهذا الاسم؟ لا؟ ربيع برّي يا صديقي رأسٌ كبير. إله، إن أردت. إلّا أنّه، ككلّ آلهة أوطاننا، إلهٌ رديف. هناك من هو أعلى منه، والأعلى فوقه آخر، فآخر أعلاهما، هكذا حتّى تصل السّماء. ربيع برّي كان يلجأ إلى إله أكبر. نائب في ذات خطّه السّياسي. الخطّ الذي أؤيّده أنا أيضًا. الإله أجرى اتّصالات بآلهة أعلاه؛ مسؤولي أحزاب، شيوخ طوائف، رؤساء محاكم، لا أعلم بالضّبط، ولا يهمّ. المهمّ أنّ النّائب وظّف كلّ سلطته لخدمة قضيّة ربيع برّي. قد تسألني كيف؟ من السّهل جدًّا كما تعلم أن تجعل قاضيًا مبجّلًا يفتح عينيه على الحقيقة. كحقيقة أنّ هلال خولي ليس مجرمًا، بل مجنون، يغتصب

ويعذّب ويقتل، وهو غير واعٍ لفعلته. لستَ بحاجة إلّا لأن ترهبه باتّصال من إله فوقه، أو تغريه بما يرفّهه. التّرفيه أسهل طبعًا، ما دام مع المتّهم المال. المال يا صديقي هو الإله الأكبر. كما أخبرتك، أنا شابٌّ جنوبيٌّ خطّه خطّ مقاومة. نصف عائلتي شهداء والنّصف الآخر يرومون الشّهادة. حين برّأ القاضي هلال، كدت أطلق رصاصةً بين عينيّ. لم أعرف ماذا أفعل. لجأت للآلهة. جئتها حاملًا إرثًا عائليًّا عظيمًا في العزّة والكرامة والمقاومة. حُوِّلتُ من إله، لإله، لآخر. جثوت عند الأقدام، قبّلت الأيادي، كدت أقدّم لهم نفسي قربانًا. لم ينفعني شيء. لا شيعيّتي، ولا تاريخي، ولا صور الشّهداء المكدّسة في القلب. سيّدٌ معمّم كنت قد لجأت إليه اتّصل بي معتذرًا. قال إنّه فعل المستحيل ليساعدني، لكنّه لم يفلح. سألته ما الذي يحول عثرةً؟ أجاب إنّ الحكم مُنزل، من «فَوْء»، باللهجة الجنوبيّة البيضاء. حلّفته بالزّهراء والنّبي والأئمّة الاثني عشر. قال لا تتعب نفسك، اتركها لله، هكذا أفضل. المضحك المبكي. تخيّل أنّ مقاومة الشّعب صارت مقاومةً ضدّه؟ تخيّل أنّ من يقيمون المجالس العاشورائيّة المندّدة بالظّلم، باتوا أكبر ظُلّام؟ كلّ الإشاعات التي كنت أكذّبها حيال فساد هيكليّة الحزب السّياسيّة وتأليهها المال تبيّنت لي محقّة. نحن نريق دماءنا، وهم يُخَمِّرونها، يتقارعون بها نخب صحّتهم. أتلومني لأنّي فقدت إيماني؟ لأنّي استحلت مجرمًا؟ أكنت تنتظر أن أمضي حياتي في زيارة المراقد والصّلاة لإله لا يسمع؟ صورة واحدة، لا غير، وضعتها نصب عينيّ. فكّرت وخطّطت وسهرت لأجعل الصّورة حقيقةً. هلال مُدَمًّى بين يديّ. تخيّل حلاوة المشهد! بعت كلّ ما أملك؛ محلّ التّليفونات، شقّتي، وقطعة الأرض في الضّيعة. ربيع برّي لم يكن ليستصدر لي

إذنًا بزيارة هلال في المصحّ لو لم يجبره المال، إلهه الأكبر، على ذلك. كان يعلم طبعًا أنّي رئيس لجنة أهالي ضحايا موكِّله، وبالتّالي لا شيء قد يدفعني للزّيارة سوى الشّر والأذيّة. مع هذا لم يمانع مطلبي. كاد يلعق شفتيه حين فتحت أمامه شنطةً تحوي ما كان قد اشترطه عليّ؛ مئةً وخمسين مليون ليرة لبنانيّة. ليرة تنطح ليرة. قبل دخولي المصحّة فتّشوني جيّدًا. كنت أعلم من جارنا أنّ عقد سيف الإمام عليّ صارت تُصنع منه أشكال تُفتح. ما يعني مخبأً لشفرة موسى، لا أحد يجرؤ على التّدقيق فيه. إن كان المفتّش شيعيًّا أو سنّيًّا يؤيّد المقاومة، فسيبتسم حين يراه على عنقي ويحيّيني. وإن كان سنّيًّا لا يؤيّد المقاومة أو من أيّ ديانةٍ أخرى، فلن تكون لديه جرأة ليأمرني بنزعه، لأنّ ذلك مساسٌ بمقدّساتنا، والنّاس باتوا يدركون ذلك. لحسن الحظّ، مرّ تفتيشي على خير. دخلت ونفّست عن غضبي. حقّقت حلمًا. لا بدّ من أنّ أخي وأمّي مرتاحان في قبريهما الآن. أقلّه، أنا الذي ارتحت. وأنت يا بدر، لن ترتاح حتّى تنتقم. هذه الحياة لا ينفعها الطيّبون. وحدهم القذارى يعيشون.

يُطرق قصيّ ماسحًا عن خدّه دمعة مباغتة. يتراءى لبدر أنّه ارتاح بعد الفضفضة. يصمت ثواني ثمّ يقول:

– كيف صارت أختك؟ أقصد لميا.

– لقد أفاقت من الكوما. قبل بضعة أيّام، فوجئتُ بها ترافق أمّي إلى هنا، حين سمحوا بالزّيارات.

يلوح لبدر في عينيْ قصيّ أسئلة أخرى عن أختيه. لكنّ الحوار يُبتر عند هذا الحدّ، إذ يفتح الحارس باب الزّنزانة وينده بصوت أجَشّ:

– بدر خليل خولي، إفراج!

10

قريبًا من ساحة ساسين في الأشرفيّة، تقف ندى خلف المايكروفون في استوديو ميوزيك راين مغمورةً بالفرح؛ عيناها مغمضتان، يداها ممسكتان بجهاز الهيدفونز على أذنيها، وأوتارها الصّوتيّة تردّد كلمات أغنيتها السّينغل الثّانية:

بْـهاك اللَيلْ فَتَح الحَيّ
شْبابيكو على قِصّتنا
نِزْل الكلّ جابوا حبالُنْ
لَفّوها على رقبتنا
بَرْموا دْياب حْوالَيْنا
عْيونُن صَبيعُن عَلَيْنا
صبّوا بْدَمْنا كاس
وناس تِسأل ناس
خِلْصوا؟ ما خِلْصوا منّا!
بْهاك الحيّ بعد سنين
انكَتْبِتْ قصّة قصّتنا

تبلغ آهة الختام. تفتح عينيها. يقف الموزّع الموسيقيّ الجالس خارج الزّجاج خلف أزراره وشاشته مصفّقًا. تبتسم للتّأثّر الجليّ في عينيه. تومئ له بغمزة (حقًّا؟). يرفع كِلا الإبهامين مبتسمًا (روعة!). ترقص حول نفسها في فخار. لديها حدس بأنّ هذه الأغنية ستمسّ شريحة كبيرة من النّاس. أوّل ما سمعتها في أميركا على الهاتف مُلحَّنةً، هتفت أحاسيسها. كريم أبدى إعجابًا كبيرًا بها. طلب منها العودة إلى لبنان لتضع صوتها عليها.

– كيف أعود؟ وحياة؟ لم أصدّق أنّي بدأت أتلمّس لديها قابليّةً للتّجاوب مع العلاج. يمكن للأغنية أن تنتظر.

– الأغنية قد تذهب بسهولة إلى فنّانة أخرى. ثمّ أنت ستعودين وحدك. أنا وحياة سنبقى هنا. إلّا إن كنت لا تثقين بزوجك.

فكّرت بصمت. كريم ليس بعُمر. ليس بهلال. ليس بأدهم. ليس بأيٍّ ممّن مرّوا في حياتها. كريم هو الثّقة إن كانت للثقة روح. هو الرّجل الذي قد تغمض عينيها وتنام بجانبه عاريةً في العراء، مطمئنّةً من أنّه لا أحد باستطاعته الاقتراب.

– احجز لي مقعدًا على أوّل طائرة إلى بيروت.

لم تتردّد في الإجابة. كانت متيقّنة بمن ستستودع ابنتها. وفي ذات الوقت لم تكن تطيق صبرًا أن تضع مولودها الفنّي الثّاني.

– ممتاز.

– سأذهب لأخبر حياة وأسمعها الأغنية. أتمنّى أن تعجبها.

بعد بضعة أيّام رافق كريم وحياة وماريل ندى إلى المطار. قبّلتهم (قبلة حياة كانت أحاديّة الطّرف)، ودّعتهم (وداع حياة كان أحاديّ الطّرف)، جرّت خلفها الشّنطة، وغابت في زحام المتوجّهين إلى نقطة ختم الجوازات.

اليوم هو اليوم الثّاني لها هنا في بيروت.

في هذه اللحظة المفعمة حماسةً، تتمنّى لو أنّ كريم يقف جانب الموزّع الموسيقي، خارج هذه الغرفة العازلة للصّوت، ينظر إليها عبر الزّجاج مستمتعًا بالشّكل النّهائي للأغنية. تتمنّى لو أنّ حياة برفقته أيضًا، تشاهد أمّها وعيناها تلمعان فخرًا. لكن لا بأس. الأفضل ربّما إبقاء الأغنية بتوزيعها المبتكر مفاجأةً لهما. أو ثمّة فكرة أفضل. سيُفاجآن أكثر حين يشاهدان الأغنية بصيغة الفيديوكليب. بالإمكان أن تصوّرها في أميركا تحت إدارة مخرج لبنانيّ مغترب. هذا أفضل وأجمل. لتحتفل اليوم وحدها إذن. أو لتتشارك الفرحة مع دلال على العشاء. آه. دلال وفيليب ليسا هنا. هما في فرنسا. ثمّة فكرة أخرى. لتتّصل بلميا وتعلمها بأنّها هنا. أو لا، لا بدّ من أنّ أختها ما زالت تمضي الوقت مع بدر الذي خرج من السّجن قبل ثلاثة أسابيع، حسبما أعلمها عمر وأكّدت لها هي. إذن، هذا هو قرارها النّهائيّ: اليوم ستحتفل وحدها. ستروّح عن نفسها وتتمشّى على كورنيش الرّوشة لتشحذ طاقةً كافية للغد. فغدًا، قبل موعد طائرتها ببضع ساعات، لديها مقابلة غير مباشرة في برنامج حواريّ على إحدى القنوات التّلفزيونيّة العربيّة. لن تكون المقابلة كالعادة: مجرّد ثرثرة عن جديدها الفنّي وقديمها. هذه المرّة ستكون قنبلةً من العيار الثّقيل. ستُلقي بها وتعود إلى أميركا. منذ أسبوعين، منذ اتّصال أحد معدّي البرنامج بكريم طالبًا استضافتها، وهي تنتظر الغد. شاء حظّها أن يكون توقيت المقابلة متقاطعًا وفترة وجودها في لبنان. لذا أعطى كريم موافقته، وتحمّست هي للّقاء. أمضت ثلاثة أيّام وليالٍ تحضّر له. من دون علم كريم بالطّبع. فكّرت مليًّا بما ستقول. كتبته وحفظته عن ظهر قلب. وجهّزت المستندات التي

حصلت عليها في أميركا بمشيئة القدر (ما أجمله أحيانًا، القدر). المستندات التي ستؤكّد للنّاس أنّ خالد عبّود ليس خالد عبّود، بل كذبة كبرى.

قرابة الثّانية عشرة ليلًا بتوقيت بيروت، يرنّ جوّالها. مستلقيةً على سريرها بفستان السّهرة، تمدّ ذراعها إلى الكومود وتتناوله. تحدّ عينيها مبحلقةً في الشّاشة. «عمري» يتّصل.

– هاي أبو الكرم.

– أبو الكرم؟ ندى، سكرانة؟

– متعبة. مشيت كثيرًا اليوم.

– أأحكيك عندما يطلع عليك الضّوء؟

– لا لا... كيف حال حياة؟

– إنّها في حوض السّباحة. لن تصدّقي ما حدث. لكن أخبريني أوّلًا، كيف كان نهارك في الاستوديو؟

– الأغنية رائعة. لكنّي لن أدعك تسمعها قبل أن أصوّرها في أميركا. أخبرني ماذا حدث؟

– احزري ماذا قالت لي حياة.

– بِـ«قالت لك»، تقصد أنّها ركّبت جملة كاملة؟

– كادت تلقي أمامي قصيدة.

– أنت تمزح!

– قالت لي حرفيًّا «أحببت أغنية ماما. الكلمات جميلة. وبصوتها ستصير أجمل».

تتدفّق عينا ندى. لا تستطيع أن تعبّر. تودّ لو تستحيل نثارًا يلج جوّالها، ويسبح في شبكات العالم الرّقميّ، وصولًا إلى ابنتها. إلى أذنيها. تودّ لو تعيش ما بقي من عُمر تغنّي لهما. لهما فقط. الأمل

يكبر شيئًا فشيئًا؛ اليوم، سمعت كلام حياة على لسان كريم. لاحقًا، لا بدّ ستسمعه على لسانها مباشرةً. لكن، إلى متى سيطول «لاحقًا»؟ إلى متى؟

– ليس هذا فقط.

– أكثر بعد؟

– ابنتنا عادت تكتب. لقد رأيتها خلسةً قبل قليل.

– أتعرف ما يعني هذا؟ آخر سطر كتبته في مذكّراتها كان «سآتي إليكما فانتظراني». كانت تقصد يسوع ومريم. كان ذلك (تغمض عينيها تبحث في أرشيف ذاكرتها)، يوم الجمعة 20 فبراير 2004. كيف أنسى التّاريخ؟ ليتك ترى عرض الابتسامة على وجهي

– أرأيتِ كم كان مجديًا رحيلك عنّا؟

– Shut up! لا تقهرني.

– هههه، لا بأس حياتي. بالمناسبة، حالما تنهين مقابلة اليوم كلّميني.

– أكيد.

– حياة تخرج الآن من البيسّين. نتكلّم لاحقًا ندّوش.

* * *

في ثوب نيليٍّ يبرز بشرتها القمحيّة، تجلس ندى على كنبة جلديّة سوداء وسط أحد بلاتّوهات التّصوير التّابعة إلى المحطّة التّليفزيونية العربيّة التي ستعرض مقابلتها. قبالتها، تلفّ المحاورة الثّلاثينيّة الرّشيقة ساقًا على ساق، ترتّب البطاقات التي تحمل لوغو البرنامج، تقلّب نظرها فيها سريعًا، وتنتظر إشارة المخرج وضوء كاميرتها الأحمر لتقول بنبرة منغّمة:

– مساء الخير مشاهدينا في حلقة جديدة من «عمتم فنّ».

الليلة ضيفتنا مطربة لبنانيّة شقّت طريقها من تراب الجنوب. سيماها ليست في اسمها. إنّها زهرة ناريّة مشبوكة في طرحة كفرشوبا، عروس جبل الشّيخ. صوتها المطواع سلاح تقهر به المدّعيات من نجمات الفنّ الهابط. وكلامها لا يختلف كثيرًا عن غنائها. ضيفتي الليلة لا تحمل في جعبتها فقط أخبارًا متنوّعة عن مسيرتها الفنّية التي لم تبدأ بعد. بل لديها أيضًا تصريحات أقلّ ما يقال فيها إنّها خطيرة. رحّبوا معي بالمطربة ندى. أهلًا وسهلًا بك معنا.

– أشكرك ليال على هذه المقدّمة.

– لا شكر على واجب. ندى، قبل أن أبدأ معك حديثنا، ماذا تودّين أن تُسمعي الجمهور الذي يتابعنا الآن؟

– سأغنّي ليت للبرّاق عينًا لأسمهان.

– جميل. علمنا بالمناسبة أنّ أسمهان مطربتك المفضّلة. أثمّة سبب محدّد لإيثارها على سواها من مطربات الزّمن الجميل؟

– لا أدري بالضّبط... ثمّة سرٌّ في صوتها وشامتها ولون عينيها يحاكيني. حين تغنّي الحزين، تجمّله. وحين تترنّم بالفرح، يصير الهواء أخفّ. أحيانًا، أشعر كما لو أنّ أسمهان توأمي الضّائع في زمن آخر. وأحيانًا أخرى، أشعر بأنّنا الرّوح ذاتها.

– ياه! نحن لا نتمنّى أن تكون حياتك كحياة أسمهان. نريدك أن تغرقينا بفنّك، لا أن تغرقي إلى حتفك!

تطلق المحاورة ضحكة لطيفة، فيما تتناول ندى الميكروفون، وتجود بالغناء:

... قيِّدوني! غلِّلوني! وافعلوا ما شئتم جميعًا من بلا
فأنا كارهةٌ بغيكم ويقيني موت شيء يُرتجى

آه، آه، ليت للبرّاق عينًا فترى ما ألاقي من بلاءٍ وعنا

مع انتهاء الوصلة، يذهب البرنامج في استراحة إعلانيّة قصيرة يعدّل الماكيير والكوافير خلالها هيئة كلٍّ من الضّيفة والمضيفة. يستهلّ بعدها اللّقاء مجدّدًا، فتتوالى فقرات من الأسئلة المتنوّعة، تتخلّلها استراحتان إعلانيّتان أخريان، إلى أن يصل الحوار إلى الفقرة المنتظرة:

– كما اعتدتم مشاهدينا في الفقرة الختاميّة من برنامجنا، فقرة قنابل موسيقيّة، ينتهي دوري أنا هنا، وتُترك لضيفتنا مساحة حرّة للتّصريح عن أخبار حصريّة تتعلّق بموسيقاها أو حياتها. لن أطيل عليكم. سأدع الشّاشة لضيفتنا. تفضّلي ندى. الهواء، كلّ الهواء، لكِ.

تملأ ندى رئتيها بالهواء، تشبك كفّيها فوق ساقيها الملفوفتين بعضهما على بعض، وتقول بثقة، رغم الأدرينالين:

– أعزّائي المشاهدين، سبق أن تحدّثت للمرّة الأولى خلال هذا اللقاء عن ابنتي حياة وقضيّة اغتصابها وعن مشوار علاجها الذي لا نزال نخوضه معًا في أميركا. أمّا الآن، فسأنطق بما لم ينطق به أحد، حتّى الإعلام، في قضيّتها. سأحدّثكم عن الجزء الخفيّ للقصّة. عن الرّجل الذي أنجبها. أجل، سأتكلّم الليلة، للمرّة الأولى، عن الخائن، الغادر، والكاذب الذي جعل من حياتنا نحن الاثنتين دوّامة. بالمناسبة، اعلموا أنّي لست هنا اليوم لأنتقم أو أنفّس عن غضب أو أبيع سكوبّات للقناة. أنا هنا لأضع النّقاط على الحروف وأوصل لكم الحقيقة، كلّ الحقيقة، عن الرّجل الذي لم يخدعني أنا وحدي، بل خدع 4 ملايين نسمة كذلك. لا أخفي عن أحدكم بالطّبع أنّي لطالما وددت الانتقام من ذاك الوغد لأنّه غرّر بي. قبل 14 عامًا،

جعلني أصدّق أنّه يحبّني وأنّه يريدني زوجةً له مدى العمر. أعترف له بذكائه. لقد أوقعني. كنت في ذاك الوقت صبيّة سطحيّة جاهلة في الثّامنة والعشرين، تبحث عن أيّ فرصة حبّ، خشية أن يباغتها ظلام العنوسة. وقد وجدت فيه آنذاك رجلًا كامل الأوصاف، قادرًا على حمايتي من ألسن النّاس، وإشباع توقي إلى صدر أغزل عليه أحلامي. كنت غبيّة. سلّمته جسدي ومشاعري يستبيحهما كيفما شاء. وظننت أنّه سلّمني جسده ومشاعره في المقابل. مرّ الوقت. اكتشفت أنّي أحمل طفله في أحشائي. طرت فرحًا. وحين زففت إليه الخبر، تصنّع أنّه طار فرحًا أيضًا. وعدني بأنّه سيأتي ويطلبني من أهلي. لكنّه لم يأت. غادر حياتي والضّيعة إلى الأبد. تركني وحيدة، صبيّة حبلى في بيت أهلها، تقضي لياليها مرعوبة من أن يعرفوا الحقيقة. انتظرت عودته كالبلهاء. ظننت أنّ شيئًا طارئًا ما اضطرّه ليغيب. توالت أيّام الشّهر الثّامن لحملي، ومع هذا لم يأتِ. حينها، أدركت أنّ ثياب الصّوف الفضفاضة التي أخفت جريمتي مدّةً لا بأس بها ستغدو كفني. أدركت أنّ نهايتي صارت وشيكة. فقرّرت الهرب. كان لا بدّ من أن أغادر بيت أهلي كيلا أُرجم بتهمة الزّنا. لكنّ الحظّ لم يكن يومًا صاحبي. نزفت فجأةً. فقدت الوعي. وجدتني في المستشفى، في قسم الولادات، أهلي إلى جانبي، وبين يديّ حياة، ابنتي، لا ابني كما كنت منتظرة. طنّت فضيحتي في الضّيعة، غدوت زانيةً في نظر كلّ النّاس. ارتعبت. خشيت أن أُذبح أنا وابنتي على مرأى الشّامتين الجهلة. استغللت مغادرة عائلتي إلى البيت لإنهاء مراسم دفن والدي الذي قضى بذبحة قلبيّة في تلك الليلة، وطلبت من أجمل ممرّضة رأيتها في حياتي معاونتي على الهرب. هربت. بين يديّ الطّفلة. الطّفلة التي رأيت فيها حملًا ثقيلًا

سيعذّبني وأعذّبه. لم أرَ حلًّا آخر أمامي. استودعتها أحد المياتم، وغادرت بدوري إلى المدينة، لأباشر ببناء حياة جديدة، عسى يصير باستطاعتي إيواء حياة فيها يومًا ما. مرّت السّنوات. مررت بمشاقّ لا تُحصى، لكنّي تمكّنت أخيرًا من تجاوزها. صرت امرأةً منتجة، مستقلّة، قادرة على استرجاع ابنتها إلى حضنها. لكن، سبق أن أخبرتكم. الحظّ لم يكن يومًا حليفي. علمت أنّ حياة، التي كنت أعطيت موافقتي لأختي وزوجها على استرجاعها من الميتم لتعيش معهما مؤقّتًا، تعرّضت مرارًا للاغتصاب. بدل أن أضمّها إلى صدري بعد طول فراق وأنا أسمعها تقول ماما، ضممتها إلى صدري خرساء. لقد اختارت ابنتي أن تصمت في حضوري. لا ألومها. أعترف لها وللنّاس جميعًا، لم أكن أمًّا صالحة. لكن، في ذات الوقت، ليس من حقّ أحدٍ أن يلومني على شيء لم أقترفه وحدي. مجتمعنا المريض يأبى أن يوجّه أصابع الاتّهام إلى غير المرأة؛ يعتبرها المخطئة الأولى دومًا، والوحيدة غالبًا، ويغضّ البصر عن حصّة الرّجل من الخطأ. أرفض أن أقف وحدي في مرمى اللوم. لست الوحيدة التي يجب أن تُلام هنا. ثمّة رجل يقبع الآن في قصره الفسيح، مرتاحًا من كلّ الأثقال التي حمّلني إيّاها. رجل كان يجب أن يقتسم معي دلاء البصاق والحجارة التي دلقها النّاس عليّ. هذا الرّجل كان شريكي في الجريمة. لكنّي أؤكّد لكم، جريمتي تُعدّ ذرّة غبار قياسًا إلى العاصفة الرّمليّة لجرائمه. فهذا الرّجل ما أخطأ بحقّي فقط. لقد أخطأ بحقّ اللبنانيّين جميعًا. لقد أخطأ بحقّكم أنتم. وتأكّدوا أنّكم ما كنتم سمعتموني أحكي عن قصّتي معه، أو آتي باسمه حتّى، لولا أنّي عرفت قبل أسابيع أنّكم وقعتم، مثلي أنا، ضحيّته. أعيد وأكرّر، أعترف للرّجل بفطنته. حتّى اللحظة، رأسي ذاهل عن فهم كيف

استطاع الإيقاع بنا. مشاهدينا، الرّجل الذي سأذكر اسمه الآن غدا ممثّلكم في البرلمان. نائبًا عليكم. خدعني وخدعكم وخدع الجميع بثروة لا أدري كيف حصّلها، واسم مزيّف ليس اسمه، وشهادة مزوّرة لم يحصل عليها يومًا. إنّه النّائبة، لا النّائب، الدّكتور خالد عبّود. أو إن أردتم الاسم الصّحيح، عمر الأسعد. عمر سعيد الأسعد. مواليد مرجعيون. أمّه هديّة عبد الله، مواليد كفرشوبا. السّيد عمر، بعد أن غادرني وغادر كفرشوبا أواخر صيف 1990، لم يُسمع له خبر مجدّدًا. غادر إلى حيث لا أنا ولا أحد يدري. وفجأةً، عاد أوائل عام 1992 وقطن في صيدا، في قصر مهيب يدّعي أنّه اشتراه بثروته. ثروة ماذا بحقّ السّماء؟ هل تُحصّل الثّروات خلال عام؟ عمر سعيد الأسعد أعزّائي كان مجرّد تاجر تبغ، ميسور الأحوال، متواضع العلم. فكيف صار في سنة واحدة خالد عبّود، صاحب الأموال التي لا تأكلها النّيران، وحامل الدّكتوراه، أقول لكم دكتوراه، في مجال الاقتصاد، من أهمّ جامعات الولايات المتّحدة؟ أنا عن نفسي لا أدري. الإعلام والمباحث والقضاء فقط مخوّلون التّحقيق في الأمر. كلّ ما استطعت أنا فعله هو اكتشاف حقيقة المدعوّ عبّود. بالصّدفة اكتشفتها. شاهدت مقابلةً له في التّلفاز، تقول إنّه مرشّح للانتخابات النّيابيّة. صُعقت. أدركت أنّ هذا الرّجل هو عمر، لا خالد كما يدّعي. حتّى بعد خضوعه لعمليّات تجميل غيّرت ملامح وجهه، تعرّفت إليه. تعرّفت إليه من نبرته، من نظراته، من حركات يديه. بعد أيّام طلبت منه موعدًا لأواجهه بالأمر. وجهًا لوجه، في صالون قصره، تلاشت كلّ شكوكي. تأكّدت من أنّي كنت محقّة. أنّ عمر انتحل لأسباب لا أعرفها صفة دكتور باهظ الثّراء. وواجهته. أخبرته عمّن يكون في الحقيقة، عن علاقتنا الغابرة، وعن الفتاة التي أنجبناها

معًا. بالطّبع، كان لا بدّ من أن ينكر ويتصنّع جهلًا لكلامي. شعرت بأنّي ضعيفة. بأنْ لا أحد في الكون سيصدّقني. لم أعرف ما يمكنني فعله. فكّرت في الصّعود إلى الإعلام وفضح القصّة. لكنّي تعقّلت. تروّيت. أدركت أنّ صورتي بذاك يمكن أن تتشوّه. فمن سيصدّق امرأةً جديدة على السّاحة الفنّية، تتّهم أحد عمالقة الاقتصاد والسّياسة بأنّه نام معها؟ طبعًا، لا أحد. وجدت أنّ انتظار الفرصة المناسبة هو أفضل الحلول. فانتظرت. سافرت خلال هذه الفترة إلى أميركا برفقة زوجي، مدير أعمالي الحالي، بغية علاج ابنتي. وهناك، في ولاية بنسلفانيا الأميركيّة، في مركز علاج الصّمت الانتقائي، هلّت الفرصة. بالصّدفة، صادقتُ وزوجي أهل أحد الأطفال المرضى خلال الجلسات الجماعيّة التي يساند فيها الأهالي بعضهم بعضًا. من حديث إلى آخر، عرفت أنّ والد الطفل، ويُدعى برايان أوبري، أميركيّ من جذور برازيليّة، هو عميد كلّية الاقتصاد في جامعة بنسلفانيا. هنا، تذكّرت فورًا عمر. تذكّرت تلك المقابلة التي ذكرت فيها معدّة التّقرير أنّ خالد عبّود نال الدّكتوراه من ذات الجامعة. ولكي أتأكّد أكثر، هاتفت القناة واستحصلت منها على رقم معدّة التّقرير. سمعت كلمة جامعة بنسلفانيا على لسان المعدّة مباشرةً. في اليوم التّالي، أخبرت برايان أنّ أحد معارفي نال دكتوراه في الاقتصاد من كلّيته، رغم أنّه لا يفقه سوى تجارة التّبغ والتّنباك. ضحك ولم يصدّق، متذرّعًا بالسّمعة الحسنة والتّرتيب العالمي العالي لجامعته. فأخبرته أكثر عن عمر، عن جيرتنا القديمة ومعرفتي الوثيقة به، عن مغادرته الفجائيّة، وعن عودته الفجائيّة مع تلك الدّكتوراه والكثير من الأموال. بعد إلحاح طويل منّي، وافق برايان أخيرًا على أن يتحقّق لي من الأمر. في الأسبوع التّالي،

جاءني مزوّدًا بمستند مخيّب للآمال، يفيد أنّ خالد عبّود هو أحد حملة الدّكتوراه ضمن دفعة 1985. كدت أُجنّ، لكنّه استمهلني وقال إنّه بدافع الحشرية طلب الاطّلاع على أطروحة الدّكتوراه التي قدّمها خالد إلى لجنة الأساتذة. لغرابة الأمر، لم يكن هناك أيّ كتاب باسمه؛ أي إنّ خالد عبّود نال شهادته وهو جلوس على الكنبة. هذا ما حدا ببرايان إلى توظيف علاقاته في جهاز أمن الولاية للتّحقّق من سجلّات الإياب والمغادرة لخالد. احزروا ماذا. لقد تبيّن أنّ خالد عبّود لم يطأ أرض الولاية يومًا. لم يطأ أرض أيٍّ من الولايات الـ52! سألت برايان مذهولة، كيف يمكن تزوير شهادة عليا كهذه بكلّ تلك السّهولة؟ قال لي آسفًا إنّ الأمر صار شائعًا اليوم. أخبرني عن طرق التّزوير المتنوّعة، كالاستحصال على الشّهادات من جامعات وهميّة، وارتشاء لجان الأساتذة المشرفين والطّاقم الإداري، وتدخّل السّياسة في الشّؤون الأكاديميّة، وغيرها كثيرًا. سألته أيّ طريقة يعتقد أنّ عمر استخدمها للحصول على شهادته؟ قال إنّه يرجّح أن تكون للسّياسة يد في الموضوع، ولا سيّما أنّ عمر تدرّج من رجل ثريٍّ، إلى نائب ذي شأن في البرلمان. وهذه هي المستندات والدّلائل مشاهدينا التي تؤكّد صحّة كلامي. أتمنّى على القناة أن تعرضها عليكم، لتعرفوا أنّكم، شأني تمامًا، خُدعتم برجل يطلق على نفسه اليوم اسم الدّكتور خالد عبّود... ختامًا، أتمنّى على الأجهزة المختصّة رفع الحصانة عن الرّجل، نزع السّرية المصرفيّة عن أمواله، إحالته للمجلس الأعلى للمحاسبة، والمباشرة فورًا بالتّحقيق معه، لتقصّي هويّته الحقيقيّة تحت كلّ الأقنعة التي يضع. عمتم مساءً، وشكرًا جزيلًا لإصغائكم.

أخيرًا! بعض النَّفَس!

11

للمرّة الخامسة خلال دقيقة، يتحقّق بدر من ساعته. ملامح التّرقّب جليّة في صفحة وجهه الممتلئ المائل إلى الحمرة. ورغم ضجّة الرّائحين والغادين في مطار رفيق الحريري الدّولي، والجلبة التي يحدثها دوران عجلات حقائبهم، يشعر بأنّه في بُعد آخر، بمنأى من كلّ ما حوله، يتخبّط وحيدًا في زحام أفكاره. الهواء الذي تبثّه أجهزة التّبريد المركزيّة لا يجدي نفعًا؛ كلّما مسح العرق عن جبينه، تعاود حُبيباته التّبرعم. على البلاط قرب قدميه، تلفت انتباهه نملة حمراء تائهة. يتساءل ما الذي أتى بها إلى هنا؟ تراها تنتظر استقبال أحد، أم تقبل على توديع أحد؟ يقرّب حذاءه منها بتروٍّ متمنّيًا أمرًا غريبًا جدًّا، لم يتصوّر خلال سنواته الأربعين أنّه سيأتي يوم يتمنّى فيه شيئًا مشابهًا. يتمنّى لو أنّ النّملة تتسلّق الطّريق إلى كتفه لتواسيه، لتكون النّدّ في محنته وتطمئنه أنّه ليس الوحيد الذي يعاني، ولتعلّمه كيف يصمد مخلوق بصغرها بين أقدام هذا العالم المجنون.

– يا بدر أجبني!

تلكزه خديجة عن يساره وهو يلاحق بعينيه النّملة في دورانها حول حذائه.

– ماذا...

– أخبرني ما الذي تنوي فعله؟ لمَ تخاطر بحياتك؟ فلتُنهِ الموضوع كرمى لله. يا أخي إن لم تعد تطيق النّظر إلى خالد بلّوط، قدّم له استقالتك. اخرج من حياته وانسَ أنّه مرّ في حياتك. ابدأ صفحةً جديدة، وابحث عن عمل آخر. أرجوك يا بدر.

يعابث بدر لحيته الكثّة التي لم يحلقها منذ اثنين وعشرين يومًا، منذ خرج من السّجن في 2 تموز، يعابثها قائلًا:

– سبق أن حكينا مرارًا. لا تشغلي بالك بما أنوي فعله. اعتبري أنّك ذاهبة والأولاد إلى السّعودية في رحلة استجمام.

– استجمام يا بدر؟ استجمام!؟ أتظنّ أنّ بالي سيهدأ وأنت هنا وحدك تنفّذ خطّةً لا تريد إخباري عنها؟ يا رجل خَفِ الله. تعقّل. ماذا حدث لبدر الذي يخاف عليّ وعلى أولاده؟ الذي يأخذ بآرائي، ويصغي إلى نصائحي؟

– ستكونين مع الأولاد بأمان عند خالك طلال.

– وماذا لو حدث لك مكروه لا قدّر الله؟ ماذا لو عدت إلى السّجن؟ هل سنكون عندها بمأمن؟

– لن يمسّني مكروه. أعدك. وستعودون إليّ في أقرب وقت.

– كم مرّة يجب أن أقول لك إنت مش قدّ خالد عبّود؟ لقد ذقنا منه اللوعة! إنّه نائب يا بدر! وفي بلادنا، أن يصير المرء نائبًا، يعني أن يصير أكبر منك ومنّي. أكبر من النّاس. من الوطن. لمَ تصرّ على اللعب بالنّار؟ لديّ إحساس بأنّ ما ستفعله لن يجلب لنا إلّا الخراب.

– ما سأفعله سيرفع رؤوسنا ويبيّض سمعتنا أمام العالم أجمع.

– رؤوس من وسمعة من؟ خلص، ظاهرة الشّيخ محمود ولّت. ألم تسمع تصريحه الصّوتي الأخير الذي أفحمنا به، طالبًا من جحره إلى العناصر السُّنّة الانشقاق عن الجيش لنصرة الإسلام؟ بنظرك هذا كلام موزون؟ احمد الله يا بدر أنّك الوحيد الذي استطاع النّفاذ بريشه من القضيّة. هذه المرّة أختك ندى أنقذتك. المرّة المقبلة تأكّد من أنّه لا ندى ولا غيرها سيفعل. لا تُشح بوجهك عنّي! انظر إليّ! أليس من الأفضل أن تترك الله يأخذ حقّك وحقّ كلّ مظلوم؟ ألست أنت من كنت تقول هذا؟!

– لقد عاهدت الله ووعدت قصيّ أنّي لن أدع خالد عبّود وشأنه. عليه أن يذوق المرّ الذي جرّعني إيّاه. لقد كسرني يا خديجة. كلّما نظرت إليه شعرت بأنّي صغير. تمامًا كهذه النّملة الملتصقة بقدمي. لقد تلاعب بحياتي مرّات. واليوم، آن لي أن ألعب بحياته، وأريه أنّه صفر. أنا الذي سأمحو من مخيّلته فكرة أنّه إله يحقّ له متى شاء التّحكّم بالعِباد. ولو لمرّة واحدة، أريد أن يقيم لي النّاس، وخاصّةً هو، وزنًا.

– أستغفر الله العليّ العظيم! هلّا قلت لي ما الذي تنوي فعله؟ لمَ لا تعطي نفسك وقتًا لتفكّر وتعيد حساباتك بهدوء؟ لا تنسَ أنّ ما ستقوم به وليد غضب أعمى. والغضب وسوسة من الشّيطان! خذ وقتًا لتنفّس عن بركانك. صدّقني يا بدر، غدًا عندما تهدأ ستحمد الله لأنّك لم تتسرّع.

– خديجة، الأمر لديّ محسوم. إن لم أقتصّ من خالد عبّود، فلن يهنأ لي عيش. انتهى.

تنكّس خديجة جذعها، فينقّل بدر ناظريه بين مقاعد الصّف المقابل، حيث يجلس كلٌّ من علي وعائشة وبتول وسارة وخليل،

جنبًا إلى جنب. غير أنّه لا يجرؤ على النّظر طويلًا إلى أولاده. يشعر بأنّه إن أطال النّظر، فسيطول الفراق. وحده ابنه البكر علي يحسّ باضطراب أنفاسه رغم المسافة. يتحوّل نحوه، ويسدّد إليه نظرةً فيها من الورد بقدر ما فيها من الرّصاص. في الليلة السّابقة، سمعه علي يحكي وخديجة من جديد في موضوع السَّفرة. فباغتهما ودخل المطبخ مقطّبًا، شاهرًا سؤاله: «سنسافر من دونك؟!». أفهمه بدر أنّ لديه أمورًا عالقة حالما يسوّيها سيلحق بهم إلى السّعودية. «بابا لا تكذب. لقد سمعتكما. أما عدت تريدنا؟ كيف ستتركنا وحدنا؟». خجل بدر من نفسه. خانه الكلام. أدرك أنّ ابنه البكر لم يعد صغيرًا لتنطلي عليه الكذبة، كما انطلت على باقي إخوته. لكنّه في ذات الوقت، كان مقرّرًا عدم البوح لأيّ أحد بما يدور في خلده، فكتّف يديه مطرقًا، بصمت، بينما خرج ابنه غاضبًا من المطبخ.

والآن، ها هو علي، على بعد ثلاثة أمتار منه، يرمقه بذات نظرات البارحة، النّظرات التي تغالب، رغم حنقها، حبًّا وقلقًا. ربّاه! كيف يتجشّم توديع رجل العائلة الثّاني وهو غاضب منه؟ ماذا لو فشلت الخطّة لا قدّر الله؟ هل سيتمكّن عندها من تحمّل ذكراهما الأخيرة قبل الفراق؟ لا. يجب أن يحاول حالًا رتق هذا الشّرخ.

– علي، تعال.

يقف بدر مومئًا له. فيقوم ابنه (كم يذكّره بنفسه وهو صغير!)، زامًّا شفتيه.

– الحقني.

يتبعه علي. يجلس جنبه على صفٍّ آخر من المقاعد، فيما تقوم خديجة نحو أبنائها، وتجلس مكان علي.

– سأحكيك الآن يا علي بصفتك رجل البيت من بعدي. صرت تعلم أنّني باقٍ هنا ولن ألحق بكم كما أخبرت إخوتك. لكنّي لا أكذب عندما أقول إنّكم ستعودون إليّ في أقرب وقت. علي، لقد قرّرت إبعادكم عن البلد هذه الفترة لأنّ الوضع ليس على ما يرام. أنت تعلم أنّي دخلت السّجن مرّتين ظلمًا. وتعلم أنّ سمعتنا في الحيّ لم تعد مثلما كانت. ولا أستبعد أن تكون سمعت من أصدقائك وزملائك في المدرسة تلطيشات تعيّرك بأبيك. في أيّ حال، هذا الوضع المزري سينتهي. أعدك بأنّي سأصلح كلّ ما تهشّم من سمعتنا. والأهمّ من هذا كلّه، أعدك أنّ أباك سيغدو بطلًا، في عينيك، وفي عيون النّاس. حياتنا كلّها ستتغيّر! لذا، أرجوك، لا تغضب منّي لأنّ غضبك يثبط عزيمتي. ثمّ إنّ هذه التّكشيرة لا تليق بوجهك الجميل.

رغم ابتسامته، لا يتمالك علي أن يبكي على كتف أبيه وهو يضمّه.

– سأشتاق لك يا بابا.

– لا تقلق. أعدك، سأجعلك تملّ صوتي؛ سأتّصل بكم كلّ ساعتين ليطمئنّ قلبي.

– يعني ما زلت تحبّنا وتحبّ أمّي؟

– وهل لديّ سواكم لأحبّ يا علي؟ أنت وإخوتك وأمّك كلّ ما أملك. انتبه عليهم في غيابي. إنت قدّا وقدود.

تغرورق عينا بدر داعيًا الله بقلبه ألّا يخذله، وأن يجمعه بعائلته عمّا قريب. تغرورق عيناه ويكاد ينهار أمام حبّ ودفء علي، لولا أن تلتقط عيناه وجهًا لا يتمنّى أن يراه، خصوصًا في لحظات حميميّة كهذه.

– علّوش لا داعي لأن تبكي. أحبّك!

يطبق بدر على جفنيه فجأةً لامتصاص دموعه، ويضمّ ابنه إليه أكثر بعد، متمنّيًا ألّا تكون أخته رأته أيضًا. لكنّها فعلت. تقترب منهما وتقول:

– ولو؟ تدفن رأسك متحاميًا رؤية أختك، بدل أن تضمّها كما تضمّ ابنك وتشكرها على معروفها؟ يا أخي لا تضمّني. ولا تشكرني. أقلّه، ارفع بيدك لي. أَلْقِ عليَّ السّلام. عرّفني إلى ابنك. أخبره أنّي عمّته!

يفتّح بدر عينيه، مُبعدًا ابنه عنه:

– حبيبي اذهب إلى أمّك وانتظرني. سألحق بك.

يقوم علي واقفًا (دموعه لم تنشف بعد) ويهرع نحو أمّه.

– للمرّة المئة أقولها لكَ، الحقّ مش عليك. كنت أظنّ أنّ أمّي ظلمتني أنا وحدي. لكن في ما بعد أدركت أنّها ظلمتك أنت أيضًا. كبّرتك كثيرًا حتّى صرت تعتبر أنّ كلمة شكرًا انتقاص للرّجولة.

يقف بدر على حياد من وجدانه. لا يعرف أيّ شعور يجب أن يُريَه. إنّ موقفه من ندى لن يغيّره شيء، ولا حتّى مساعدتها له في إخراجه من السّجن. هو لم يطلب منها المساعدة. أخته لميا فعلت. فعلامَ يشكرها؟

– هل خلف صمتك جوهرة تختمر أم أنت خرست؟

ترفع ندى عن عينيها النّظّارة الشّمسيّة السّوداء لتستقرّ أعلى رأسها.

– شكرًا! ارتحتِ الآن؟

تهتف ندى مطلقةً ذراعيها للهواء:

– أترى؟ الكلمة لم تأكل من لحمك شيئًا!

يرمقها بدر بامتعاض، متفحّصًا بيجامتها الرّياضيّة السّوداء، وإسبادرينها الأبيض:

– أتودّين شيئًا بعد؟

لا تلحق ندى أن تجيبه، إذ تقطع خديجة اللحظة وتقول متوجّهةً إليها:

– شكرًا لكِ. فضلكِ هذا لن أنساه ما حييت.

يسدّد بدر إلى خديجة نظرة غضب بكر، مسبلًا ذراعيه إلى جانبيه.

– العفو (تقول ندى، ثمّ تتوجّه إلى أخيها). تعلّم مسيو بدر؛ هيك بتكون المعاملة.

– لا بأس ندى. لا تعتبي على أخيك. بدر ليس في أفضل حالاته اليوم. إنّه حزين لأنّنا سنسافر من دونه.

ترفع ندى حاجبيها كمن يطلب تفسيرًا.

– سأذهب والأولاد إلى أقارب لي في السّعودية وسيبقى هو هنا. لديه أشغال.

– توصلوا بالسّلامة.

– الله يسلمك. وأنتِ تراك مسافرة؟

– أجل، بعد قليل.

– أبلغي زوجك وحياة سلاماتي إذن.

تبتسم ندى، مستغربةً التّحوّل الذي طرأ على خديجة. فحسبما تذكر، قبل ثلاثة عشر عامًا، حين كانت خديجة مخطوبةً إلى بدر، وغير محجّبة، كانت شخصيّتها مكمّلةً لشخصيّة أخيها. في أيّ حال، أن تكون خديجة مختلفة عن بدر هو بشرة خير، إذ من غير الجائز ألّا تجد حقول الخسّ في رأس أخيها من يقطفها.

– حسنًا، آن أن أودّعكما.

– انتظري، كنت سأعرّفك إلى الأولاد.

– آسفة. طائرتي ستقلع بعد ساعة. عليّ أن أختم جواز سفري وأشتري بعض الحاجيات. سأتعرّف إليهم المرّة المقبلة، أعدك.

– إن شاء الله توصلي بالسّلامة.

– أشكرك خديجة. وداعًا. (تلتفت إلى أخيها) أتمنّى حين ألقاك المرّة المقبلة أن تكون تعلّمت ولو درس لباقة من زوجتك. Bye Bye.

ترجع ندى نظّارتها إلى عينيها، تسوّي موضع رباط حقيبتها المتدلّية على كتفها، وتحثّ خطاها بعيدًا، متواريةً بين زحام المتوجّهين إلى نقطة جهاز الأمن العامّ.

– لمَ فعلتِ هذا؟

يقول بدر بحزم.

– ماذا فعلت؟

– خديجة لا تتغابي.

– وهل شكري لأختك التي أعطتك حرّيتك خطأ؟

– لم يكن هناك داعٍ لكلّ ذاك اللتّ والعجن. ألم تري مدى سماجتها؟

– المخلوقة تحاول أن تناكفك وتتقرّب منك، لعلّك تلين قليلًا.

– بلّا شو؟ ماذا حدث للّتي كانت تعتبر ندى نقطة سوداء في سجلّ العائلة؟ وقبلها بسنوات، كانت تحضّني على غسل شرفنا بدمها؟

– تلك المرأة المخبولة كبرت وكبّرت عقلها وقلبها.

– سبحان الله.

– سبحانه ألف مرّة. أتدري يا بدر؟ مساعدة أختك لك أكبر دليل على أنّها تحبّك. فَلِمَ لا نبادر بخطوة للتّقرّب منها؟ كما عادت المياه إلى مجاريها بيني وبين لميا وأمّك، سأعمل على إعادتها بيني وبين ندى. حتّى لو رفضت حضرتك. صدّقني، لو لم تكن أختك إنسانة طيّبة، لما فكّرت في مدّ يد العون لك.

– أقسم يا خديجة، لولا أنّي مقبل على توديعك خلال دقائق، لما كنتِ رأيتني أميد معك في هذه السّيرة المنتهية عندي منذ زمن!

– أتمنّى بالفعل أن تجرّب معنى الوحدة حين نغادرك. عساك تدرك ماذا يعني أن تكون لديك أمٌّ وأختان أنت على خصام معهنّ.

– هل أنت زوجتي التي كانت تحرّضني على أمّي؟!

– يا بدر، عندما دخلتَ السّجن قيد التّحقيق أوّل مرّة، تلبّسني الذّعر. نظرت إلى أولادنا وتساءلت، من سيعتني بهم لو حلّ بي مكروه؟ وعندما دخلت السّجن مرّةً أخرى بتلك التّهمة الغبيّة، أدركت أنّه ليس لنا سوى عائلتك معيلًا. عائلتك التي رغم كلّ ما ارتكبنا كلانا بحقّها، استقبلتني بصدر رحب شرّع أبوابه على فرص جديدة. أتمنّى حين تخلو إلى نفسك الليلة، أن تعيد النّظر في كلامي. عسى تفهم مقصدي.

يتلمّظ بدر ويشيح بوجهه في محاولة منه لإنهاء الحديث:

– إن شاء الله خير.

– كلمة أخيرة بعد. انظر هناك (تشير خديجة بسبّابتها خلف كتفه). إنّها ندى. أَدرِكها قبل أن تصل إلى شُبّاك موظّف الأمن العام. ودِّعها فقط. والله ما فيها شي هالدّني لنحقد هيك على بعض.

12

على باب الغرفة 414 الموضوعة تحت حراسة دركيّ مسلّح عيّنه جهاز الدّولة الأمنيّ، تنتر أمّ بدر كتف لميا:

– أأنت متأكّدة ممّا تفعلين؟

تفلت لميا مسكة الباب. تستدير نحو أمّها متنهّدةً:

– هلّا تركتني أدخل، أرجوك؟

– أخشى يا ابنتي أن تنهاري أمامه. أنت أدرى بخبثه وكلامه اللاسع.

– لقد صار أعمى يا أمّي. هو من يجب أن ينهار.

– دعيني أدخل معك. سأجلس بعيدًا منكما. لن أفتح فمي بكلمة!

– سأدخل وحدي.

– طب... أخبريني ماذا ستقولين له؟

– لا شيء مهمًّا. سأخبره قصّةً فقط.

– تقصدين ما رأيته في الغيبوبة؟ لن يصدّقك. بالطّبع سيهزأ!

– ما رأيته في الكوما كان حقيقيًّا، والدّليل ما بشّرتني به سوسن عن هلال.

– لا أختلف معك في ذلك ولكن... لا يهمّ. فقط احذري. لا تعرّي نفسك أمامه.

تضحك لميا:

– يا أمّي لن يستطيع أن يرى شيئًا، حتّى لو وقفت أمامه كما خلقتني يا ربّ!

ثمّ تتوكّل على الله وتدخل، مغلقةً الباب خلفها بهدوء.

لقد فكّرت كثيرًا قبل هذه الزّيارة. حتّى إنّها كتبت في رأسها سيناريوهين لـما يمكن أن يحدث. في الأوّل تخيّلت الأسوأ: تأتي هلال ضعيفةً، يهزأ بها، يشمت بموت سوسن، يسألها عمّا ستفعل بحياتها في غيابه، يسخر لكونها رجعت إلى بيت أهلها فقيرةً، يسألها متى ستتزوّجين وتنجبين، ثمّ يذكّرها بأنّه لا أحد سينظر إلى امرأة مجنونة في الخامسة والثّلاثين تتناول عقاقير الأعصاب، حتّى هو، الأعمى، لن ينظر إليها، ولن يطلّقها حتّى لو رفعت عليه دعوى لا تستطيع تحمّل نفقاتها، هكذا ستضيع منها الكلمات، فتدور على عقبيها منهارةً، عائدةً من حيث أتت. لكنّ هذا السّيناريو مصيره التّلف. اليوم، ستنفّذ السّيناريو الآخر، الذي ينتهي بانتصارها.

نفسٌ عميق. بسملة. تشدّ هامتها الـمُسبلة. تسير بخطى شبه ثابتة إلى الأمام. شيء من الخوف يثقل صدرها مع اقترابها من الجسد الصّغير المسجّى تحت حِرام.

على بعد ثلاث خطوات من يسار السّرير تتوقّف. أوكسيجين رئتيها يكاد يتوقّف أيضًا.

النّصف الأعلى من وجه هلال مغطًّى دائريًّا بضمادات وشاش. ويده اليسرى موصولة بكيس مصل. تهدأ. عدم رؤية عينيه هو

لمصلحتها. إنّه نائم – تحدّث نفسها. لكن سرعان ما تصدر عن يده حركة ملحوظة، فتتوتّر. تحاول استجماع قواها. تروح تمنّي نفسها: لن يفعل شيئًا، لقد صار أعمى، أنت المتحكّمة هنا!

تُفاجأ بالكلمة تغادرها واطئة النّبرة:

– كيفك؟

دون أن ينزل عينيه عن سقف الغرفة:

– كنت بانتظارك.

تتكهرب.

– بانتظاري؟

يهزّ هلال رأسه، بحركة طفيفة لا تكاد تُرى.

– هل تشعر بألم؟

– ألمي أنّي لا أستطيع أن أراك.

– ماذا قال لك الطّبيب؟

– وهل يعنيك الأمر؟

– كان مجرّد سؤال.

– أتعلمين يا لميا؟ لطالما وددت أن أقتلع عينيّ، لِئلّا أرى قبح الحياة.

– ها قد تحقّقت أمنيتك. أأنت راضٍ الآن؟

– ليس كثيرًا.لم أكن أعلم أنّ فقدان البصر يقوّي الذّاكرة. ولسوء الحظّ، القبح كلّه مخزّن فيها.

– ماذا تعني؟

– عيني الخلفيّة، الذّاكرة، كما يقولون، قويت على حساب عينيّ الأماميّتين. العتمة التي كنت أخشاها صارت أشدّ اسودادًا. والماضي أكثر وضوحًا. بتّ أرى قبحه مُفصّلًا.

– تضحكني يا هلال. بعد كلّ ما فعلت تريد إيهامي بأنّك كنت مُعذَّبًا، لا مُعذِّبًا؟ ماذا تعني أنّ ذاكرتك بشعة؟ أنت من تصنع الذّاكرة، لا العكس.

يبتسم هلال. يتنهّد:

– نحن لا نملك أن نصنع ذاكرتنا. إنّنا صنيعُها.

– عن أيّ ذاكرة تتحدّث بالضّبط؟ عن اغتصابك لما يفوق العشرين طفلًا؟ أم عن قتلك لابنتك، وفرارك بدم بارد؟!

– أنتِ لا تعرفين شيئًا.

– خبّرني إذن. أيّ ذاكرة قد تصنع من الإنسان مجرمًا؟

لا يملك هلال سوى أن يصمت، غارزًا أسنانه بشفته السّفلى.

– مهما قدّمتَ للعالم ذرائع، فلن تعدو في نظر الله كونك ظالـمًا، بلا قلب. بانتظار هلال أن يجيبها، تجلس لميا على الكنبة. بعد صمت طويل تستسلم. تقول:

– إن كنت لا تودّ الحديث، أنا سأفعل.

تسوّي طبقات حجابها. ثمّ تكمل:

– منذ زمن بعيد يا هلال، كان عمّك، أي أبي، يصحبنا أنا وبدر إلى الصّيد. لم أكن أحبّ هوايته الدّمويّة تلك، لكنّي كنت أسعد لرؤيته سعيدًا بما يجيد ويحبّ. أذكر أنّ أحد مشاويرنا كان إلى جبل غامق التّربة، مشجّر بالزّيتون والصّنوبر. كلّما سرنا بضع خطوات، كانت تطالعنا أكوام تراب نافرة، متقاربة، كأنّها بثور في وجه الأرض. كان المنظر هائلًا. في البداية ظننتها، بما أنّنا كنّا نعيش أيّام حرب، من صنع الصّواريخ الإسرائيليّة. لكن عندما سألت أبي ما هي، قال إنّها من صنع الخُلد. كنت صغيرةً، ولم أكن أعرف ما هو الخُلد. أبي كذلك لم يكن رأى الخُلد في حياته. كلّ ما كان يعرفه هو أنّه حيوان صغير

من الثّدييّات، يستوطن باطن الأرض، ويقتات بالحشرات والدّيدان. حسبما أذكر أيضًا عن لسان أبي، الخُلد كائن أعمى. لأنّه يعيش في الأنفاق، اعتاد الظّلام ففقد بصره. عند ذاك زادني كلام أبي فضولًا. وددت لو أرى الخُلد. لكنّ أبي نصحني بألّا أتعب نفسي لأنّي لن أراه. سألته لمَ؟ قال إنّ هذا الكائن ماهر في الاختباء، لا يخرج من جحره إلّا ليلًا، لأنّه أعمى من أن يحتمل ضوء الشّمس، وأعين النّاس. ثمّ تعاقبت السّنوات. تزوّجتك. تبيّن لي في النّهاية أنّ أبي كان مخطئًا. فقد اختبرت حياة الخُلدان بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى. لثلاثة عشر عامًا عشت مع قارض اقتات على أعصابي. فتّتني. ولعنت اليوم الذي تمنّيت فيه رؤية الخُلد، إذ إنني عضضت أصابعي ندامةً ساعة فعلت. رأيت الخُلد فيك يا هلال. أنت الخُلد. الفارق الوحيد بينكما ربّما هو أنّه أعمى، بينما أنت أعمى وأصمّ. عشت حياتك ظانًّا أنّه لا آذان ستسمع صراخ أولئك الأطفال، عشتها ظانًّا أنّك بمأمن من الحقيقة في مملكة الجحور التي تواريت فيها وجرائمك. لكنّ الله كبير. والحقيقة مصيرها الظّهور. أنت الخُلد الأصمّ يا هلال. وما دمت تتأبّى على الاعتراف بالحقيقة، فإنّك ستظلّ مثله، أعمى للأبد.

سكون. سكون طويل يخلّفه كلام لميا. يخرقه هلال لحظة يلتفت إليها معتمدًا على مصدر الصّوت الذي ظلّ صداه يرنّ في أذنيه:

– ثمّة طريقة واحدة تنتشلني من العتمة.

– التي هي؟

– أنتِ.

تتّسع عينا لميا. لا تفهم. تطلب استيضاحًا.

– أنتِ الوحيدة القادرة على إرجاع البصر لي.

– أنا؟ كيف؟

– عودي لي زوجةً.

تضحك لميا. تضحك عاليًا:

– ماذا؟ أعود زوجتك؟ أتمزح؟!

– لا لا أمزح. أريد الزّواج بكِ، وفي حفل زفاف جديد. عسى ننجب سوسن أخرى.

– تريد سوسن أخرى لتقتلها؟!

– لا. أريد أن أصلح نفسي. أريد أن أتعلّم كيف يحبّ المرء. ولا طريق آخر لذلك سوى بعودتنا زوجين.

– أنت مجنون فعلًا.

– أقسم لكِ سأتغيّر. أعطيني فرصةً فقط. سأكتب باسمك كلّ ما أملك. ستكونين سيّدة المنزل. سننجب معًا دزّينة أولاد. وإن أردتِ أن تعيش أمّك معنا، فلن أعترض. صدّقيني. أَلَم تسأليني قبل دقائق ما الذّاكرة التي صنعت منّي مجرمًا؟ وافقي فقط، وسأخبرك. إنّي مستعدٌّ لأن أبدأ رحلةً جدّية من العلاج النّفسي. إنّي مستعدّ لأتعرّى أمامك من كلّ أقنعتي يا لميا. لقد اختنقت في جحري ما يكفي من الزّمن. آن أن أخرج إلى الضّوء، إلى الحبّ، إلى الحياة. لا أريد أن أموت مقتولًا بجرعة زائدة من الكراهية. أودّ لو أقتلها بداخلي قبل أن تقتلني. أرجوك لميا، وافقي.

تتّسع عينا لميا الملوّنتان أكثر بعد. لا تدري إن كان هلال يحكي بصدق أم يكذب كعادته. تودّ لو تنزع عن عينيه الضّمادات لتتحقّق من الأمر. ثمّ لا تلبث أن تتذكّر: أليس جنونًا أن تفكّر بعرض الزّواج مجدّدًا... بقاتل ابنتها؟!

– كفاكَ يا هلال. لقد خدعتني ما يكفي. أأنا غبيّة في نظرك لهذه الدّرجة؟

ينشج هلال باكيًا. يرفع جذعه بصعوبة. يسبل ساقيه البيضاوين النّحيلتين فوق حافة السّرير:

– أدركتُ أخيرًا أن لا فرق بيني وبينه. مهما أنكرت، فأنا ما زلت عائشًا في جلبابه. أنا يا لميا حيوان مثله. أنا هو! وكلّ ما أقنعتُني به لأكفّر عن ذنوبي كان هراءً هراءً هراء!

صدمة لميا به تدفعها قائمةً. تهمّ بالرّحيل:

– أنا لا أعلم عمّا تتحدّث. اسمع. لا أنا ولا غيري يستطيع مساعدتك. أنت يا هلال من تغيّر بنفسك. كلّ ما كان لديّ قلته. والآن اعذرني. سلام.

– أعطيني فرصةً يا لميا. فرصة واحدة. انتظري. أرجوكِ لا تذهبي. لا تدعيني وحدي.

تحثّ لميا خطاها خارجةً إلى الرّواق. تغلق خلفها الباب. تنكتم توسّلات هلال.

– لميا، أنت بخير؟

تسرع أمّها نحوها.

– الحمد لله. هيّا بنا.

تتسارع خطوات لميا نحو المصعد. تحاول أمّها إدراكها:

– مهلًا!

تكبس لميا زرّ المصعد.

– لمَ تركضين هكذا؟ ماذا حدث؟

– سأخبرك في السّيارة.

في المصعد:

– لميا، لا تنسي أن تتّصلي بخديجة لنتأكّد إن كان بدر في البيت.

تهزّ لميا رأسها، من غير أن تنظر إلى أمّها.

على مدخل المستشفى:

– لن تتخيّلي مدى حماستي. أتعتقدين أنّ بدر لان قليلًا في هذه الزّيارة؟ هل سيُسرّ بنا أم سيكون مكشّرًا، كما في الزّيارتين السّابقتين؟

لا تكاد لميا تفتح فاها لتجيب، حتّى تنطلق صرخة مدوّية تشقّ زرقة السّماء المائجة. تلتفت ذات اليمين وذات الشّمال لتتبيّن مصدر الصّوت. ترى النّاس يتدافعون بجنون تجاه شرق المبنى. تهرع وأمّها بفضول نحو التّجمّع البشريّ الهائل تريد أن تتحقّق. تصدّ رؤيتَها الأكتاف المتلاصقة التي شكّلت حلقةً محكمة الانغلاق. تروح تشقّ بيديها طريقًا بين النّاس، حتّى تصير في المقدّمة.

– الله أكبر. أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله.

تضع يدها على فيها. عيناها تحاولان عبثًا تكذيب المنظر.

أمّها التي تصير خلال لحظات إلى جوارها يهالها مشهد الرّأس شبه المفصول عن الجسد، وكلّ تلك الدّماء الحمراء السّائحة. تتأوّه:

– الطف يا ربّ! من يكون ذا؟

رغم ضجيج النّاس وجلبتهم، تصير لميا في معزل عن السّمع. لا تدري كم من الوقت تظلّ جامدةً مكانها، تحدّق مشدوهةً وسط الفراغ، والتّأنيب يلوك ما بقي لديها من أعصاب.

هلال انتحر.

لا أحد ينتقي قبره

«إنّنا دائمًا عميان حين يتعلّق الأمر بما هو في متناول يدنا.
ونفتّش عنه دائمًا في البعيد. ونخسر مرّتين. الكنز والزّمن.»

غادة السمّان

1

لا ومُنزِل التّوراة ما خطر له أن تكون بهذا الذّكاء، تلك السّاقطة. ظنّ أنّها بإخراج شقيقها السّلفيّ من السّجن، لن تعاود الإتيان على سيرة علاقتهما الغابرة، ولا سيّما أنّه تأكّد من مصادره من حقيقة زواجها، ومن إقامتها الحاليّة في أميركا إلى أجل غير مسمّى، لمتابعة علاج ابنتها من حالة نفسيّة صعبة. لكنّه، كصيوده السّهلة، وقع في الشّراك. شراك ظنونه، هذه المرّة.

قبل ساعتين، بينما كان آدم يتنقّل ضجِرًا بين القنوات التّلفزيونيّة، استرعى سمع خالد صوتٌ في غاية العذوبة، يغنّي شيئًا من إرث الزّمن الذّهبي. رفع عينيه عن كتاب بروس هوفمان «داخل الإرهاب»، وضعه جانبًا، وطلب من ابنه رفع الصّوت.

كانت هي؛ ندى. تحلّ ضيفةً على برنامج عربيّ حواريّ مُسجّل. لفته ثوبها النّيلي، هدوؤها، ووضعيّة جلوسها شبه المدروسة؛ كأنّما تعلّمت من أخطائها في لقائها السّابق معه. شيء ما دفعه إلى اتّخاذ قرار بمتابعة الحلقة، هو الذي يشمئزّ من البرامج العربيّة وتفاهة محتواها. بإمعان لم يجد له تفسيرًا، أصغى إلى أمور لا تعنيه، لا تخصّه، ثرثرة وأخبار شخصيّة ينظر إليها في العادة على

أنّها سطحيّة، لا تقدّم للبشريّة شيئًا. لكنّه أكمل المتابعة. كان يسعد عندما تطلب المحاورة من ندى أن تغنّي. إنّ صوتها، دون أدنى شكّ، ماسيّ، من كوكب آخر. لكن حين شارفت الحلقة على الختام، حدث ما لم يكن في حسبان إبليس. غلظت شرايين أنفه الخاضع لعمليّة سحل غضروف تجميليّة، آبيًا التّصديق. أمام أربعة ملايين لبنانيّ، راحت تلك المخلوقة تروي ذات القصّة التي سمعها يوم التقاها أوّل مرّة. وهي تميد بروايتها، شعر بأنّه استقلّ باصًا دون سائق، دون فرامل، يطير به بهيستيريّة فوق أخطر المنزلقات. كالأبله جعل يأمل أن يبقى بطل قصّتها مجهول الاسم. لم يكن بوارد أن تلتصق به فضيحة نسائية، يستغلّها الإعلام السّياسي الخصم ضدّه، هو الذي أمضى عقدًا يصنع لنفسه اسمًا أنظف من ماء السّماء. لكنّ الأمل طعنه. إحدى عشرة مرّة تردّد على لسان الحقيرة اسمه المستعار، أمّا اسمه الحقيقيّ فتردّد ثماني مرّات. ولتكتمل سخرية القدر، ليت الفضيحة توقّفت هنا، عند علاقتهما الغابرة التي يستطيع تكذيبها لاحقًا بكلّ سهولة. بل كبرت وتضاعفت وأنجبت فضائح أخرى عن شهادته المزوّرة وثروته الفجائيّة وعمليّات التّجميل التي خضع لها، فضائح ستضطرّه إلى الاستعانة بأسياده لتكذيبها بحُجج ملموسة، لا يملكها هو في الوقت الحاليّ! لبنان بأسره غدا على يقين بأنّ كلّ ذاك الدّخان الذي صدر دفعةً واحدة ليس من سراب. إنّه نتيجة نار خفيّة موقدة، لن يبقى مخلوق إلّا سيتحرّى عنها!

الثّانية عشرة والنّصف بعد منتصف ليل الخميس 29 تموز. حتّى الآن، ما كفّ عن الرّنين أيّ هاتف في المنزل؛ هاتف مكتبه. جوّاله. جوّال ابنه. حتّى جوّال ديانا التي عرفت القصّة من أمينة سرّ

جمعيّتها النّسويّة على طاولة عشاء خيريّ. رنين! رنين! رأسه يكاد ينفجر. ورغم طمأنة ديانا وآدم له بأنّ الأمر لا يستدعي منه كلّ هذا القلق، لا يبارحه القلق. القلق لا من كيفيّة نفاذه من القصّة، فهذا طبعًا أمر ليس بالصّعب، بل من كيفيّة أخذ الحيطة من الهزّات الارتداديّة المقبلة. إنّه قلق من المستقبل. فهذه الزّلة الصّغيرة يمكن أن تجلب معها على المدى البعيد تبعات وخيمة أكبر. تبعات لن تردع أسياده عن اتّخاذ قرار بالتّخلّص منه، هو البئر العميقة التي تحوي أسرارهم. تُرى، ماذا سيكون ردّ فعلهم حين يستنجد بهم؟ أم هم سيبرقون له غدًا من تلقاء أنفسهم؟

رنين! رنين!

يخرج من الحمّام بعد دوش طويل ساخن، ويخلد إلى سريره. يجد ديانا بانتظاره، تقرأ في رواية أميركيّة بعنوان «عدّاء الطّائرة الورقيّة». تضعها جانبًا على طاولة السرير، وتسلم يدها إلى صدره تهدّئ من روعه:

– فيك شيء من أمير، بطل هذه الرّواية.

لا يحرّك خالد ساكنًا. تظلّ أنظاره شاخصةً إلى السّقف، كما لو أنّها تحاول سنْده لِئلّا يتداعى.

– ألستِ زعلانة منّي؟

– أتقصد بسبب تلك المرأة؟ حبيبي، لو نمت مع نساء الكون كلّهنّ، وحبّلتهنّ واحدةً واحدة، لما رفّ لي جفن. أنا مؤمنة بما ربّيت. في النّهاية ليس لك أحد سواي. تذكّر: إن كنتَ أنت الرّأس، فأنا المينورا [1] أعلاه. وإن كنتَ أنت نجمة داوود، فأنا الإسمنجوني [2]. أحدّك من كلّ الجهات. (تضحك بإغراء) Come on، لمَ كلّ هذا القلق؟

(تنزل بأصابعها تحت اللحاف عابثةً بمنطقته الحسّاسة) من لديه خصيتان بهذه الضّخامة، يجب ألّا يعرف الخوف.

لا يتمالك أن يطلق ضحكة.

– أخيرًا رجع خالد. My Khaled.

ترفع عن جسدهما اللحاف وتعتليه، كما في كلّ التحام حميميّ بينهما.

– مجنونة.

– وهل مَن يعرف أن يحيا سوى المجانين؟

تهوي على شفتيه بالقُبل. لا يستطيع ردعها. كيف تُرتدع من في يديها لجامه؟ رغم ضيق صدره، تشعله رغبةً. ينتصب. لم يُثَر هكذا منذ زمن. حياته الصّاخبة وجدوله المزدحم دومًا سرقاه من نفسه. أحيانًا، يعنّ له أن يترك كلّ شيء خلفه، ويهرب مع أنيتا، لا ديانا، وإيهود، لا آدم، إلى جزيرة نائية وسط البحر الكاريبي، لا تقربها المشاغل والهموم، يقضي فيها بصحبتهما ما بقي له من عُمر. لكن سرعان ما يفيق ويمتنع عن الخوض في المزيد من الأوهام. مجرّد التّفكير بالفكاك من خالد عبّود يمكن أن يكون بداية النّهاية. هذا هو أهمّ درس علّمه إيّاه أسياده.

– لَم تقولي لي، بمَ أشبه أمير، بطل الرّواية؟

– في شيء واحد فقط.

– الذي هو؟

– ستظلّ تعدو، ولن يردعك أحد، ما دمت أنا الطّائرة الورقيّة التي تعدو معك.

كانت ديانا، على عكسه، قد صارت عاريةً بالكامل. من عليائها، تتراءى له نجمةً. شمسًا. إلهةً. يشتهي أن يحترق فيها. أن يصلب

نفسه على مذبح نهديها. فيترعها من الحبّ ما يكفي لأن يفجّر كونًا بأكمله. لكنّ الشّبق، رغم انفجارهما، يأبى أن ينطفئ. حتّى بزوغ الفجر، يظلّ نثارها متوقّدًا، يعفر في خلايا صدره التَّعِب.

كما توقّع بالضّبط؛ الخبر أضحى لسان حال وسائل الإعلام بأنواعها. صحف وبرامج إذاعيّة ونشرات تليفزيونيّة، كلّها تمضغ سيرته. والرّنين كخياله، يلاحقه كيفما اتّفق. لا يجد خلاصًا من قلقه في الصّباح الباكر سوى بالخروج إلى شرفة مكتبه في الطّابق الثّاني.

يمسك بالدّرابزين. يلقي نظرةً صوب الأفق. يتبدّى له البحر بعيدًا. أبعد ممّا هو عليه في الواقع. يودّ لو يتجنّح بأفكاره ويطير فوق المياه. يذوب فيها. أين أنيتا، بحره الإسمنجوني؟ قبل قليل ودّعته إلى اجتماع طارئ مع هيئة جمعيّتها. وعدته بأنّها فور رجوعها، ستراسل إدارة الموساد للتّباحث معها في القضيّة ووضع خطّة مناسبة تخلّصهما منها.

يتحقّق من ساعته؛ التّاسعة صباحًا. يباغته منظّم مواعيده قاطعًا عليه خلوته:

– عذرًا دكتور، الاتّصالات الواردة إلى المكتب من السّاعة الثّامنة فقط قاربت العشرين اتّصالًا، فضلًا عن الاتّصالات البائتة من البارحة. هل تودّ تغيير رأيك واستقبالها؟

في هذه اللحظة، يتنبّه إلى أنّه لا يستطيع أن يميد أكثر بصمته. النّأي بالنّفس دليل تورّط. عليه أن يبدأ بالمواجهة. والخطّة الدّبلوماسيّة المعتادة: الإنكار.

– بعد نصف ساعة من الآن ابدأ بتحويل جميع الاتصالات. ولا تلغِ مواعيد اليوم. لقد عدلت عن رأيي.

– حاضر، لك ما أردت، لكن...

– ماذا؟

– ثمّة رجل اتّصل بنا يقول إنّه فاعل خير، ويريد مساعدتك في حربك ضدّ ندى.

– أقال هذا حقًّا؟

– أجل. ارتأيت أن أخبرك بالأمر، لعلّه يهمّك أكثر من غيره.

– ماذا قلت له؟

– أعطيته موعدًا بعد أربعة أيّام.

– أيمكنك أن تجعل موعده اليوم؟

– لا أعتقد...

– أنا لا أسألك رأيك! أَوْجِد له موعدًا الآن!

يهزّ الرّجل رأسه الـمُنكّس، وينصرف بإيماءة إصبع.

قرابة الثّانية عشرة ظهرًا، يدخل الدّكتور عبّود ببدلة كحليّة غامقة إلى صالون قصره، محيّيًا ضيفه ذا القامة القصيرة، والكرش الكبير، والعينين الغارقتين في محجريهما:

– أهلًا وسهلًا بك أستاذ...

– أدهم وهبي. شرف كبير أن ألتقي بسعادتك.

يجلس الاثنان متقابلين. ملامحهما تشي برغبة عارمة في ولوج الموضوع مباشرةً.

– أعلم أنّ وقتك ضيّق، فاسمح لي أن أتكلّم دون مقدّمات.

– هاتِ ما عندك.

يسلم أدهم وهبي ذراعه اليمنى مسند الكنبة. يقول بلهجة ذات معنى:

– ندى. بحوزتي ما يمكن أن يفيدك لتقضي على صورتها كمطربة.

ينشب خالد عبّود السّبابة والوسطى من أصابع يده اليمنى مشمئزًّا، لا من سيرة ندى، بل من رائحة الويسكي الرّديء النّوع، التّي تنبعث من فم ضيفه:

– ماذا لديك؟ أطربني.

– ندى، قبل ثلاثة عشر عامًا، بدأت مسيرتها كناتاشا، مغنّية في الملاهي الليليّة والبارات وسط العاصمة.

– وبمَ يفيد هذا؟

– زبدة الموضوع أنّ لديّ شريطًا قصيرًا يظهر رجلًا ملتصقًا بها، يتحسّس جسدها، ينزع عنها الصّدريّة، ويدفعها أرضًا. وثمّة أشرطة أخرى تظهرها تغنّي إمّا في ثيابها الدّاخليّة أو عاريةً أمام المرآة.

يعابث خالد عبّود ذقنه الحليق. يقول مفتعلًا لامبالاة:

– ظننت أنّ لديك شيئًا ذا قيمة...

– وحياتك، الأشرطة بمنتهى الأهمّية، لن تتخيّل ما هي قادرة على إلحاقه بندى.

– لا أدري...

– دكتور، فكّر بالموضوع. وحياتك لن تندم. ستقضي على صورة ندى بخطوة بسيطة، ومبلغ زهيد. لن أطلب الكثير، وحياتك.

يصمت الدّكتور حال دخول العاملة الفيليبينيّة مع كوبي عصير برتقال. وحال خروجها يقول:

– ماذا تعمل حضرتك؟

– مدير أعمال موسيقي.

– دعني أُخمّن. كنت سالفًا مدير أعمال ناتاشا؟

– صحيح.

– يعني تركتك. والآن تريد الانتقام منها.

– شيء من هذا القبيل.

– يبدو أنّك تكرهها.

– كرهًا أعمى، وحياتك.

– إذن لم انتظرت حتّى اليوم لتنتقم منها؟

– وماذا كان سيجلب لي الانتقام؟ أمّا الآن وقد دخلت سعادتك على الخطّ، فأظنّ أنّي سأنتقم وأنتفع في ذات الوقت. عذرًا على وقاحتي، لكن كما تعلم، الحياة أقصر من أن نضيّع فيها مصلحة.

يبتسم خالد من الخارج، بقدر ما يفعل من الدّاخل:

– أتحبّها؟ أقصد... ندى؟

– ربّما أحمل لها بعض المشاعر... لا أدري، وحياتك...

– أنت تحبّها، ولا تفعل. لا تحبّها كامرأة، بل كجسد. كنهدين. كمصدر رزق. تحبّها كملكيّة. ويبدو أنّك أفقت أخيرًا على حقيقة أنّك خسرت، لا أعلم كيف، ملكيّة ثمينة غدت الآن بين يدي رجل آخر. لذا ها أنت اليوم تتطلّع إلى استرجاعها. بالفعل، لقد نلت إعجابي، سيّد أدهم.

– اللعينة لم تكتفِ بانتقالها إلى مدير أعمال آخر. بل تزوّجته أيضًا! وحياتك، لم أعلم بهذا سوى البارحة وعن لسانها على الهواء.

يهزّ خالد عبّود رأسه إيجابًا، فاهمًا أخيرًا شخصيّة هذا الرّجل ودوافعه. ثمّ يعنّ له خاطر عجيب سرعان ما يبتسم ممهّدًا له:

– لن أبخل عليك، سيّد وهبي. أنت كريم وتستأهل المكرُمة. 30 ألف دولار مقابل تلك الشّرائط. ما قولك؟

يسيل لعاب عينيْ أدهم وهبي. تلمعان برمز الدّولار. لا يصدّق ما يسمع. يريد التّأكّد:

– 30 ألفًا؟

– هناك المزيد، إن قبلت ما أنا بصدد عرضه عليك.

– عرض؟ ما... ما هو؟

يلفّ الدّكتور عبّود ساقًا على ساق. يشبك أنامله الغليظة قائلًا:

– 130 ألف دولار، وشركة إنتاج موسيقيّة تحت إمرتك. أوتعلم؟ اجعلها 200 ألف دولار، وشركة إنتاج، وشقّة فخمة في بيروت، إن...

– إن ماذا؟!

يكون خالد عبّود مستمتعًا بلعبة حرق الأعصاب هذه، فيتعمّد أن يتأخّر في الرّد. يتناول كوب البرتقال ويرشف منه ببطء، متجاهلًا أدهم الذي يتفرّس به بنفاد صبر. وحين ينطق أخيرًا بالجواب، يلعق شفتيه متلذّذًا بارتباك أدهم، باصفرار سَحْنَته، بمسحه عن صلعته المضحكة وهمًا: عرقًا لم يتقاطر بعد.

– دكتور عبّود، أنا... أنا لم أفكّر بذلك من قبل. كلّ ما أردته هو الانتفاع منك فقط، وفي ذات الوقت الانتقام من ندى، بجعل زوجها يطلّقها حين يرى الفيديوهات. وحياتك لم أفكّر بـ... بأكثر من هذا.

– لكنّك الآن ستفعل.

يتسيّد المكان صمت رهيب يبدّده أدهم وهبي حين يقول كمن يوشك على التّقيّؤ:

– أريد... أريد أن أستعلم أكثر عن التّفاصيل، سعادتك...

---

[1] شمعدان بسبعة فروع، يرمز إلى الدّيانة اليهوديّة.

[2] اللون الأزرق الغامق في العلم الإسرائيلي، يقدّسه الإسرائيليّون.

2

بعباءتها السّوداء، تخرج لميا تتمشّى. الجوّ بديع، والرّطوبة لا بأس بها، رغم وهج شمس الأوّل من آب المتفرّدة بسماء زرقاء على مدّ النّظر. خلال مشوارها من حارتها الصّغيرة إلى ساحة الضّيعة، تطالعها وجوه كثيرة، معظمها غير مألوف لـمن في جيلها وأكبر، لكونها وليدة المدن أو الغُربة، ما جعل من مسقط رأسها سريرًا عابرًا، مجرّد مكان للاصطياف. لكن ليست الوجوه وحدها هي الغريبة. كلّ شيء يبدو لها غريبًا. الضّيعة لم تعد مثلما كانت. صارت شِبه مدينة؛ منازل من الباطون تعلو طابقًا واثنين، طرقات تُشقّ، إسفلت يُصبّ، أشجار من عمر الأجداد تُقتلع، وسيّارات حديثة تجول بنعيق أبواقها كيفما اتّفق.

ههنا، حيث تقف، في هذه الرّقعة الجانبيّة من السّاحة، مقابل بوّابة المسجد، كانت ثمّة شجرة عملاقة تبسط جذورها الغليظة فوق الأرض. صبيان القرية وبناتها كانوا يتّخذونها ملاذًا، يهربون إلى فَيئها للاستظلال، خصوصًا في مواسم الحرّ. وكانت تتدلّى منها أرجوحة كبيرة، هي وصديقاتها قضين عمرًا يرتفعن ويهبطن بها، فيما الصّبيان فوقهنّ يستعرضون حركاتهم البهلوانيّة لنيل قلوبهنّ أو

حتّى نظرة إعجاب منهنّ. تلك الشّجرة – شأن سواها من الأشجار المعمّرة – لم تعد هنا. ارتفع مكانها عمود كهرباء يزنّ على مدار أوقات التّغذية، النّادرة إجمالًا.

بلى، القرية برمّتها تغيّرت. لكنّ الأمر لا يستدعي عندها الكثير من القلق، إذ تعتقد أنّ التّغيير طال الظّاهر فقط. أمّا الجوهر، فلم يزل كما عهدته؛ طيبة النّاس وأخلاقهم وبساطتهم، حتّى وداعة نمائمهم، لم تمسّها رياح التّمدّن. شعلتها متّقدة منذ الأزل. تستطيع أن تتلمّس ذلك حين يرفع لها النّاس أيديهم ليلقوا عليها التّحيّة. حتّى إنّ البعض لا يني يستوقفها ليكرّر التّعليق: «الحجاب يليق بك. يحرق دينك شو بيلبقلك!». ظريف وجميل هذا الدّفء بالفعل. يشعرها في أحايين بأنّها لم تخسر أحدًا من أفراد عائلتها. كلّ الطّيبين في هذه القرية الطيّبة هم عائلتها.

عند مفترق الطّرق، في أقصى السّاحة، تتوقّف لاإراديًّا. تَتَضادّ رغبتان في عصب رجليها؛ رغبة في العدو إلى الأمام، وأخرى في العودة من حيث أتت. كيلومتر واحد فقط يفصل بينها وبين الجبّانة. ألف متر. خطوات. يُخيّل إليها في هذه اللحظة أنّهم ينادونها – الأموات! والدها، عمّتها، عمّها، و... سوسن. تختلط عليها أصواتهم. لا تسمع سوى صدى كلمات. تودّ لو تتقدّم أكثر لتتبيّن ما يقولون، ما يريدون، تودّ لو تطبع على تراب قبورهم بعض القبلات. لكن، سرعان ما تتذكّر وعدها لنفسها. وعدها لله. ستظلّ قويّةً. لن تطأ أرض الجبّانة لِئلّا تنهار وهي تبكي من هم في الحقيقة غير أموات. ابنتها والآخرون أحياء. أرواحهم ليست تحت الغبار والتّراب؛ إنّها فوق، بلى، فوق، لدى البارئ الرّحمن.

تدور على عقبيها مُواريةً ما اعتبرته أوهامًا، وتقرّر العودة من حيث أتت.

في الطّريق، تستوقفها أمّ فادي، زوجة لحّام الضّيعة:

– والله خجلانة منك كثيرًا يا لميا. مبروك الحجاب. كيف حالك؟

– البركة بعمرك. الحمد لله.

– البارحة رجعت من طرابلس، ابنتي في فترة وحام صعبة، ولم يتسنَّ لي بعد أن أعزّيك.

– لا داعي أمّ فادي. سوسن لم تمت لتعزّيني بها. أصلًا سبق أن طلبت من أمّي فور عودتي إعلام الجميع أنّي أرفض استقبال معزّين.

– لم أكن أعلم! أنا آسفة حقًّا.

– لا بأس. شكرًا لك.

– حبيبتي، هاتي بوسة.

تضمّها أمّ فادي بغتةً. تطبع على كلٍّ من خدّيها قبلة.

– بالمناسبة يا ابنتي، أخبرني أبو فادي عمّا فعل زوجك الله لا يرحمه بنفسه. لكن لم أصدّق أنّك وأمّك كنتما في الجامع يوم جنازته. صحيح، أم أنّ أبو فادي بدأ يُخرّف؟

ما سمعته أمّ فادي من زوجها ليس تخريفًا. لميا حضرت الجنازة بالفعل. يوم أتوا بجثمان هلال إلى الضّيعة، دخلت المطبخ تقول لأمّها:

– وصلوا.

– الله يحرق تربته. لا أفهم. لم طلبتِ أن يُدفن في مدافن العائلة؟

– لأنّ أمّه وأباه هناك.

– وسوسن التي قتلها!
– دعينا من هذا الكلام وارتدي ثيابك. سنذهب إلى الجامع.
– هل جُننت؟!
– إذن سأذهب وحدي. إلى اللقاء.
– مهلًا! انتظري!

طوعًا، رافقتها أمّها إلى صالة النّساء في الطّابق الأرضيّ من الجامع. كانت الصّالة فارغةً إلّا من زينب البرصاء. في الصّف الأماميّ، جلست هي وأمّها تستمعان للشّيخ يتلو بنبرة خفيضة من صالة الرّجال المجاورة بعض الأدعية والسّور القرآنيّة. شقّت أمّ بدر الباب الفاصل بين الصّالتين تريد أن تتحقّق ممّن حضر من رجال. لم يكن هناك سوى الشّيخ والمختار وعاملَي البلديّة. لم تستغرب. ما أدهشها كان رؤية ابنتها تحدّق بغموض في نعش هلال الذي وُضع، بحكم العادات والتّقاليد، في رأس الصّالة النّسائيّة.

لم تنزع لميا عينيها عن النّعش لحظةً. ظلّت طوال جلوسها تستعيد تفاصيل اللقاء الأخير الذي جمعها بهلال. ساءلت نفسها مرارًا، هل كان فعلًا صادقًا بقوله «أقسم لك سأتغيّر»؟ هل كان بريق الصّدق في عينيه محجوبًا خلف الضِّمادات والشّاش؟ هل كانت برجوعها إليه زوجةً ستنتشله من أنفاق النّفاق؟ لو لم تسارع بالخروج من غرفته لما أقدم على الانتحار؛ فكّرت. لو أنّها سمعته قليلًا بعد، لو أنّها سمعته حتّى النّهاية، لما كان في هذه الأثناء ممدّدًا أمام عينيها في حمّالة الموتى. طعنها الشّعور بأنّها السّبب في موته. فتكت بها الملامة. ولغرابة الأمر، عجزت عن تصوّر أنّها انتصرت. أنّه على بعد مترين فقط، غدا خبث العالم هامدًا في حمّالة، تحت غطاء أخضر خُطّ فيه «الله أكبر». حاولت استحضار

هلال الطّاغية. هلال الشّر المستطير. قاتل ابنتها. عبثًا. بدا لها في صمته الأبديّ كتلةً من الضّعف مثيرةً للشّفقة. مثلما يقزّم الموت الطّغاة، يقزّم كراهيتنا لهم؛ أيقنت.

بعد نصف ساعة من التّلاوة، نادى الشّيخ أمّ بدر من خلف الباب، واستأذنها لأخذ الجثمان للغسل والتّكفين. دخل عاملا البلديّة ورفعا الحمّالة إلى كتفيهما. وهما يسيران بالجثّة الهزيلة الطريّة نحو الخارج إلى المغسل القريب، باغتت لميا دمعة مسحتها على الأثر. دمعة لم تستطع إدراك كنهها، لكن من المؤكّد أنّ فيها شيئًا من الغفران. بموته قد يغيّر المرء فينا ما كان عاجزًا عن تغييره وهو حيّ؛ هكذا استنتجت. غاب هلال عن ناظريها المشيِّعَيْن للأبد وهي وتفكّر بأنّ بعض النّاس يظهرون بأبهى حال فقط وهم أموات...

– لميا، أينك سارحة؟

تعيدها أمّ فادي إلى الواقع، بلكزة على الكتف خفيفة.

– صحيح يا أمّ فادي. كنت وأمّي وحدنا في الجامع.

– غريب. لا أحد من النّاس لبّى نداء الشّيخ للدّفن كرمى لك. فلمَ ذهبتما؟

– لا أعلم. ربّما أردت أن أقول كلمة أخيرة لهلال قبل أن يصير بين يدي ربّه.

– أقسم إنّك ابنة أصل. كلّ ما فعله ذلك الوسخ بك في كفّة، وحضورك جنازته في كفّة!

تقبّلها أمّ فادي مجدّدًا. تنصحها بأكل الغمّة والسّودة النّيئة لتسمن قليلًا وتسترجع لمعان عينيها ونضارة وجهها السّالفة. وتعدها بزيارة قريبة مع ابنها فادي الذي طلّق زوجته ويبحث اليوم عن عروس أخرى. ثمّ تتوادعان، وتمضيان كلٌّ في طريق.

حال وصولها البيت، يرنّ الهاتف:

– عاش من سمع صوتك ندى. أينك لا تتّصلين؟

– حقّك عليّ لملوم. انشغلت قليلًا بأغنيتي الجديدة.

ممازحةً:

– أتمنّى أن تكون الأغنية دينيّة هذه المرّة.

ضاحكةً:

– تركت الدّين لك لميا. أنا أريد الدّنيا.

– خذيها يا أختي. بطولها وعرضها سأهديكيها.

– ماذا كنت سأقول؟ أجل، أخبرني كريم البارحة أنّ هلال انتحر. كم شُفي غليلي الآن.

تأخذ لميا نفسًا طويلًا، وبنبرة خفيضة:

– كلّكم سعداء بموت هلال إلّا أنا. أشعر بأنّي أنا التي دفعته عن الشّرفة.

– ماذا تقولين؟

– قبل أن يلقي هلال بنفسه من الطّابق الرّابع، كنت عنده في المستشفى. زرته لأقول له إنّ فقدانه البصر عقاب الله له. توقّعت أنّ صوته سيعلو في وجهي استكبارًا، توقّعت أنّه سيشمت بقتله سوسن، لكنّ ردّ فعله كان مغايرًا لتوقّعاتي. للمرّة الأولى في حياتي، سمعت في حديثه نغمة ندم عميق. تلمّست لديه قابليّة حقيقيّة لإصلاح النّفس.

– المخادع! لملوم حبيبتي، لقد عشتِ معه عمرًا وتعرفين حركاته...

– لا، تلك المرّة كانت مختلفة. حالته النّفسية والجسديّة قزّمته. رأيت فيه طفلًا صغيرًا نادمًا يطلب المغفرة، طفلًا مستعدًّا للتّخلّي

عن أشياء كثيرة مقابل الحصول على شيءٍ واحد فقط. شيء لم يعرفه قطّ؛ الحبّ. كان يريد أن يُحِبّ ويُحَبّ.

– يستحيل لعاقل أن يصدّق أنّ رجلًا بِشَرّ هلال يتطلّع إلى الحبّ! أستبعد أنّ للكلمة مكانًا في قاموسه. إنّه مجرم يا لميا، رجل مريض بمئة وجه وصوت، كيف أثّر بك؟

– لا أنكر إجرامه، ولا أنّه ذبحني مرارًا. لكن صدّقيني، في قلب كلّ مجرم واحة جفّفتها الظّروف، تتلهّف لليد التي ستملأها بالحبّ، لتتدفّق مجدّدًا بالخير والإنسانيّة.

– يبدو أنّ الحجاب لطش مخّك! صدق القائل، الدّين أفيون الشّعوب.

– وما دخل الدّين بالموضوع؟

– مذ أخبرتِني أنّكِ تحجّبتِ، تغيّرت نبرتك، تغيّر منطقك، صرتِ تقولين كلامًا أقرب إلى الشّاعريّة منه إلى الواقع.

– اهزئي! هذا الحجاب كان يجب أن أضعه منذ زمن.

– الحجاب، التّديّن، عقدة الذّنب إزاء انتحار مجرم... ماذا كان ينقص لأن تنشري ديوانك الأوّل؟ آه، عرفت. أن تعودي زوجة هلال.

– ومن قال إنّه لم يعرض عليّ الرّجوع إلى عصمته زوجةً؟

– تمزحين!

– لقد أقسم إنّه سيصير رجلًا آخر إن عدنا زوجين، وإنّه سيكتب كلّ أملاكه باسمي، ويزور معي الطّبيب النّفسي ليتعالج. ضحكت عندها ساخرةً منه. ولم أعلم كيف غادرته وفي جعبته كلام كثير لم يتسنَّ له التّعبير عنه. لو لم أرفض الإصغاء إليه، لو لم أعطِه ظهري وأمشِ خارج غرفته بلامبالاة وهو يرجوني أن أبقى، لما فكّر

بالانتحار. أنا المسؤولة عن موته يا ندى. كنت في نظره النافذة الأخيرة للضّوء، وسددتها بحماقتي.

– تأكّدي أنّه كان يفكّر بالانتحار منذ وقت. كلّ الصّفعات التي تلقّاها لم تُبقِ له خيارًا. لكنّ الحقير ذكيّ. عرف متى وكيف ينهي حياته. استغلّ زيارتك له، أطربك كلامًا معسولًا، وعندما لم يرَ منك تجاوبًا، رفع الرّاية، وألقى بنفسه ليحمّلك عقدة ذنب ليس ذنبك، لتتعذّبي مدى حياتك. أفيقي يا لميا. من هشّم سنواتٍ طوالًا من عمرك صار اليوم عظامًا. لا تدعي شبحه يهشّم أيّامك المقبلة. تحرّري منه. من ذكراه. بالمناسبة، كم سيلحقك من ميراثه؟

متنهّدةً:

– كلّه. وكأنّ هذا سبب إضافيّ لأشعر بالذّنب.

– إنت يا إمّا حمارة أو... بلى، حمارة!

– كيف تفسّرين إقدامه على الانتحار قبل كتابة وصيّته؟ هو ليس أحمق ليجهل أنّه بموته تذهب ثروته إليّ. بانتحاره كان كمن يقول لي: يا من لم تتزوّجيني إلّا على طمع، خذي مالي كلّه، كما أخذت منّي آخر أمل بالحياة.

– ما أبله منك إلّا تفسيرك للأمور. ما همّك إن لم يكن كتب وصيّته؟ المهمّ أنّ تَرِكَته ستغدو بين يديك، فماذا تنتظرين لتعيشي حياتك؟ اذهبي وسافري. جوبي العالم. هذا حقّك!

– لم أعد طامعة بثروته. ثمّة من هم أحقّ بها. سأوزّع ما سيلحقني من أموال على أهالي الأطفال، وسأبيع الأملاك لأفتتح ميتمًا ومدرسة.

– لا أدري حقًّا ماذا دهاك. أذكر أنّي تركتك طبيعيّة قبل سفري. ينقصك صليب حول عنقك لتصيري الأمّ تيريزا. كان يجب أن أراك

بالهيئة الجديدة حين زرت بيروت الأسبوع الماضي. أقلّه، كنت ضحكت قليلًا.

– زرت بيروت ولم تخبريني؟ عاشت الأخوّة.

– لم يُتَح لي الوقت لأراك. لكن احزري من رأيت.

– المرّة المقبلة، حين تأتين سأرغمك على رؤيتي هنا، في الضّيعة! من رأيتِ؟

– أخاك.

– بدر؟!

– التقيته في المطار قبل عودتي. كان يودّع عائلته، حسبما فهمت من خديجة.

– أستغفر الله العظيم. يودّعها؟ إلى أين؟

– إلى السّعودية. أفهم أنّه لم يعلمك بالأمر؟

– ها أنا أسمعه منك. حتّى خديجة لم تأتِ أمامي على تلك السّيرة. حين زرته وأمّي في السّجن عاملنا معاملة غرباء. ومن حوالى عشرين يومًا زرناه في صيدا لنحتفل بخروجه سالـمًا، لكنّه لم يُبدِ لهفةً تجاه أيّنا. وفي منتصف الزّيارة قال إنّه يريد أن ينام. تركنا وحدنا مع خديجة، فطلبت أن نعذره لأنّ أثر السّجن لم يتلاشَ من نفسيّته. تخيّلي. حتّى «شكرًا لك أختي» لم تخرج من فمه. وبعد أسبوع عدنا لزيارته، في محاولة مستميتة لإصلاح ما انكسر بيننا. لكنّه لم يكن موجودًا. استقبلتنا خديجة بكلّ حفاوة وراحت تبرّر غيابه. وحين عاد، ألقى علينا سلامًا باردًا وانكفأ في غرفته. آلمني الأمر كثيرًا أختي. إنّي أحاول وأمّي جاهدتين أن نلـمّ بعضنا بعضًا، ورغم أنّنا لا نرى نتيجة، أعدك بأنّنا لن نملّ المحاولة.

– وفّري عليك العناء لأنّ وضعنا كعائلة منتهٍ منذ زمن.

– لا تقولي هذا. الله فرّق بيننا لحكمة هو وحده يعرفها. وبحكمته سيعاود جمعنا.

– آخ منكم أنتم المتديّنين. كلّ حدث بشع يعترضكم تنسبونه إلى الحكمة الإلهيّة. حتّى مياه الصّرف الصّحي التي تغرق شوارعكم تجدون لها مبرّرًا شرعيًّا.

– ما بك تردّدين كلام الملحدين؟ يبدو أنّ أميركا فعلت بك فعلتها!

– هذه الأميركا يا أختي جنّة. سأصحبك معي يومًا إلى هنا. هواء هذه البلاد سيسحرك. يجب أن أعرّفك إلى نيويورك، المدينة التي لا تنام. أقسم إنّك حالـما ترتقين تمثال الحرّية، ستشعرين بالغباء. بالنّقصان. بأنّك كنت طوال حياتك تعيشين في قفص، في بلاد تبتر الأجنحة، وتخنق الأنفاس. ستعلو بك قدماك لاإراديًّا فوق الغمام. ستكتشفين حتّى أنّ الهواء في وطننا كان يصلنا مغشوشًا. وستضحكين كثيرًا، ملء فمك، على الزّيف والجهل الذي كنّاه. وحينها، ستعثرين على نفسك الضّائعة. من يدري؟ قد يداخلك شعور ملحّ بخلع الحجاب والدّوس عليه.

– يبدو أنّ العمّ سام لطش مخّك! يكفيني حبيبتي أن أستنشق هواء الجنوب لأشعر بالحرّية.

– هواء الجنوب؟ تفو! ثلاثين عامًا عشت في الجنوب ولم أستنشق سوى رائحة البارود والزّبل والنّفايات. يا حرام! من كان يظنّ أنّ لميا ستغدو متخلّفة؟

– أضحكتني! لِنَعُد إلى بدر. ألم تعرفي عنه تفاصيل أكثر؟

– لا.

– لا إله إلّا الله. كيف لم تخبرني خديجة بالأمر؟ في أيّ يوم حدث هذا؟

– قبل ثمانية أيّام.

– هذا يعني أنّ السّفرة ليست بغرض السّياحة.

– لا، إن لم تخنّي ذاكرتي، قالت خديجة إنّها ذاهبة إلى أقاربها.

– أعرف أنّ لخديجة أخًا فقط، استُشهد قبل سنوات. سأستفسر من أمّي عن الأمر حال عودتها من الدّكان. لا بدّ أنّها تعرف أكثر منّي.

– اتّصلي بأخيك واستفسري منه.

– طلبته البارحة على موبايله، لكنّه كان خارج نطاق الخدمة.

– وهاتفه الأرضي؟

– يرنّ ولا أحد يردّ. أشكّ في أنّ بدر سيشرح لي الموضوع. السّر لدى خديجة. سأحاول الوصول إلى رقم قريبها في السّعوديّة لأستعلم منها عن الأمر. مريبة هذه السّفرة، والأكثر ريبةً أنّ خديجة لم تقل لي شيئًا.

– أعتقد أنّ أخاك يخطّط لشيء ما.

– أتمنّى أن تكوني مخطئة. ما علينا، ما أخبار كريم وحياة؟

بعد تنهيدة حارّة:

– لملوم، كريم هذا رجل غير قابل للوصف. معه أختبر للمرّة الأولى معنى الحبّ. إنّه نائم الآن. يقبرني، إنّي أتعبه بمشاكلي. تخيّلي. ليل البارحة ذهبت لأجتمع بمخرج لبنانيّ يعيش هنا، ورفض الذّهاب معي، كيلا تظلّ حياة وحدها مع مارييل. ما زلت مستغربة من نفسي.

– علامَ؟

– امرأة مثلي، صُفعت مرّتين من رجلين بذات القبح، كانت ستُصاب بفوبيا الرّجال. لكنّي لم أُصب. والسّبب؟ كريم. إنّي أأتمنه

على حياتي.

– تستحقّين كلّ الحبّ ندى.

– كلتانا نستحقّ أختي. بالمناسبة، حياة عادت للكتابة.

– كم كان بودّي أن أراها بعدما أفقتُ من الكوما. الله يسامحك.

– لم أكن لأدعك ترينها. خشيتُ أن تزعلي إن عقد لسانها أمامك، فتنهاري وتُحمِّلي نفسك ذنبًا لا حول لك به.

– أيعقل أن تكون اختارت الصّمت أمامي أيضًا؟

– كلّ شيء معقول. لن تتبيّني إلّا بالتّجربة.

– لقد اشتقتها ولديّ الكثير لأقوله لها. في حياة رائحة سوسن. وفي عينيها انعكاسها. لا تُطيلا عليّ الغياب، أرجوكِ.

– حبيبتي يا لميا. كنت قد قرّرت ألّا أخبرك، لكنّي عدلت عن قراري. ما كتبته حياة قبل أيّام كان عن سوسن. بقيتُ مطروحةً في سريري أتخيّل ابنتك التي لم يتسنَّ لي يومًا أن أراها وجهًا لوجه، لكن أعتبر نفسي اليوم أنّي فعلت. رأيتها في خاطرة لحياة مزّقتني إربًا. اسمعي...

تستلّ ندى من الدُّرج قصاصة ورق كانت نقلت عليها الخاطرة سرًّا، وتروح تقرأ:

– أيلول عائدٌ، وأنتِ لستِ هنا كي تستقبليه. الشّوق يا سوسن... لم أكن أعلم أنّ الشّوق مرضٌ مميت. كلّ الجروح فِيَّ يمكن رتقُها بغُرَز النّسيان، إلّا فقدك، لن يني هذا الجرح يتّسع كلّما تذكّرت أنّي سأحيا العمر من دونك. قلبي يا سوسن يصطلي بالشّوق إليك، وهذا الحبر الذي خاصمتُه منذ مدّة، لم أكن لأعود إليه لولاك. من سيترنّم بأغنية شهر ميلادك حال عودته قريبًا؟ هل كانت فيروز تعلم حين غنّت ورقه الأصفر أنّ أيلول سيرجع وإنتِ

بعيدة بغيمة حزينة قمرها وحيد؟ سيُبكيني شتاء أيلول يا قمري السّعيد. سيُبقيني وحدي في العتمة والبرد، أحاول إنارة الشّموع سُدًى. أسقمني البحث في العيون الملوّنة عن أثرٍ لعينيك يا سوسن. أحيانًا، أتمنّى لو أنّ الرّصاصة اصطفتني أنا لا أنتِ. أنا التي كان يجبُ أن أُقتَل. الرّصاصة كانت ستكون الخلاص ممّا أعيشه الآن، وأنا الآن في عداد الأموات. من يستطيع إحيائي وأنتِ تختنقين في عتمة حُفرة؟ من يستطيع إضحاكي ووجهكِ غدا جُمجمة؟ يقولون إنّك صرتِ طيرًا يحلّق في مكان بعيد، بعيدٍ من هنا، بُعدَ الحياة عنّي أنا. أودّ لو أصدّق، أودّ يا بهجتي الضّائعة. إن صرتِ طيرًا بالفعل، فلا تنسي أن تحطّي على شبّاكي. ولا تدعيني ذات يوم، أفيق محاولةً أن أسترجع صوتك فتخونني المحاولة. أرجوكِ سوسن، أريد أن أحيا؛ لا تُمعني في الغياب.

تنفرط سُبحة تماسك ندى. تشهق فتبكي متمنّيةً لو أنّها بجوار لميا الآن، تواسيها وتضمّها. إلّا أنّ الأخيرة تفاجئها حين تظلّ متماسكة. لا تصدر عنها آهة واحدة. تقول:

– أخبري حياة أنّ سوسن ليست في حفرة. أخبريها أنّها لم تغدُ جمجمة. سوسن عصفورٌ من عصافير الجنّة. استعيذي من الشّيطان أختي. استهدي بالرّحمن. أخبريني، كيف تسير أمور العلاج؟

تمسك ندى بزمام مشاعرها. تقول:

– لا أدري إن كان يصحّ القول إنّ حياة بدأت تتجاوب مع العلاج؛ في الجلسات الخمس المنفردة الأولى، لم تتكلّم كثيرًا. كانت لا تزال متفاجئة بالمكان والوضع الجديد. ثمّ، ابتداءً من الجلسة المنفردة السّادسة قُدُمًا، صارت تتجاوب مع المعالجين، بنسبة

جيّدة. قبل أيّام أيضًا، خلال وجودي في لبنان، تكلّمَتْ للمرّة الأولى مع كريم وأجابَتْه عن كلّ أسئلته بطلاقة عجب لها. لكن ما إن رجعت، حتّى دبّ صمتها بيننا من جديد. أمّا في الجلسات التي تستوجب حضوري، فتظلّ معظم الوقت ساكتة، تنظر خارج النّافذة بعينين من خشب، أو تتلهّى متوتّرةً بأظفارها وشعرها. وأحيانًا، بعد الإحماء، تصير تجيب بحضوري عن أسئلة الطّبيب جسديًّا. يعني تهزّ رأسها أو كتفيها. وإن أجابت بالصّوت، تقتصر أجوبتها على إيه أو لا. شفاء حياة متوقّفٌ عندي فقط. أنا التي أحول دون أن تتكلّم. أحيانًا، أشعر كما لو أنّ وجودي مسدّس مصوّب إلى حنجرتها. مرّ خمسون يومًا على وجودنا هنا، ولا أدري كم من الوقت سيمرّ بعد. أعلم أنّ فترة العلاج ستطول، لكنّي لن أستسلم. أنا مؤمنة بأنّ الوقت سيدمل الهوّة بيننا.

– تفاءلي بالخير. الوقت داء ودواء أختي.

– معك حقّ. هل شاهدتِ مقابلتي على التّلفاز؟

– تلفاز أمّك أكله الغبار لندرة ما نستعمله. وساعات تقنين الكهرباء تطول هذا الشّهر، وموتور الاشتراك يظلّ معطّلًا لازدياد خطوط السّرقة منه.

– لقد اهتزّ لها البلد.

– أوفت! ماذا قُلتِ فيها؟

– سأخبرك إن زرت لبنان. على كُلٍّ لا بدّ ستسمعينها من أحد الجيران إن شاهدها صدفةً قبل يومين.

– حسنًا. نتحدّث لاحقًا. أحبّك. سلام.

3

– مساء الخير مشاهدينا وأهلًا بكم في حلقة جديدة من «لسان الوطن». ضيفي الليلة رجل الاقتصاد الغنيّ عن التّعريف، النّائب الدّكتور خالد عبّود. شرّفتنا بحضورك.

– لي كلّ الشّرف.

– بدايةً، سنجري مسحًا سريعًا لأهمّ تطوّرات السّاعة في السّاحة السّياسيّة. دكتور خالد، كثُرت في الآونة الأخيرة التّصريحات المنتقدة توجّه سوريا لتعديل الدّستور اللبناني والتّمديد لرئيس الجمهوريّة الحاليّ، وقد وصل الانتقاد حدّ إعلان مجلس المطارنة الموارنة، وهو أعلى مرجعيّة لدى الطّائفة المسيحيّة، طائفة رئيس الجمهوريّة، موقفًا واضحًا وصريحًا ورافضًا للتّدخل السّوري في الشّأن اللبناني، وهنا أنقل حرفيًّا ما جاء في التّصريح: «سوريا تتعاطى مع لبنان وكأنّه إقليم سوري، فهي تأمر وتَنهى وتعيّن الحكّام وتنظّم الانتخابات فتأتي بمن تشاء وتُبعد من تشاء وتتدخّل في جميع مرافق لبنان». تعليقك؟

– مساء الخير لك نجاة، ومساء الخير لكلّ من يشاهدنا. بالنّسبة لتصريح مجلس المطارنة الموارنة، أنا لا أفهمه. بالطّبع إنّ انتقاد

النّظام السّوري للإضاءة على بعض الثّغرات في تنفيذه الوصاية على بلدنا حقٌّ مشروع، فالنّقد الموضوعيّ البنّاء يسهم في حلّ مشاكلنا. لكنّي أستغرب هذا الهجوم القاسي غير المفهوم على سوريا العزيزة الـمُقاومة. نحن اللبنانيّين أفقنا لتوّنا من حربٍ أهليّة مدمّرة، أفقدتنا توازننا وقدرتنا على إعادة بناء دولة متينة الأساسات. لكنّا نحمد الله أنّه أوجد جوارنا دولةً كريمة، كانت ولم تزل أُمًّا لنا، تكفّلت برعايتنا وتحمّلت خروج قسمٍ كبير من رجال أمنها وجيشها لتنظيم أمور دولتنا وحمايتنا من الخطر الإسرائيليّ الذي كان سيعاود اجتياحنا واحتلال أرضنا لو تُركنا إثر الحرب بلا وصاية. الوصاية عزيزتي نجاة ما هي إلّا رعاية مؤقّتة لنا، كي نستعيد عافيتنا ونصبح قادرين على النّهوض من جديد بأنفسنا. ومن المبكر جدًّا القول إنّنا صرنا قادرين على ذلك. نحن لا نعرف حقًّا ماذا نريد بعد، وليست لدينا خطّة طويلة الأمد. نحن اللبنانيّين لم نزل نفكّر بالآن، باللحظة، كما الأطفال، نريد للشّيء أنْ كُنْ فيكون. كلّا. الأمور لا تجري بمثل هذه البساطة. هذه التّصريحات دليل واضح على كلامي. إنّي أراها فورة غضب طفوليّة عمياء، لا ترتكز على أسس جيو-سياسيّة. السّياسة الحقيقيّة تكمن في أن نتمهّل في تسلّم شؤوننا الدّاخلية، شيئًا فشيئًا، وعلى مراحل متباعدة زمنيًّا، لا أن نحمل العصا ونخرج للمطالبة بحرّية لحظيّة. رجاءً، دعونا لا نحمّل الكلام أكثر مـمّا يستحقّ. فلنُعطِ كلّ كلمة حقّها اتّقاء حدوث أيّ لغط لدى النّاس، ولا سيّما أنّ هذه القضيّة أكثر قضايانا حساسيّة. ما أعنيه أنّ سوريا لا تعاملنا كإقليم من أقاليمها كما ذكرتِ قبل قليل، أصلًا لنا الشّرف أن تعاملنا كذلك، أقلّه سيغدو لدينا اكتفاء اقتصاديّ ذاتيّ، كما أنّها لا تأمر ولا تنهى

بالمعنى الذي يريد البعض إيصاله؛ سوريا تعرف مصلحتنا أكثر منّا. أجل، أقولها بكلّ شفافيّة. لسوء الحظّ، دولتنا تقع لصق وحشٍ كاسر يُدعى إسرائيل. ولحسن الحظّ، ثمّة من يحمينا من هذا الوحش. سوريا هي العزّة الأخيرة للعرب. متى ذهبت، ذهبت فلسطين. فلتنظري حولك مدام نجاة، ولتخبريني، هل ثمّة دولة عربيّة واحدة غير سوريا ستحمينا من الخطر الصّهيوني المحدق بدولتنا؟ تأكّدي أنّه حين يخرج آخر جنديٍّ سوريٍّ من لبنان، لن يبقى لنا أثر. ستتحيّن إسرائيل الفرصة مجدّدًا، وتنهش لحمنا الطّريّ. نحن نقوى بسوريا. فليفكّر خصومنا في السّياسة قليلًا قبل أن يخرجوا إلى الإعلام ويسهموا في إيصالنا إلى التّهلكة. هذا كلّ ما لديّ بهذا الخصوص.

– الدّستور اللبناني يحدّد ولاية رئيس الجمهوريّة بستّ سنوات غير قابلة للتّجديد. والرّئيس الحاليّ تنتهي ولايته خلال شهر، أي في أيلول المقبل. في معرض هذا الحديث، ثمّة معلومات صحافيّة تؤكّد أنّ سوريا ستتجاهل فريق المعارضة المتمثّل برئيس الحكومة، وتحدّد جلسةً نيابيّة لتعديل الدّستور من أجل التّمديد للرّئيس الحاليّ ثلاث سنوات إضافيّة. ألا ترى أنّ هذا يُعدّ أمرًا ونهيًا وتدخّلًا زائدًا عن حدّه في الشّأن اللبناني الدّاخلي؟

– صدقًا، لا علم لديّ بهذه المعلومة. لكن أعود وأكرّر، كلام الصّحافة صار يُصاغ بطريقة مستفزّة تلتفّ حول الحدث ولا تصيب جوهره. هذا يصبّ في مصلحة الإعلام الـمُغرض الذي كلّ هدفه إشعال الفتن والنّار في النّفوس. لنفترض أنّ المعلومة صحيحة، أي إنّ ولاية رئيس الجمهوريّة الحاليّ ستُمدَّد بضع سنوات إضافيّة. أين الضّرر في هذا؟ إنّ فخامة الرّئيس يقوم بواجبه كاملًا، وأصلًا لا

أعتقد أنّ ثمّة مرشّحًا مناسبًا آخر ليحلّ مكانه. فخامته رئيس قويّ، ويجمع بين كلّ الأطراف السّياسيّة المتخاصمة. شخصيًّا، أتمنّى التّمديد له ريثما نتّفق نحن النّواب الجدد على شخصيّة مناسبة للقصر الجمهوري.

– كيف تعلّق على القرار رقم 1559 الصّادر عن الأمم المتّحدة والمطالب بالانسحاب السّوري الكامل من الأراضي اللبنانيّة؟

– هِهْ. لا تعليق. منذ متى أصلًا كان مجلس الأمم المتّحدة يهتمّ بشؤوننا كعرب؟ فليتفضّل مجلسنا الكريم أوّلًا بالتّعليق على ما يفعله الصّهاينة بإخواننا الفلسطينيّين، عند ذاك سأصبح مستعدًّا للتّعليق على قرارهم. هَزُلَتْ.

بعد الفاصل الإعلاني الأوّل:

– أترى سعادتك أنّ صيدا صارت أكثر استتبابًا على الصّعيد الأمنيّ، بعدما ثبَتت إدانة الشّيخ محمود عبد الأمير بتهمة الإرهاب؟

– ليس صيدا فقط، بل كلّ لبنان. هذا الشّيخ الذي كلّ الشّيوخ منه براء، والذي من المؤسف أنّه لا يزال مختبئًا في جحور مدينة صيدا، مدينة المقاومة، لاقى العقاب الذي يستحقّ. لقد تأكّد من خلال فراره وتصريحاته الصّوتيّة الأخيرة وبعد التّحقيقات مع جماعته المقرّبة، ضلوعه في جهاز القاعدة. فضلًا عن ذلك، علمتُ من مصادر أمنيّة مقرّبة أنّ الانتحاريّين اللذين أُلقي عليهما القبض في فندق في الحمرا كانا مُرسَلَين منه لتفجير البلد. أعتقد حقيقةً أنّ الإرهاب يضاهي إسرائيل خطرًا. فلندعُ الله أن يجنّبنا فتنة هؤلاء المرتزقة.

– أتعتقد أنّ خطر هذه الموجة الجديدة التي بدأت تفتك بنا، سيتوقّف عند الإمساك بالشّيخ محمود؟

– لا أريد أن أفزع اللبنانيّين، لكنّ الخطر لم ينتهِ هنا. البارحة كان الشّيخ محمود، وغدًا وحده الله يعلم أيّ إرهابيّ جديد سيولد. لا بدّ أنّ للقاعدة خلايا كثيرة نائمة في لبنان والعالم العربيّ، ومعظمها بدأ يستيقظ. هنا يكمن دور الدّولة وتضافر الجهود السّياسيّة والأمنيّة لقتل هذه الخلايا في مهدها. علينا كلّنا كلبنانيّين التّكاتف لحماية وطننا. لا نريد لهذا العدوّ الجديد التّحكّم بحياتنا. يكفينا عدوّ غاشم واحد.

– برأيك، من يموّل ويدعم القاعدة؟

– من غير أميركا وإسرائيل المتحالفتين ودول الخليج؟ الاثنتان مبدعتان باستحداث طرق مميّزة لتفريقنا نحن العرب. وأحدث هذه الاختراعات هو الوحوش المتأسلمة التي تربّيانها وتموّلانها وتدعمانها إعلاميًّا وعسكريًّا لإذكاء الفتنة بيننا، وخلق ساحة صراع مذهبيّة في أوطاننا. لكن بفضل الله، وبفضل الوعي الذي نتحلّى به، كلتاهما لن تنجح في تحقيق أجنداتهما الخبيثة.

– بالعودة إلى الشّيخ محمود الذي علمنا أنّ المجلس العدليّ قضى بإنزال عقوبة الإعدام غيابيًّا له وبالحبس المؤبّد للمعتقلين من جماعته. لقد قيل إنّ أحد رجاله، وهو حارس نجلك الشّخصي، أُطلق سراحه بكفالة منك وهو لم يزل في ذمّة التّحقيق، ثمّ أعيد إدخاله السّجن، فإخراجه مجدّدًا، وبوساطة منك كذلك. بمَ تُعلّق؟

– الإشاعات كثيرة الله وكيلك. أنا أؤمن بنزاهة القضاء اللبناني، وبأيّ حكم يصدر عنه. على ما يبدو، تبيّن للقضاء خلال التّحقيق أنّ الرّجل مظلوم، أو أنّه أُجبر تحت الضّغط والخوف على الاعتراف بما لا صحّة له. المهمّ، تبيّن للقضاء أن لا جرم ينطبق عليه. لذا فإنّ أيّ اتّهام مغرض يوجّه لي في هذا الأمر، يُعدّ أوتوماتيكيًّا تشكيكًا في

نزاهة القضاء اللبناني. وأنت تعلمين، أستاذة نجاة، ماذا يعني أن نشكّك في القضاء الذي هو أحد أعمدة الوطن الأساسيّة.

– نشر الشّيخ محمود أخيرًا تسجيلًا صوتيًّا شرح فيه للنّاس ما حصل يوم التّظاهرة، بحيث اعتبر أنّ قتلة عُنصري الأمن والجيش كانوا مندسّين من حلفاء النّظام السّوري، أي نوّاب خطّك السّياسي، وأنّ الهرج الذي حصل ليجعل التّظاهرة تبدو للنّاس غير سلميّة وهادفة إلى التّخريب والانقلاب على الدّولة كان خطّة مدبّرة تهدف للنّيل منه ومن جماعته. وهنا أنقل عن لسانه حرفيًّا، في تصريح صوتيّ له: «لقد أوقَعَتنا يا رجال أمّة محمّد مكائد النّظام السّوري المعادي لإسرائيل علانيةً، والحليف لها سرًّا. ماذا تنتظرون أيّها المسلمون في الجيش اللبناني؟ إنّي أستنجدكم. كلّ واحد منكم فيه ذرّة شرف وكرامة وعزّة فَلْيُعلِن انشقاقه فورًا!». ما تعليقك على تصريح خطير كهذا؟

– لا شيء لديّ لأقول سوى الحمد لله. بعد هذا التّسجيل الغبيّ، من المفترض أن يعود كلّ المشكّكين في هذه القضيّة، أقصد أولئك الذين يهوون فرضيّة المؤامرات، إلى لبنانيّتهم ويقطعوا الشّك باليقين من أنّ أمثال الشّيخ محمود عبد الأمير هم إرهابيّون مرتزقة. يا نجاة، المساس بالجيش مصيبة. جيشنا خطّ أحمر. إن حدث وانهار، انهار الوطن.

– فاصل قصير مشاهدينا نعود بعده إلى القسم الثّاني من لسان الوطن مع سعادة النّائب خالد عبّود. انتظرونا.

أثناء الوقت المستقطع، يتوجّه خالد إلى المرحاض. يقضي حاجته. يتّصل بأنيتا يطمئنّ عنها ويطمئنها عن مسار الحلقة التي خطّطت لأجوبتها إدارة الموساد بعد أن راسلاها. يشعل سيجارة.

يسحب منها مجّتين. يطفئها. نفس عميق، ويعود إلى طاولة الحوار، شاهرًا على شفتيه أقوى أسلحة الجسد؛ الابتسامة.

بعد خروج القناة من فترة الإعلانات، تقول الإعلاميّة متوجّهةً إلى كاميرتها:

– أهلًا بكم مرّةً جديدة في برنامجنا لسان الوطن، مع ضيفي سعادة النّائب الدّكتور خالد عبّود. (ثمّ متوجّهةً إلى ضيفها) دكتور، انتقالًا إلى مقابلة المطربة ندى التي بُثّت قبل ثلاثة عشر يومًا، هذه المقابلة التي شغلت الرّأي العام وأثارت تساؤلات وشكوكًا عدّة بعد وابل الاتّهامات التي رشقت بها ندى شخصك. بدايةً، هل لديك ما تقوله للمشاهدين، خصوصًا أنّك حتّى اللحظة ما زلت ملتزمًا الصّمت رافضًا إعطاء أيّ تصريح في ما يخصّ هذه القضيّة؟

– الموضوع أخذ أكبر من حجمه، ولا يستحقّ أن أضيّع وقت المقابلة لأجله.

– لكن ما صحّة الأخبار المتداولة عن أنّ الحصانة رُفعت عنك، وأنّ أجهزة الدّولة استجوبتك إثر اتّهام انتحال الشّخصيّة الذي وجّهته لك ندى؟

– إشاعات مُغرضة هدفها تشويه صورتي.

– ما تعليقك حيال الصّور والفيديوهات التي نُشرت ليل البارحة على الشّبكة الإلكترونيّة، والتي تظهر فيها المطربة ندى بوضعيّات فاضحة مشبوهة؟

– ها أنا أسمع بهذا منك. طبعًا... لا أستغرب أن تقوم إنسانة كهذه بأفعال مُشينة كتلك. فعلٌ متوقّع ممّن يبغي الشّهرة السّريعة على حساب سمعة الآخرين. أعتبر الآن سيّدة نجاة أنّ حقّي وصلني، وأنّ الحقيقة ظهرت حتّى قبل أن ندخل المحاكم

في قضيّة قدح وتشهير وذمّ، وأنّي مرّةً أخرى انتصرتُ على الصّحافة المأجورة وعلى كلّ جهة سياسيّة تقف خلف أدواتٍ كالمطربة المدعوّة ندى.

– أتقصد أنّ كلّ أقوال ندى، وكلّ الأدلّة التي أرتها للنّاس، ما هي إلّا كذب وافتراءات هدفها التّشهير بك لأجندات سياسيّة خفيّة؟

– بالطّبع؛ تلك المرأة لديها أدلّة مفبركة، وأنا لديّ الإثباتات الحقيقيّة المضادّة. في أيّ حال، قريبًا سنتواجه في المحاكم لنرى من فينا الكاذب ونتقصّى الجهات التي تقف وراءها. صراحةً، ما زلت مستغربًا، ما الذي دفع بمطربة رائعة الصّوت إلى الخوض في لعبة سياسيّة من صنيعة الكبار؟ ولِـمَ قبلت أن تُوضع في فم المدفع؟

– لأسباب تتعلّق بالمال، ربّما؟

– ممكن.

– في ما يتعلّق بالطّفلة التي تقول ندى إنّها ثمرة علاقة غابرة بينكما، هل أنت مستعدٌّ لإجراء فحص «دي إن إيه» لتؤكّد للنّاس صحّة أو عدم صحّة الخبر؟

– أنا مستعدٌّ لأيّ شيء يجبرني عليه القضاء اللبناني ما دام سيضع حدًّا لهذه المهزلة. لكن من المؤكّد أنّ النّاس سبق أن أصدروا حكمهم العادل بحقّي، بعدما شاهدوا الفيديوهات التي تحدّثتِ عنها، حضرتك.

– ألديك شيء آخر تضيفه في هذا الخصوص، قبل الانتقال إلى قسمنا الأخير؟

– نصيحة للمطربة ندى. ابتعدي عن السّياسة وغنّي لها.

– مهلًا، قبل الدّخول في وقفة إعلانيّة، وردني الآن من الكونترول أنّ ثمّة اتّصالًا موجّهًا لسعادتك... ألو، تفضّل، من معي؟

– السّلام عليكم.

– وعليكم السّلام، من حضرتك؟

– بدر خولي، حارس ابن ضيفِك الكريم.

– أهلًا وسهلًا بك سيّد بدر. ماذا لديك لتقول؟

– هذا الجالس أمامكِ، الذي نفى قبل قليل توسّطه في إطلاق سراحي، كان أكبر من تآمر على الشّيخ محمود. هو من أجبرني تحت التّهديد على الظّهور في مقابلة وقول ما يخدم أهداف جماعته المعادية للإسلام. الشّيخ محمود ليس إرهابيًّا، ولا علاقة له بتنظيم القاعدة. أليس كذلك يا خالد زفت؟ قل لهم، قل للمشاهدين إنّك كاذب! لن تقول شيئًا، لا أعجب. لكن، أنا الذي سأجبرك على التّعرّي أمام الخلق.

– ما هذا؟ أداة أخرى جديدة بعد تلك التي أثبتت عدم صلاحيتها؟ هلّا قطعتم الخطّ رجاءً؟ أرفض النّزول إلى هذا المستوى المتدنّي من الحوار.

– لا تقطعوا الخطّ! لا تقطعوه لأنّ بحوزتي ما يخصّك يا سيّد خالد. بحوزتي ابنك آدم الذي أقسم بالله الواحد الأحد إنّك لن تراه مجدّدًا ما لم تعترف أمام جميع النّاس بأنّك أنت من فبركت للشّيخ محمود المصير الذي لقيه، وأنت من أدخلت رجاله زورًا إلى السّجن، وأنت من لفّقت لنا تهمة الإرهاب خشية عودة الإسلام إلى الحكم، فذللتني لأخدم خطّتك. لديك مهلة يومين لتنفّذ وإلّا... وإلّا... عليّ وعلى أعدائي.

ينتفض خالد قائمًا عن كرسيّه كالملسوع، متجاهلًا المحاورة التي تقول هاتفةً:

– دكتور خالد، مهلًا، دكتور... (تلتفت إلى كاميرتها باضطراب) المعذرة مشاهدينا عمّا رأيتموه منّا. يبدو أننّا سنكتفي بهذا القدر من المقابلة للّيلة. تصبحون على خير.

محاطًا بثلاثة من حرّاسه، يهجم خالد على المنتج المنفّذ للبرنامج زائرًا في وجهه:

– ما الذي فعلتموه؟ نحن لم نتّفق على تلقّي اتّصالات! أقسم إنّ هذه ستكون الحلقة الأخيرة لبرنامجكم الزّفت. لسان الوطن قال! والله لقصّلكن لساناتكن واحد واحد يا كلاب! والله لبكّيكن دمّ وقعّدكن كلكن بالبيت!

يدلف خارج الاستوديو. تكرج من بعيد خمسة مركبات لاندروفر مصفّحة تتوقّف أمامه. يركب اللاندروفر الرّابع مع أحد الحرّاس الثّلاثة، بينما يصعد الحارسان الآخران اللاندروفر الخلفيّ.

– ضع لي أحد حرّاس آدم على الخطّ.

يصيح من الخلف بالحارس على يمين السّائق. دماؤه تندفع بسرعةٍ تضاهي اندفاع المركبة.

– تفضّل سيدنا.

يناوله الحارس السّوري التّليفون.

– ولا حمار، صحيح ما حصل لآدم؟ شو؟ وتقولها بكلّ صفاقة؟ آسف؟ آسف ولا بهيم؟! والله سأقصف عمرك. مَن مِن المرافقين كان في نفس ورديّتك؟ الله لا يوفّقكن. أريدك أنت وهو في القصر حالًا.

بعد خمسين دقيقة قيادة من بيروت إلى صيدا، يتجاوز خلالها السّائق سيّارات النّاس وجميع الإشارات الحمراء، محتميًا بسلطة لوحة السّيارة وفيميه الزّجاج، يدلف خالد إلى القصر معميّ البصر.

تتأجّج بداخله رغبة في تحطيم الدّنيا على رؤوس من فيها. مذ أتى في هذه المهمّة من إسرائيل أوائل 1992، لم يحدث أن شعر يومًا بخطر كالمحدق به الآن. على المدخل يستقبله رئيس الخدم ومنظّم جدول مواعيده، كلٌّ بابتسامة عريضة وترحيب حارّ. يرمقهما بنظرة احتقار ملتهبة تحار ملامحهما المتفاجئة في تفسيرها. يمضي في طريقه حاثًّا خطاه نحو الصّالون.

– أين أنتما؟!

يصرخ قبل ولوج الصّالون. يقف مرافقا ابنه له احترامًا وذعرًا.

– أنت يا بغل، ما اسمك؟

– عبّاس.

– وأنت يا تيس؟

– راشد.

– من اليوم وصاعدًا سأسمّيكما راشد البغل وعبّاس التّيس. وأقسم إن حدث مكروه لآدم، فسأجعلكما أضحيتي العيد وأوزّع لحمكما على الكلاب الضالّة!

– آسف يا سيّدي، لكنّ المرافق بدر غافلنا.

– عبّاس محقّ يا سيّدي.

– أين كنت يا تيس عندما غافلك بدر؟

– أقضي حاجتي.

– حلو. وأنت يا بغل؟

– نزلت أقضي حاجتي معه.

– تريدان إقناعي يا شراميط بأنّكما زحمتما في ذات اللحظة؟

– الله وكيلك يا سيّدي. كنّا ننتظر خروج آدم من بيت صاحبته، وكان الجوّ حارًّا وغاز مكيّف السّيّارة نافِدًا. فتبرّع بدر بالذّهاب إلى

دكّان قريب لإحضار مشروبات غازيّة نبلّ بها ريقنا. وعندما عاد بالزّجاجات المفتوحة، عَبَبناها كلّها. في طريق العودة، شعرت بتلبّك في معدتي، فتسلّم بدر المقود عنّي. بعد قليل راح المغص يتفاقم، شعرت بأمعائي تتقطّع، وبما أنّنا كنّا نسلك طريق ضهر البيدر، لم أجد أمامي سوى قارعة الطّريق لأقضي حاجتي عسى أتحسّن.

– عبّاس يقول الحقيقة. أنا أيضًا انقلبت معدتي وشعرت بدوخة. فلحقته إلى ما بين الشّجر لأتقيّأ.

– هكذا، استغلّ بدر غباءكما وفرّ بآدم.

– طار به فجأةً. لا أدري ما وضع في تلك الزّجاجات. إننّا آسفان، ومستعدّان لأيّ عقاب تمليه علينا.

– يا عكروت منّك إلو، وأنتما تضخّمان هذه العضلات، نسيتما أمر الخرا هنا في الجمجمة؟ أقسم، إن مسّ ابني سوء، فلا أحد سيخلّصكما من بين يديّ. سأدفنكما حيَّين ولن يُعرف لكما خبر. اغربا عن وجهي يا حمير!

عند الظّهيرة، تعود أنيتا في ثوب قصير أسود من مركز الجمعيّة النّسويّة. تتراءى لعمر شبه غاضبة. يستقبلها بضمّة أحاديّة الطّرف، والدّمع يعوم في عينيه.

– لن أسامح نفسي إن حدث لابننا مكروه.

– هل أخبرتك الشّرطة بأيّ جديد؟

تبتعد أنيتا إلى الخلف. تستلّ من جيب الفستان ربطة شعر تلمّ بها شعرها الأسود المتماوج.

– ما زالوا يبحثون عنه. نفضوا منزله في صيدا ولم يجدوا شيئًا. أين تراه هرب به الكلب؟

– وجّه السّؤال لنفسك. (تقتعد الكنبة محاولةً الحفاظ على هدوئها. ثمّ تضيف، وعمر ينظر إليها آسفًا، نادمًا) هل بحثوا عنه في كفرشوبا؟

– لم يجدوا سوى أخته وأمّه في البيت. حتّى إنّ الأخيرة هوت أرضًا لدى سماعها الخبر.

– ألم يتتبّعوا الخطّ الذي اتّصل منه على البرنامج؟

– فعلوا. لكنّ ابن العاهرة ذكيّ يعرف ماذا يفعل. لقد أتلف الشّريحة بعد استعمالها.

– أتظنّ أنّه سيعاود الاتّصال بك؟

– لا أعلم. السّافل، ظننته درويشًا لا يجرؤ على رفع وجهه عن الأرض!

– هدّده بأولاده.

– قبل قليل علمت أنّهم سافروا وأمّهم إلى السّعودية. أبعدهم من هنا ليحميهم منّي. يبدو أنّه كان يخطّط للأمر منذ زمن. بعدما أخرجته من السّجن، أتى إلى مكتبي. انهال على يديّ بالقبل. راح يتوسّل إليّ لأبقيه في العمل. رَقّ قلبي لِوَهْنه، فعدلت عن رغبتي في طرده. تحنّنت عليه وناولته مالًا، فرفضه معتبرًا أنّي أغرقه بأفضالي. وكلّما لمحته بعد ذاك في القصر، ابتسم لي وأطرق خجلًا. حتّى بعد أن علم بما قالته أخته على التّلفاز، أتاني معتذرًا. جثا عند قدميّ واستسمحني. بكى كطفل. رجاني ألّا أحمّله ذنب حماقة أخته وأعيده إلى السّجن. أخبرني أنّه وأخته متخاصمان منذ زمن، لأنّه لا يستنظفها. على حدّ قوله، لأخته السّاقطة علاقات مشبوهة لا تُحصى، وطوال عمرها كانت تلهث خلف أضواء الشّهرة.

يا إلهي كم أشعر بأنّي غبيّ وسهل. إن حدث شيء لآدم، مهما كان صغيرًا يا ديانا، فسأطبق السّماء على البلد بمن فيه!

– لا يهمّني ماذا ستفعل. المهمّ أن يرجع ابني. (تقف شاهرةً يديها) أوتدري؟ لا تفعل شيئًا. أخشى أن تعرقل الأمور أكثر. من الأفضل أن نراسل الإدارة العليا.

– لا، أرجوك، لا، ليس الآن أقلّه. يكفي الغضب الذي استشعرته في برقيّتهم إزاء فضيحة ندى واستنجادنا بهم للتنّظيف ورائي. دعيني هذه المرّة أحلّ المشكلة بنفسي. أعدك حبيبتي، سأحلّ الأمر بهدوء ومن دون شوشرة. اتّفقنا؟

– ماذا لو لم يجد البوليس بدر؟ أو ماذا لو وجدوه، وقبل أن يسلّم نفسه، قتل آدم؟ حضرتك تعرفه أكثر منّي. ألديه نوايا إجراميّة؟!

– اهدئي حبيبتي أرجوكِ. لو كانت لديه نوايا لقتل أخته بتهمة الزّنا. اطمئنّي. الجبان يريد تهديدي فقط. لكنّه نسي من أكون. نسي أنّه لحظة يقع بين يديّ لن يسعفه أحد، حتّى الله الذي يعبد!

– لا أريد كلامًا. أريد فعلًا. (تسير نحو الطّاولة. تستلّ سيجارةً وتشعلها) أنت تعلم أنّ ابني أغلى ما أملك. (تنفث الدّخان بتوتّر) وتعلم أنّه في حياتي كالشّريط الأزرق، ممنوعٌ تجاوزه.

– وماذا عنّي أنا؟ (يسير نحوها، فتبتعد). ماذا أمثّل في حياتك؟

يودّ لو يكمل: أحيانًا أشعر بأنّك لم تحبّيني سوى لمصلحة، وأنّ كل المشاعر التي أظهرتها لي لم تكن نابعة من صدق. كانت مجرّد حيلة تعلّقني بك. أريد أن أعرف، هل قولك لي يوم رجعت إلى إسرائيل بعد تنفيذ مهامّ الأعوام العشرة الواجبة عليّ في لبنان «أنت هتكفاه [1] حياتي. أنت وطني، واليوم أنا حصّلت حقّ العودة»، هل قولك ذاك كان صادقًا؟ إن كان كذلك فعلًا، فلـِم تعاملينني

أحيانًا معاملة السّيّد لخادمه؟ بمجرّد أن أرتكب ما لا يرضيك، تمحين عن وجهك الابتسامة، وترفعين في وجهي سياطك. كأنّ ما بيننا ليس حبًّا بين روحين، بل حلف بين دولتين، يُفضّ عند أوّل خلاف، وبأمر من الدّولة الأقوى. بأمرك أنت. أنت إسرائيل، وأنا بلاد العُرب الواحدة والعشرين.

إلّا أنّه لا يستطيع مواجهتها بخباياه، إذ رغم كلّ شيء، تظلّ أنيتا المينورا أعلى رأسه، الشّمعدان الذي يضيئه في عيون النّاس. أنيتا سِفر تكوينه. هي التي منها يستمدّ ألوهيّته. لهذا يخاف من النّبس أمامها بكلمة قد تحرقه، قد لا تبقي فيه أثرًا ولو لنصف إله.

– هذا ليس موضوعنا الآن. (تعاود الجلوس على الكنبة). فقط تذكّر: خسارتك لإيهود تعني خسارتك لي، وخسارتك لي هي خسارة لكلّ ما أنت عليه اليوم. (تطفئ السّيجارة وتلفّ ساقًا على ساق). من الأفضل لك أن تخرجنا ممّا أوقعتنا فيه. أتسمع؟

---

[1] نشيد.

4

تفتح ندى ستارة النّافذة المطلّة على الشّارع العامّ، وتجلس إلى طاولة المطبخ العصريّ بمواربة حياة. تلتقط قطعة الخبز المحمّص. تطحنها بين أسنانها بلا شهيّة. تنظر إلى ابنتها التي تتناول الفطور مُطرقةً نظرة حنوٍّ ورجاء. منذ وقتٍ لم تعد تحاول استنطاقها. أكّد لها اختصاصيّو المركز هنا أنّ الإلحاح على مريض الصّمت الانتقائيّ له مفعول مضادّ، بحيث قد يطوّر لديه صمتًا أبديًّا، وأمام الجميع. مذّاك اليوم، تركتها على سجيّتها. صارت إن أرادت التّعبير لها عن مشاعرها تدوّن الكلام على ورقة تدسّها تحت مخدّتها لعلّها تقرأها. تمنّت لو تجد تحت المخدّة ردودًا لرسائلها. لكنّ ذلك لم يحصل يومًا. رغم هذا لم تفقد الأمل. بقيت تكتب لها، وهي مدركة أنّها لن تجد ردًّا واحدًا بالمقابل. أحيانًا تكون في حالة نفسيّة متأزّمة، فتطول رسائلها، تستحيل مناجاةً زاخرة بالنّدم. وأحيانًا أخرى تكتفي بكلمة «أحبّك»؛ الكلمة التي لا تحتاج إلى سواها من فم حياة مسكّنًا لوجعها. ما أصعب أن تغدو حياة المرء متوقّفة على كلمة!

تتنهّد. تشغّل في رأسها أغنية يا حبيبي تعال لأسمهان. تحاول أن تفكّر إيجابيًّا فقط. يجب ألّا تدع شيئًا يكدّر صفو يومها. فخلال ساعات قليلة ستوقّع عقدًا مع جهة لبنانيّة تنظّم مهرجانات عظيمة يحييها مطربون عرب في بلاد الاغتراب.

– ندى، أودّ محادثتك.

يخرج كريم من غرفة النّوم بالبيجامة قاطعًا حبل أفكارها. تلحق به، غير مطمئنّة إلى الحزم في نبرته. يطلب إليها أن تغلق الباب. تجفل قبل أن تمتثل لطلبه. تستدير وتجلس قربه على حافة السّرير، ضامّةً ركبتيها لتلجم اهتزازهما.

– انظري إلى ما جناه عليك تهوّرك.

يقول مشيرًا إلى شاشة الكمبيوتر المضاءة.

– ماذا هنالك؟

تزدرد ريقها قائمةً نحو الجهاز.

– وهذا ليس الموقع الوحيد الذي نشر غسيلك.

تضع ندى يدها على فمها بإحكام، محدّقةً بما نُشر على أحد المواقع الصّحافيّة اللبنانيّة.

– عشرات الصّفحات تتناقل صورًا مشابهة، وبعضها يحوي فيديوهات. وكلّ هذا يا مدام لأنّك لم تدركي مع أيّ رأس كبير علقتِ!

تتنقّل بين الصّفحات التي كان كريم قد فتحها. تلعن حظّها. تودّ لو تهوي على الجهاز بالمطرقة!

– هل استمتعت بأنّك شفيتِ غليلك من خالد عبّود؟ فلتستمتعي أكثر بهذه النّتيجة.

– ما دخل خالد الزّفت بالأمر؟ هذه الصّور والفيديوهات يحوزها شخص واحد... أدهم وهبي.

تروح تذرع الغرفة لاعنةً أدهم «أبو كرش». حنجرتها تنكمش:

– الحيوان كان يزرع دون علمي كاميرات في غرفتي!؟

– وما قصّة الرّجل الذي يدفعك عاريةً؟

– إنّه هو. تانك الذّراعان ذراعاه. ذات يوم غافلني وأنا أرتدي ثيابي. حاول التّعدّي عليّ. نزع صدريّتي. دفع بي أرضًا. وحين خلع بنطاله ولاحظت حجم رجولته، ضحكت. فبكى وغادر ولم يكرّر فعلته. لا أصدّق، كيف لم أفطن آنذاك إلى وجود الكاميرات؟

– من الواضح أنّ خالد وأدهم متواطئان في هذه اللعبة. وإلّا فكيف تفسّرين تزامن نشر هذا الهراء وأوّل تصريح تليفزيونيّ مباشر لخالد عبّود بعد فضحك له؟

مرتميةً على السّرير باستسلام:

– لا أعرف.

– وماذا تعرفين حضرتك؟ أن تقومي بكلّ شيء من وراء ظهري؟

– كريم، الوقت ليس مناسبًا لهذا الكلام. دعنا نفكّر بطريقة لإزالة الصّور والفيديوهات عن الإنترنت.

– صراحةً، لا أجد وقتًا أنسب من الآن! ما نفع إن امّحت تلك الصّور والفيديوهات أو لم تُمّحَ؟ لا شيء سيغيّر رأي النّاس بك بعد اليوم. سيحتقرونك. سيتأكّدون من أنّ كلّ ما حكيته عن خالد عبّود كان مجرّد افتراءات لتكسبي الشّهرة.

– لكنّ الصّور أُخذت في غفلة منّي، وفيديو الاعتداء لا يتعدّى عشر ثوانٍ. بإمكاني أن أكذّب الأمر للصّحافة وأقاضي أدهم. ثمّ إنّ النّاس ليسوا مغفّلين ليعتبروني عاهرةً أبتغي الشّهرة، بناءً على

صور تظهرني عارية في غرفة لتبديل الملابس، أو على فيديو يظهر نصف الحقيقة، أو على رقصات عارية كما ترقص أيّ امرأة أمام مرآتها!

– ندى! ندى! النّاس يكتفون بالعناوين، بالواجهة، ليطلقوا أحكامهم في موضوع ما. لا يعنيهم الغوص في الأسباب والماورائيّات. تكفيهم قطرة من غيمة فقط، ليملأوا بحار أفواههم.

– لكنّ هذا ليس عادلًا. أيُعقل أن يظلم النّاس صوتي لأنّ أدهم قرّر أن يظهر لهم لحمي؟

– لو لم تُدخلينا في متاهة خالد عبّود، لكنّا رفعنا دعوى ضدّ أدهم واستطعنا التّخلّص من هذه الفضيحة لاستعادة صورتنا النّظيفة. لكنّنا الآن مقابَلون بدعوى سيرفعها خالد عبّود ضدّنا لأنّ حضرتك تسرّعت متذاكيةً بفضحه علنًا، بدل أن تتركي الأمر للقضاء.

– وأنا مستعدّة للقضيّتين. نحن من سيربحهما. يكفي أن نُجري فحص «دي إن إيه» لعمر وحياة، لتكرّ وحدها سبحة الحقائق.

– أنتِ بالتّأكيد فقدت عقلك. يا ذكيّة، هل ما زلت تظنّين أنّك ستنتصرين على رجل كخالد؟ إن كنت تظنّين ذلك فعلًا، فأنت واهمة.

تهبّ واقفةً. يداها تعلوان وتهبطان كأنّما فقدتا الانضباط:

– واهمة؟ حين قلت إنّ خالد هو عمر، لم تصدّقني. سخرت منّي. لكنّي استطعت أن أثبت لك تلك الحقيقة. وها أنت الآن تعاود السّخرية منّي، لكن لا يهمّ.

يتقارب الاثنان حتّى يصيرا وجهًا لوجه، لا تفصل بينهما سوى بضعة سنتيمترات، وزفرات:

– أيّ حقيقة يا ندى؟ أتلك التي بسببها أُقيل برايان من كلّية الاقتصاد؟ انظري ماذا سبّبت حقائقك لصديقنا!

– إقالته دليل أنّي محقّة. بظهر عمر جهات سياسيّة كبرى. ثمّ أنا حقًّا مشدوهة بك! ألست أنت من عرض عليّ عضلاته لأتخلّص من أدهم؟ لمَ تخشى الآن الوقوف معي ضدّ عمر؟

– يا ندى، لبنان ليس فرنسا، وبيروت ليست باريس! هناك تستطيعين إسقاط رئيس. ما من أحد عليك إله. هنا، لا. الأقوى منك لا يُستحبّ أن تنظري إليه، لأنّه فوقك ويحقّ له كسر عنقك. وخالد عبّود فوق الكلّ. هذا واقع. وأنت كأنّك لا تعيشينه.

– أصلًا أنت لا تجيد سوى السّخرية منّي. لكن لا يهمّ. سأتدبّر نفسي وأخطّط وحدي لأنتقم.

يفتح كريم ذراعيه على نصف امتدادهما، ويسير إلى الخلف مزمجرًا:

– انتقام انتقام! ألم تتعبي بعد؟ أتريدين أن تقضي حياتك تنتقمين؟ تنتقمين ممّ؟ ممّـن؟! للتّذكير، أنت الآن امرأة متزوّجة، لا مراهقة! بحياة العدرا، ولك بحياة الشّياطين الزّرق، دعي ابنتك تُشفَ ولا تزيدي الأمور تعقيدًا. لم تصرّين على جرّنا معك إلى الهاوية؟ أصبحتُ لا أعرفك ولا أتوقّعك ولا أفهمك. أين ندى التي تزوّجتها؟ أين تلك المرأة الشفّافة التي لا تخبّئ عنّي شيئًا؟ (يتوقّف على مقربة من باب الغرفة، رافعًا سبّابته إلى وجهه الـمُحتَقِن) اسمعي يا ندى. كلمة واحدة ليس لديّ غيرها؛ إن أقدمتِ مرّةً أخرى على فعل شيء دون مشورتي، أو من وراء ظهري، فاعلمي أنّ زواجنا انتهى!

ويدلف خارج الغرفة، فخارج الشّقة، صافقًا البابين خلفه بعنف. تهمّ ندى باللحاق به، لكنّها تتسمّر على عتبة الغرفة حين ترى حياة بذاك المنظر. تراها لا تزال جالسةً إلى طاولة الفطور، عيناها السّوداوان الكبيرتان سارحتان خارج النّافذة، الدّمع ينهمر على وجنتيها، وشهقاتها المكتومة ترجّ جذعها.

ينقبض فيها قلب الأمّ. تشعر بأنّها مملوخة بين خيارين، في يديها فقط قرار انتقاء الأفضل؛ خيار تفجير براكين الانتقام التي لا تكلّ عن الغليان داخلها، وخيار إخماد النّيران التي أشعلتها في أسرتها.

– ما... ما...

تُفاجأ بالتفاتة تحين إليها من حياة. ترى شفتيها الصّغيرتين المفتقرتين للّون تتباعدان شيئًا فشيئًا، لتقولا بيأس:

– ما... ما تزعّلي كـ... كريم.

هذا. هذا ولا شيء آخر. ثمّ تقوم عن الكرسيّ متحاملةً على شهقاتها، وتسرع الخطى إلى غرفتها، كمن ضرب ضربةً وهرب.

أثناء هذا المشهد المباغت، الذي مات فور الولادة، يسيطر الجمود على ندى. لا تعرف خلال وبعد ثوانيه العشر بما يجب أن تشعر. أتقفز فرحًا لأنّ ابنتها نادتها «ماما» ولو بشكل متقطّع، أم تلكم رأسها لأنّ ما تبع «ماما» لم يوائم ما كانت تتطلّع إلى سماعه؟ بمَ يجب أن تشعر تحديدًا؟ لم تكن متأكّدة. لكنّ الأكيد أنّ التّفكير بمصيبتها المستجدّة سلبها فرحة سماع ابنتها تتكلّم معها كإنسان طبيعيّ لأوّل مرّة. لهذا لا تؤثر اللحاق بها، إنّما تفضّل أن تخطو إلى الخلف، لتخلو إلى نفسها.

تغلق الباب على سأمها. ترتمي على السّرير، ماطّةً ذراعيها على وسعهما.

فوق، في سقف الغرفة الواطئ، تروح وجوه عمر وأدهم وكريم تدور وتتنطّح. يتملّكها صداع حادّ، وندمٌ أَحَدّ. توصد جفنيها تستعيد مشاهد الأشهر الأخيرة من حياتها. مشهدٌ فآخر، وتستدرك خطأها. ما كان يجب أن تخبّئ شيئًا عن كريم، لا زيارتها لعمر في قصره، ولا اتّصالها به لإخلاء سبيل أخيها، ولا لقاءاتها السّرية بصديقه برايان، عميد كلّية الاقتصاد في جامعة بنسلفانيا، ولا نيّتها الظّهور في تلك المقابلة فقط لفضح الحقائق. كان يجب أن تستشيره، ألّا تتصرّف من تلقاء نفسها. أليس هو زوجها ومدير أعمالها والمنقذ الذي جعل منها مطربة ناجحة؟

تروح تلوم وتشتم نفسها، قبل أن تزفر أخيرًا هواء رئتيها الملوّث حيرةً؛ إخماد النّيران التي أشعلتها في زواجها هو الخيار الذي ستتمسّك به. فَلْيَمُت قهرًا خيار تفجير براكين الانتقام! لا تصدّق كم كانت عمياء صمّاء بكماء في رحلة انتقامها العبثيّة هذه. كيف لم ترَ أنّ في حياتها رجلًا أحقّ بطاقتها المهدورة من سائر رجال الدّنيا؟ كيف غفلت عن موسيقى حبّه أشهرًا طويلة، وأَوْلَت سمعها ما تعزفه دواخلها من كراهية؟ كيف لم تترنّم له بخبايا روحها، وآثرت تجيير صوتها في خدمة معارك خاسرة حتمًا؟

تفتح عينيها عن مرّ الحقيقة: لقد أذنبت بأنانيّتها. بتفرّدها بقرارات كبيرة تمسّ مصير أسرتها بالكامل. هذا ما حدا بكريم إلى أن ينفجر. لا بدّ من أنّ استخفافها غير المتعمّد به ألحق بمشاعره الأذى. وليس آذى على الرّجل من أن تستخفّ به امرأة.

تقوم عن السّرير خائرة القوى. تذرع الغرفة بخطى مضطربة. رأسها يصفّر بالأسئلة: كيف تستلّ من أعماق كريم سكّين الاستغفال والاستغباء التي طعنته بها عن غير قصد؟ هل ستسعفها ثيابها بعد اليوم على محو صورتها العارية من أذهان النّاس؟ كيف ستتمكّن من إنهاء معركة شتّتها على وحش كاسر يكبرها بأضعاف؟ أثمّة بعدُ إمكانيّةٌ لتوقّي شرّ أنانيّتها، أم إنّ حرائق أفعالها استعرت ولم يعد ممكنًا إطفاؤها؟

يضنيها تواتر هذا الكمّ الهائل من علامات الاستفهام؛ أين كريم الآن؟ لا أحد غيره قادر على إنامة صخب تساؤلاتها. متى يرجع؟ وإن رجع، فهل يسامحها؟

تدهمها رغبة ملحّة في سكب مشاعرها في أُذن أحد، أيّ أحد – صديقتها دلال، أختها لميا، حتّى خديجة زوجة أخيها، يعنّ لها الاتّصال بها. ثمّ تتذكّر أنّها ليست بوارد أن تسمع عتبًا أو حِكَمًا، أو أن يخطّئها في فعلتها أحد. تودّ فقط لو تتكلّم دون أن تلقى بالمقابل أيّ ردّ. أخيرًا، يوافيها الحلّ المناسب. تمشي صوب أحد الأدرُج. تتناول منه قلمًا وورقة.

ستشرع بالتّعبير كتابةً إلى التي لا تردّ، إلى الصّامتة دومًا، إلى... ابنتها.

تحمل القلم وتروح تسيّل روحها على الورقة، متمنّيةً، للمرّة الأولى منذ أمد، ألّا تقابلها حياة بردّ ولو مقتضبًا، كالذي خرج منها قبل دقائق.

تنتبه للمفارقات. تضحك، وتبكي، وكلّه في آنٍ واحد.

5

يفتح بدر علبة تونا يتناولها من مخزون الطّعام الذي كان قد اشتراه خلال التّحضيرات لهذه العمليّة، ويدلف من المطبخ إلى الصّالون. يعبر الباب الخشبيّ البُنّي الذي يتوسّط الجدار الأقصى، ويهبط الدرجات العشر المؤدّية إلى الملجأ.

إنّه اليوم الثّاني له هنا، في هذه الفيلا غير المكتملة البناء، والنّائية بنفسها على أطراف سهل البقاع. الفيلا ملك أحد أصحابه الطيّبين، القابعين زورًا في السّجن بتهمة الإرهاب. ذات يوم، كان الاثنان في زيارة إلى عنجر، وكان الوقت قد تأخّر للعودة إلى صيدا، فعرّجا للمبيت هنا ريثما يطلع الصّبح. وخلال التّخطيط لهذه العمليّة، استذكر أمر المكان، فزار صديقه الذي ما إن سمع بخطّته، حتّى وافق على إعطائه المفتاح، داعيًا الله أن ينصره. لكن، هل سينصره فعلًا؟ مع كلّ لحظة تحول دون تحقيق مبتغاه، يزداد توجّسًا من أنّه تسرّع.

على الدّرجة السُّفلى، ينتزعه انقطاع الكهرباء من شروده. السّادسة مساءً. الرّؤية في الملجأ لا تزال معقولة. لا داعي لإنارة الشّموع الآن.

يمضي في سيره وصولًا إلى آدم المربّط في كرسيٍّ خشبيٍّ بحبلين ثخينين، واحد عند وسطه والآخر عند رجليه.

– أحضرت لك الأكل.

يرنو آدم إليه بطرْف منخريه.

– ما بك؟ لَم تأكل شيئًا منذ البارحة. وجودك هنا سيطول كثيرًا، ولا أظنّ أنّ شابًّا مثلك تربّى طوال عمره على العزّ قادرٌ على أن يغالب الجوع.

يشيح آدم بناظريه، رافضًا الكلام.

– حسنًا كما تريد. سأعود إلى فوق. إن غيّرت رأيك، انده لي.

لا يكاد يهمّ بمغادرة الملجأ مع علبة التّونا، حتى يستوقفه آدم هاتفًا:

– مباركٌ لك صديقي انضمامك إلى لائحة النّاس الذين انخدعتُ بهم.

تتقوّس شفتا بدر في تبرّم. يطلق تنهيدةً عميقة ساخرة. لا يرى بُدًّا الآن من فتح هذا الحديث الذي كان متحاميًا الخوض فيه. على بعد متر ونصف من آدم، يقتعد الأرض متربّعًا. يقول:

– هل تعلم لِـم اختطفتك؟

يرشقه آدم بردٍّ فوريّ:

– لأنّك جبان.

– جبان!

– أتعلم لِـمَ؟ لأنّك خنت عقد العمل الذي يفرض عليك أن تحميني، لا أن تفعل هذا بي.

– يبدو أنّ والدك الكريم لم ينسَ أن يورثك لسانه المعسول.

– أنت مثيرٌ للشّفقة.

يصمت بدر مُطرقًا. يروح يغالب شعورًا بالإهانة. يجب ألّا يدع شابًّا في أواخر العشرينات يثير غضبه. عليه أن يتحلّى ببعض الصّبر، كصبر شيخه محمود، ربّما خلال هذا الحديث يتمكّن من تهشيم صورة خالد الرّاسخة بزيفها في ذهن آدم. بعد لحظات، يخرج عن صمته، جائلًا نظره في وجه الشّاب القمحيّ الممتلئ، وعينيه الخضراوين المائلتين إلى الزُّرقة، وشعره الأشقر الخشن، وساعته الذّهبيّة، وعروق ساعديه البارزة:

– هل سألت نفسك ما الذي قد يدفع رجلًا لديه زوجة وأولاد يخاف عليهم إلى نقض عقد؟

يدفع آدم سريعًا بالجواب:

– مهما كان الدّافع، فإنّه واهٍ ينمّ عن ضعفٍ في الشّخصيّة.

يهبّ بدر واقفًا:

– اسمع ماذا لديّ يا ابني ولا ترمِني بمواعظ!

يرفع آدم عينيه إلى بدر الفارع القدّ. تتغلّظ شرايين عنقه وهو يقول محتدًّا:

– أنا لا أعظك. هذه الحقيقة. رغم ما تخلّفه نبرة صوتك وبنيتك لدى النّاس من انطباع بأنّك رجل وصاحب قرار، أنت من الدّاخل طفل مُسيّر، يرتعد لأصغر المصائب.

تلفظ عينا بدر بخار الغضب. تعلو كفّه الغليظة لاإراديًّا، لكنّه سرعان ما يتدارك الأمر معاودًا إنزالها إلى جانبه.

– حقيقتنا. الشّمس الوحيدة التي لا نتمنّى لها إشراقة.

يكتّف بدر يديه. يخطو بعيدًا عن آدم وهو يقول:

– يا عيني عليك، أنت طلبتها! الحقيقة! (بغتةً يتوقّف، معاودًا التّوجّه إلى آدم وهو يعابث لحيته) أنا يا بنيّ لم أعتَد أن يستقوي

عليَّ أحد. لكنّ والدك فعل. ومرارًا. (ثمّ يمشي صوب الشّاب الرّافع أنفه باشمئزاز، فيلتفّ حول كرسيّه، ويتوقّف خلف ظهره، ساندًا جذعه إلى الحائط، ومكتّفًا ذراعيه السّمراوين الغليظتين) لا تنخدع بخالد عبّود. قد تكون بعيدًا عن السّياسة ولا يعنيك معرفة تفاصيل عمله، ولكن سيأتي يوم تدرك فيه أنّ أباك أوسخ رجال الأرض.

لا يلقى بدر جوابًا. يحاول امتصاص بلل عينيه وهو يستذكر بعض مشاهد آخر سنة خدمة في القصر. يفشل في حبس شهقة:

– الكرامة. أيدرك أبوك يا آدم أنّه يمكن أن يأخذ كلّ شيء من الفقراء أمثالي، إلّا الكرامة؟ لقد طعنني والدك في كرامتي. تلاعب بمصيري مرّات، وهدّدني بأولادي. ضع نفسك مكاني. ماذا كنت ستفعل؟ أكنت ستسكت؟ أكان سيرضيك أن تعيش عمرك تحت حذاء سيّدك، لا تعلم متى يرفعه عنك ومتى يعاود دوسك به؟ أخبرني؛ ماذا كنت ستفعل؟

يمسح بدر عينيه محاولًا التّماسك، ويروح ينتظر ردًّا يحسّ بأنّه لن يأتيه، لكنّه يفعل:

– ماذا يعني وقوفك الآن خلفي؟ أتخشى النّظر في عينيّ وأنت تتكلّم؟ أتتحامى أن أراك على حقيقتك؟ هذا هو الجُبن يا بدر. أنت أضعف من أن تواجه أبي، فاختطفتني.

بعد سكون، ينفجر بدر كبالون محقون:

– أصلب رجال الأرض يتهيّبون النّظر في عينيْ أبيك! أجل، أنا لست قادرًا على مواجهته. أكنت تريدني أن أذهب إليه في مكتبه وأقول له هيّا يا دكتور عبّود، آن لك أن تخرج إلى العالم وتعترف بأنّك لفّقت للشّيخ محمود تهمةً باطلة وأجبرتني على الاشتراك في لعبة سياسيّة وسخة للتّبلّي على الرّجل وترهيب النّاس بوهم

الوحش الإسلامي الذي ابتدعته وجماعتك لغرضٍ في أنفسكم؟ لستُ مختلًّا لأقوم بخطوة كهذه. لذا لم أرَ سواك وسيلةً أواجه أباك بها. أنت تصلح لتكون ورقة ضاغطة عليه، عساه يعترف بالحقيقة.

– لو افترضنا أنّ كلامك عن والدي، وعن سبب اختطافك لي، صحيح، أتظنّ أنّه سيعترف بالحقيقة؟ أأنت أبله إلى هذا الحدّ؟

– سيعترف. أنت ابنه الوحيد، ولا أظنّ أنّه سيفرّط بك. أو... مهلًا... (يعاود الالتفاف حول الكرسيّ، ويتوقّف أمام آدم مُنَغِّمًا نبرته) ماذا لو فرّط بك فعلًا؟

يضع آدم عينيه نصب عينيْ بدر، ثمّ يرفع حاجبيه مُتلمِّظًا.

– قد يكون والدك يولي السّمعة الاهتمام الأكبر. أليس أمرًا محتملًا؟

لا يُحير آدم جوابًا. فيتربّع بدر أرضًا، ويروح يعابث رباط حذائه الرّياضيّ الأبيض، ليقول شيئًا يضمر به معنى آخر، هو الوحيد الذي يفهمه:

– ما دام في أرضنا ناسٌ كخالد عبّود، لن نعرف العدل يومًا. (ثمّ يرفع ناظريه إلى سقف الملجأ البالغ مترين ونصف المتر في ثلاثة أمتار) يُقال إنّ العدالة الحقيقيّة فوق، في الجنّة. ولكن ما المانع أن نقيم العدالة على هذه الأرض؟ (ثمّ ملتفتًا إلى آدم، يستدرك) لستُ غبيًّا طبعًا، العدالة قد لا تقوم على يديّ. لكن لا ضير من أن أكون أنا مطلق شرارتها الأولى. حين ينزل والدك عند مطلبي، سيتغيّر كلّ شيء. لا تعلم. قد يدرك النّاس أنّ الإسلام هو طريق الخلاص الوحيد لهذه الأمّة، وقد تُمّحى من رؤوسهم فكرة أنّه دين إرهاب، الفكرة التي تُوظّفُ الملايين يوميًّا لأجل تكريسها حقيقةً مطلقة.

ينفرط آدم ضحكًا:

– وماذا تسمّي اختطافي؟ أو وجود هذا المسدّس على خاصرتك؟ إرهابًا أم... إرهابًا؟

– هذا... هذا المسدّس ليس لإيذائك. في النّهاية، أنا لست مجرمًا.

– كلّكم تقولون هذا.

– أنا لا أعلم لم أبرّر لك أصلًا!

– لستَ مجرمًا فعليًّا ربّما، لكنّك خائن. خنت العهد. وهذا إجرام من نوع آخر. أنت يا بدر نسخة طبق الأصل من مسلمي اليوم؛ تمسكُ الدّين من ذيله. لا أعتقد أنّ صورة الإسلام تهمّك إلى هذا الحدّ. أساسًا، أشعر بأنّك لم تؤمن عن فهم وتعمّق، أنّك فقط تتلطّى خلف مجموعة شعارات لتركب الموجة، أو لتسدّ بداخلك ثغرة، أو حاجة.

يقوم بدر واقفًا؛ كفى تحليلات نفسيّة لليوم. لم يكن هناك داعٍ للبقاء هنا والتّمادي مع آدم في حديث لا فائدة منه! غضبان، يسرع تجاه مدخل الملجأ. يرتقي السُّلَّم إلى فوق، ويستلقي على الكنبة. خلال محاولته الاستسلام لقيلولة قصيرة، يدهمه سؤالان: هل في كون المخطوف طبيبًا نفسيًّا حكمةٌ إلهيّة ما؟ هل أراد الله أن يوصل على لسانه له رسالة؟ كما يغلق الباب على آدم، كذلك يفعل على السّؤالين. يغمض عينيه، ويغفو.

الثّامنة إلّا ربعًا مساءً.

يفتّح عينيه على أوّل خيوط الظّلام، وعلى صوت آدم يناديه. يفكّر: لا بدّ استسلم الشّاب أخيرًا لصراخ معدته، ولم يستطع التّمادي أكثر في عناده وتجبّره. عن الطّاولة المجاورة للكنبة، يتناول

علبة التّونا نصف المفتوحة وثلاث شمعات، وينزل إلى الملجأ. يزرع الشّموع كُلًّا في زاوية ويضيئها بالولّاعة، فيتبيّن في نورها الخافت تبدّلًا طارئًا في ملامح آدم. يتراءى له الآن شخصًا آخر، أضعف بمرّاتٍ من آدم الصّلب، الذي تحامل على جوعه زهاء يوم وبضع ساعات، والذي، منذ ساعتين فقط، كان يتحدّاه ويتذاكى عليه بالكلام؛ عجيب ما قد يفعله الجوع؛ يفكّر. مهما استكبر المرء، فلا بدّ سيصغر أمام قرقرة بطنه.

– أريد أن آكل.

يقول الشّاب منهكًا، فيأخذ بدر يلقّمه التّونا ملعقةً إثر ملعقة، حتّى تفرغ العلبة.

– شبعت؟ ثمّة أكل كثير فوق.

يهزّ آدم رأسه إيجابًا ويقول:

– أريد قضاء حاجتي.

يفكّ بدر الحبل الذي يربط وسط آدم بالكرسيّ، ويربط يديه بحبل آخر قصير معلّق على مشجب مجاور. ثمّ يفكّ الحبل الملتفّ حول رجليه، ويساعده في النّهوض صوب المرحاض في الزّاوية المقابلة. يتمكّن آدم من فتح سحّاب بنطاله بنفسه، فيستدير بدر للنّاحية الأخرى مفكّرًا بأنّ في وجود المرحاض هنا فائدة كبيرة، بحيث إنّه لن يضطرّ لاصطحاب آدم إلى فوق ليقضي حاجته، فيرى المكان ويقدّر جغرافيّة محيطه. يحمد الله لهذا ولكون سائر تفاصيل العمليّة جاءت محكمة بناءً ومتقنة تنفيذًا، من لحظة إفراغ غاز مكيّف السّيّارة، فَدَسِّ المادّة المسهّلة في مشروبَيْ زميليه، فَرَشِّ وجه آدم برذاذ حارق للعينين فَكَهْرَبَتِهِ فَكَلْبَشَتِهِ، ثمّ الانطلاق بالسيّارة إلى شاحنته الجديدة المركونة في منطقة حرجيّة قريبة، وأخيرًا

وضع آدم في صندوق الشّاحنة معصوب العينين، والقيادة به رأسًا إلى هذه الفيلا.

– ساعدني.

يقول آدم بعد أن يفرغ مثانته، مشيرًا إلى زرّ البنطال الذي لم يستحكم إغلاقه. يساعده بدر، ثمّ يعاود تربيطه بالكرسيّ.

– أنت لا تدرك ماذا تفعل. والدي لن يسكت.

تخرج نبرة آدم خفيضة، يشوبها شيء من الاستسلام. ثمّ يضيف:

– حين يجدوننا، ستدرك أنّ ما قمت به كان أغبى خطوة في حياتك. فكّر مليًّا يا بدر. ما رأيك بأن نعقد صفقة؟ أجل. أنت تطلق سراحي، وأنا أساعدك على الهرب من البلد.

يودّ بدر لو يضحك، لكنّ أثرًا ما تُعمِله نبرة آدم فيه يجعله يكتفي بالابتسام:

– لن يجدونا. سيملّون البحث عنك، ثمّ سيرضخ والدك ويعترف بالحقيقة أمام الملأ. صورته كرجل مثاليّ، كبطل شجاع، كإله، ستتحطّم على يديّ. ستراه كما لم تفعل قبلًا!

يشيح آدم بوجهه جهة اليسار. يلقي نظرةً مستنكرة إلى ساعة يده الضّخمة. فجأةً، تتّسع عيناه، ويغرق في شرود عميق، كما لو أنّه يستذكر شيئًا هامًّا. يحلّل بدر نظرته الذّاهلة تلك أنّها إيقانٌ منه متأخّر بأنْ، بعد كلّ السّاعات التي مرّت وهو قابع تحت الأرض في منطقة مجهولة، لا أحد سيتفقّى أثره، إن شاء الله.

– سأعود بعد قليل.

يغادره بدر إلى الطّابق العلويّ. يضيء شمعتين في الصّالون. يوصل التّلفاز إلى البطّاريّة. يروح يحرّك الأنتين ذات اليمين وذات

الشّمال، حتّى يلتقط تردّد إحدى القنوات المحلّية.

النّشرة المسائيّة. يستمع إلى العناوين. لا عنوان يبشّر بأنّ عمليّة الخطف هذه ستُؤتي ثمارها. يستمع إلى الأخبار مُفصّلةً. الخبر الأوّل عنه. وجه قارئة النّشرة يقطر سمًّا. يسمعها تتّهمه بمحض أباطيل. تقول إنّه كان على صلة بالإرهابيّ الشّيخ محمود عبد الأمير، وتعرض كدليل المقابلة المعدّلة التي صوّرها تحت تهديدات خالد عبّود، لكنّها لا تأتي إطلاقًا على ذكر خبر إطلاق سبيله مرّتين، الأولى وهو في الحجز قيد التّحقيق والثّانية وهو مسجون. ثمّ يُعرَض تقرير يُظهر خالد عبّود يقول إنّ الخاطف كان يعمل لديه في القصر، وإنّه سرّحه ساعة تأكّد من صلته بالشّيخ محمود، وإنّ عمليّة اختطاف ابنه عمليّة إرهابيّة منظّمة تقف خلفها القاعدة. يفغر فاه محتدًّا وهو يشهد على كلّ ذاك الافتراء بحقّه. يستخلص العبرة: من أراد امتلاك أكثر الأسلحة الشّرعيّة فتكًا، فَلْيَبنِ لنفسه منبرًا إعلاميًّا. يقفل التّلفاز. حسنًا يا خالد الجحش، فلتكذب كما يحلو لك، ولنرَ من منّا سينتصر، من منّا يستحقّ بالفعل أن يكون ذا شأن!

يأخذ شمعةً مضاءة من جواره ويدخل المطبخ. يفتح علبة مورتاديلا صغيرة الحجم يأكلها. يقف أعلى سُلّم الملجأ. يصرخ:

– أتريد أن تأكل؟

يجيئه الرّد فورًا:

– أريد فقط أن أتكلّم مع أبي لأطمئنه.

ينزل إلى الملجأ. ما إن يراه آدم حتّى يقول بنبرة حانية، ودمعة عالقة في مآقيه:

– أرجوك. باله مشغول عليّ أكيد.

لا يجد بدر بُدًّا من التّهكّم:

– إن كان للمشغول، فهو مشغول جدًّا. بحياكة الأكاذيب، لا بك. أنت آخر اهتماماته.

– يا بدر إنّي أختنق هنا. دعني أتكلّم معه ولو لثانية. مهلًا لا تذهب! إن كنت حاقدًا عليه إلى هذا الحدّ، انسَ أمره. دعني أتكلّم مع أمّي. أرجوك.

تطفر من عين آدم دمعة، تجعل بدر يستذكر وجهي ابنيه؛ بكره علي، وصغيره خليل. يرقّ قلبه. هو، الأب الذي لا يتخيّل أنّ باستطاعته العيش يومًا واحدًا دون سماع صوت أولاده، يجب ألّا يضنّ على ديانا بسماع صوت ابنها. لكن، بما أنّ شبكة الإرسال لا تغطي الملجأ، سيضطرّ لاصطحاب آدم إلى أعلى.

يأخذ شقفة قماش مرميّة جانبًا. يعصب بها عيني الشّاب. يفكّه من الكرسيّ مُبقيًا على الحبل الذي يكبّل يديه، ويسحبه خلفه مرتقيًا السُّلَّم.

في الصّالون، يجلسه على الكنبة. ويتناول شريحة جديدة يضعها في الجوّال.

– ما رقم أمّك؟

يخبره آدم متلعثمًا، فيدوّنه على لوحة المفاتيح في التّو.

– لديك عشر ثوانٍ لتقول ما لديك. عشر ثوانٍ لا أكثر. اتّفقنا؟

يهزّ آدم رأسه، وعلى شفتيه ابتسامة شاكرة. فيضغط بدر زرّ الاتّصال وينتظر سماع صوت ديانا. يسمعه، فيُدني الجوّال من أذن آدم، ويبدأ بالعدّ إلى عشرة.

– أمّي... اسمعيني... بخير بخير... لا أعلم أين... (يضيف بعجلة وبلغة لا يفهمها بدر) You didn’t contact the administration yet? Whatayou

[1]
waitin' for? The watch, mom. I'm wearin' the watch!

– انتهى وقتك. آسف.

يبعد بدر التّليفون عن أذنه، ويقفل الخطّ، ثمّ يطفئ الجوّال، ينتزع منه الشّريحة، ويلقي بها إلى مرحاض الحمّام المجاور. بالتّأكيد هو غير مُلمٍّ بحيثيّات هذه الخطوات الاحترازيّة التي يقوم بها. كلّ ما في الأمر أنّها عالقة في ذهنه من الأفلام البوليسيّة، المصريّة منها والأميركيّة المدبلجة، التي كان يُكثر من مشاهدتها قديمًا في الضّيعة، ورأى فيها احتياطات قد تقيه فشل العمليّة.

– شكرًا لك بدر.

– فعلتُ هذا لأنّ أمّك سيّدة طيّبة. أتريد أن تأكل قبل أن أعيدك لتحت؟

– لست جائعًا.

– عندما تجوع اصرخ لي صوتًا.

يهمّ بدر بأخذ يديه المربّطتين لإنزاله إلى الملجأ، فيقول آدم:

– هذه السّاعة. إنّها تسبّب لي حكّة مزعجة. انزعها عن يدي يا بدر لو سمحت.

خلال نزعه السّاعة عن رسغ آدم، تتراءى له بين أصابعه ثقيلةً، وزنًا وثمنًا. يفكّر بأنّها تساوي مئات الدّولارات، أي ما يفوق ثمن قميصه القصير الكمّين، وبنطاله الجينز الواسع، وحزامه الجلديّ، وحذائه الرّياضي، وسرواله الدّاخلي، وسائر ما يرتدي الآن مُجتمعًا. أهذا هو حكمك بالعدل يا الله؟ أن يكون أقبح النّاس أكبرهم، وأجمل النّاس أصغرهم؟ لمَ الانتظار حتّى تحين السّاعة لتُسلّط سيف المساواة على الجميع؟ ألا يمكن إقامة ميزان العدل الآن، في هذا الزّمن؟

تكتظّ في ذهن بدر أسئلة كثيرة مشابهة، يرى أنّ إجاباتها تكمن في أن يثق بنفسه وبهذه العمليّة التي يؤمن بأنّها ستحدث تغييرًا جمًّا على أحوال هذه الأمّة، وعلى أحواله هو، بالدّرجة الأولى طبعًا.

التّاسعة إلّا ربعًا مساءً.

يلقي نظرةً إلى الخارج من خلف السّتارة المنسدلة على نافذة الصّالون. ما من ضوء إنارة واحد في المدى القريب يكسر سواد الليل. يتساءل ما الذي دفع صديقه إلى الارتفاع بفيلّا من طابقين في منطقة طقسها هائل التّباين بين الليل والنّهار، ولا يأهلها سوى قبيلة سوريّين تنصب خيمتها على بعد خمسمئة متر، أوّل سهل البطاطا المجاور؟ لا يطيل التّفكير بالأمر. يبتعد عن النّافذة متنهّدًا، ويقرّر فتح التّلفاز.

النّشرة الفنّية. ومن سوى فضائح أخته ليحتلّها؟ ساعة علم من زميل له في القصر بما حكته ندى في تلك المقابلة، أيقن أنّها لم تعد بكامل وعيها. أرجع الأباطيل التي اتّهمت بها خالد عبّود إلى كونها تسعى لأن تنشهر على ظهره. هو أخوها ويعرفها حقّ معرفة. لن ينسى أيّام كانت تصعد إلى سطح البئر على مصطبة بيتهم، فتغنّي لأسمهان مقلّدةً حركاتها وهي تمسك بعصا التمسيح كأنّها ميكروفون، وفي عينيها حلمٌ بالشُّهرة يلمع. وفي غياب والديه أحيانًا، كانت تجمع لميا ودلال وصبايا الحارة، فتسمعهنّ كلّ ما يطلبن، ثمّ تختتم بانتشاء: «أحبّكنّ يا بنات. أنتنّ جمهوري الأوّل. وعدٌ منّي، لن أخذلكنّ. سأستميت لأصير نجمتكنّ. ويومًا ما، ستفخرن أمام جميع النّاس بأنّي كنت أغنّي لَكُنّ على سطح هذه البئر. لا أريد شيئًا من الحياة سوى الشّهرة والغناء.

أحلم بأن أموت وأنا أغنّي على مسرحٍ كبير، كبير جدًّا، الجماهير أمامي بالمئات، بالآلاف، الكلّ يصفّقون لي، لي أنا، ويصرخون باسمي، ندى، ندى، ندى!». كم كان يراها تافهة حمقاء! لم تستطع أن تحقّق أيًّا ممّا حلمت به (يا لشماتته!)، فرأت أن تنسب أبوّة ابنتها اللقيطة إلى الدّكتور خالد، متّهمةً إيّاه بأنّه عمر، جارهم القديم ذو النّدبة، الذي سافر إلى سوريا دون عودة. لو كان خالد هو عمر فعلًا – وهذا ليس معقولًا أصلًا – فلمَ يدخل قضيبه في عاهرة قبيحة مثلها؟ المشهد وحده يقلب الأمعاء! بالفعل إنّها تافهة وحمقاء. لكن، لمَ العجب؟ العاهرات قد يبتدعن الأساطير ويصدّقنها، فقط ليصلن إلى مرادهنّ. لكنّه على يقين بأنّ ندى لن تصل سوى إلى الدّرك الأسفل.

عند سماع ما قال صديقه، دهمه خوف كبير من أن يعيده خالد عبّود إلى السّجن، أو أن يطرده من عمله الذي استمات للبقاء فيه، فيُفسد عليه بذلك مخطّط الانتقام. لذا لم يرَ حلًّا سوى الذّهاب إلى خالد في مكتبه، ومحاولة استعطافه من جديد، وإعلامه بأنّه هو وأخته متخاصمان منذ ما يزيد عن عقد، لأنّها حملت من دون زواج. حمدًا لله، كان خالد عبّود الجحش خير مُتلقٍّ!

يواصل الاستماع إلى فضيحة أخته الجديدة. يفهم من المذيعة أنّ على الإنترنت فيديوهين قصيرين بلا صوت، الأوّل يظهر ندى تغنّي وتتراقص عاريةً أمام المرآة، والثّاني يُظهر يدي رجل تدفعانها أرضًا بصدريّتها المنزوعة، فوق كومة ثياب. لا يستغرب الأمر. يكتفي بترديد «الله أكبر»، ويزداد تيقّنًا بأنّ ندى أكبر عاهرات الأرض. يشكر ربّه لكونها هربت بِنُتنها بعيدًا عنه وعن عائلته، فجنّبته تلويث يديه بدمها الوسخ.

تعلن المذيعة أنّ ندى ستطلّ من مكان إقامتها الحاليّ في أميركا، في نقلٍ مباشر عبر الأقمار الصّناعيّة. تُقسم الشّاشة قسمين، الأوّل يظهر المذيعة في الاستديو، والثّاني يظهر ندى على كنبة جلديّة، بماكياج هادئ، وشعر مُسرَّح، وثوب أخضر بلا كمّين. يرفع بدر الصّوت ليتبيّن ماذا تقول ندى بالضّبط. يسمعها تتّهم مدير أعمالها السّابق أدهم وهبي بزرع كاميرات في غرفة تبديل ملابسها، والتّعدّي الفاشل عليها كما يظهر في الفيديو. وكدليل على أنّ المقطع القصير ليس جنسيًّا، تسأل النّاس: ماذا يدفع واحدة مقبلة على ممارسة الجنس لأن تصرخ وتتجهّم؟ ثمّ تعلن بنبرة دبلوماسيّة أنّها مستعدّة لمواجهة خالد عبّود في المحاكم، وتسأل: ما هذه الصّدفة التي دفعت أدهم وهبي إلى نشر الفيديو والصّور المسيئة العائدة إلى نهايات القرن العشرين، تزامنًا ونشرها هي لفضائح خالد عبّود؟ تشرح سؤالها باتّهام أدهم وهبي بأنّه وجد أنّ خالد عبّود هو الشّخص المناسب لبيعه الصّور والفيديوهات مقابل المال، وأنّ عبّود بدوره اقتنص الفرصة وروّج للصّور والفيديوهات لتشويه سمعتها وإشغال الرّأي العامّ عن فساده. ختامًا تطلب من النّاس ألّا يحكموا على الكتاب من عنوانه، وأن ينصفوا صوتها الذي لم تستخدم سلاحًا سواه في طريقها الطّويل نحو الشّهرة. وتناشد كلّ محبّيها ومتتبّعيها أينما كانوا في العالم القدوم لحضور المهرجان الصّيفي المتنقّل الذي ستُحيي أولى حفلاته في شيكاغو ليل غد مع مجموعة من أهمّ المطربين العرب...

«هَزُلَتْ» – يطفئ التّلفاز معاتبًا نفسه. لقد أنسته أخته صلاة المغرب. يضيء شمعةً في الحمّام، يتوضّأ، ويخرّ فوق بلاط الصّالون

النّظيف ساجدًا. أثناء الرّكعة الثّالثة، يترامى إليه أذان العشاء آتيًا من بعيد، غالب الظّن من جامع مدينة غزّة البقاعيّة. حال التّسليم، يتناول علبة مورتديلا ورغيف خبز، يلفّ سندويشًا، وينزل إلى الملجأ.

يُفاجأ لرؤية آدم مبتسمًا إبتسامة غريبة بعض الشّيء. كأنّ فيها شيئًا من خبث. من مكر. أو هو فقط يتوهّم. عل كلٍّ، حالة الشّاب النّفسيّة عادت جيّدة، وهذا ما يهمّ. لا بدّ شحن فيه الاتّصال بأمّه مخزون الطّاقة والتّحمّل. يقترب منه، يطعمه السّندويش بيده، يتأكّد من أنّه لا يحتاج إلى شيء آخر، ويقفل عائدًا إلى أعلى. لا يكاد يفرغ من صلاة العشاء داعيًا الله أن يُسمعه في الصّباح أخبارًا طيّبة، ويخلّصه من قلقه وتوجّسه الدّائمين، حتّى يحدوه شعور بالنُّعاس. يبلّ ريقه بشربة ماء، ينزع ساعته، يضعها جنب ساعة آدم، يخلع قميصه الأسود، ويتمدّد عاري الصّدر على الكنبة في الصّالون. «باسمك اللّهمّ أموت وأحيا». ويستسلم للنّوم.

في الحلم يرى أولاده متحلّقين حول خديجة وسط حقل أخضر مزهر. جميعهم يضحكون بشغب، إلّا ابنه البكر علي، يبدو حزينًا، كما لو أنّه ليس جزءًا من تلك الـجَمعة الحلوة، يضع وجهه بين راحتيه، وينخرط في بكاء مرير، فيما أخوه وأخواته المبتهجون لا يسمعونه. أمّه التي تغنّي لا تسمعه كذلك. ثمّ ينزل من السّماء طائر كبير يحطّ على كتف خديجة. يذرف دمعة تسقط بين يديها، دمعة تستحيل طفلًا صغيرًا في منتهى الجمال والبراءة. يغتبط الأولاد. يقفزون ويرقصون ويهلّلون، إلّا علي، يظلّ مكانه يئنّ ويشهق. بعدها يبتعدون عن المكان، تاركين علي وحده، والأرض من حوله تتفتّق!

الله أكبر. يفيق بدر من الكابوس. يستعيذ من الشّيطان. رئتاه متقبّضتان، وشعر صدره يتقطّر عرقًا. يتلفّت حوله مرتاعًا. النّور ساطع، والحرارة عالية. تشير عقارب ساعة آدم إلى الثّامنة والنّصف صباحًا.

اليوم هو السّبت 14 آب. آخر مرّة هاتف فيها خديجة للاطمئنان على الأولاد كانت يوم الأربعاء، قبل يوم من اختطاف آدم. أيعاود الاتّصال بها الآن؟ لكن، ماذا لو صار خطّ بيت خالها طلال في السّعودية مراقبًا؟ هو لا يريد أن يدخلها في سين وجيم بصفتها تتواصل مع زوجها الخاطف. لكنّه في ذات الوقت ليس مطمئنًّا. يودّ لو يبرّد ناره ويتأكّد من أنّها والأولاد بخير. سيتّصل بها. سيسألها باقتضاب «هل جميعكم على ما يرام؟» ويقفل الخطّ فورًا، ليجنّبها ويجنّب نفسه الخوض في كلام يؤجّج الشّوق والقلق وعذاب المسافات.

يلبس قميصه. يدخل شريحةً جديدة في الموبايل. يطلب الرّقم. يأتيه صوت خال زوجته، حزينًا على غير عادة. يتبادلان سلامًا سريعًا، ويطلب منه بدر أن يعطيه خديجة.

– الحمد لله حبيبتي الخطّة تسير على ما يرام، لا تخافي على زوجك، كان ولم يزل بطلًا، كيف الأحوال؟

– عن أيّ خير تتكلّم؟ ماذا فعلت بنفسك يا بدر؟ ماذا فعلت بنا؟

تشعله ولولة زوجته توتّرًا:

– خديجة ماذا دهاك؟

– ألم تعلم؟ طبعًا لا. كيف لك وأنت مشغول بما هو أهمّ؟ كيف لك وقد قطعت علينا سبل الاتّصال بك؟

– ماذا حدث؟!

– ماذا لم يحدث! ظللت راكبًا رأسك حتّى راح. علي يا بدر... علي راح. ولك إبننا علي يا بدر!

– عـ... علي؟ (يبرد عرقه) إبني؟ ولك كيف يا خديجة؟

– بالخطأ. أشهد أن لا إله إلّا الله. بالخطأ!

يقبض بدر على صدره. تستعر نبضات قلبه. الأشواك تنبت حول رئتيه. يختنق وهو يسمع:

– قتله صديقه. كان يلهو عصر البارحة ببارودة والده. وعلي كان برفقته. يا عمري أنا يا إمّي. انطلقت رصاصة بالخطأ. أصابته في حنجرته. ما عاد في علي يا بدر. ابني اختفى صوته للأبد. لن أسامحك. لن أسامحك ما حييت. وتأكّد، ابنك تحت التّراب لن يسامحك أيضًا. أنت المسؤول يا بدر. كلّ هذا بسبب حماقتك!

يحترق قلبه. تميد به الأرض. يخال الدّنيا تصغر وتضيق طاحنةً قفص صدره. يطفئ الموبايل. يرميه جانبًا. يأبى أن يستوعب. يسيل الدّمع على لحيته. يتهالك على الكنبة صامتًا للحظات قبل أن يصرخ. يصرخ كما لم يصرخ قبلًا. تتمزّق حنجرته. تبرز شرايين عينيه وعنقه. وكمن لدغ في الوريد، يروح يذرع الصّالون في كلّ الاتّجاهات، خابطًا رأسه بيديه.

ثمّ فجأةً، يستشعر طحشةً خارج المنزل.

ما إن يقترب من ستارة النّافذة ليتبيّن القادم، حتّى يدهمه صوت حازم عبر المكبّر: «بدر خليل خولي. نعلم أنّك في الدّاخل. اخرج حالًا وسلّم نفسك». يسترق نظرةً من خلف السّتارة إلى مدخل الفيلّا. يرتعد. سيّارات قوى الأمن الدّاخلي تطوّق المكان، وبعض العناصر يشهرون السّلاح في تربّص.

يبتعد إلى الوراء ملسوعًا؛ كيف له أن يستوعب ضربتين قاضيتين في ذات الوقت؟ تكفهرّ أساريره. تثقُل قدماه. يهوي فوق الكنبة مسلوب الطّاقة والفكر. يستدرك شناعة الموقف؛ لقد انتهى. انتهى كزوج، كوالد، كرجل حلم بتغيير العالم. يودّ لو يتّصل الآن بخديجة ويعتذر، يخبرها كم هو أحمق، كم هو نادم، ويستسمحها لأنّه خذلها وخذل أولاده. هذه العمليّة كانت بالنّسبة له الرّصاصة الأخيرة، الرّصاصة التي أصابت كلّ الأهداف سوى هدفه. وهدفه الوحيد كان أن يثبت لنفسه أنّ باستطاعته ما باستطاعة رجل كخالد عبّود، لا يزيده في شيء: أن يكون هو سيّد قراراته!

يتصبّب عرقًا فيما نداء قوى الأمن يتكرّر. يستشعر خطوات أقدامهم تقترب.

أهذه هي النّهاية؟ بديهيّة الجواب تفزعه، تنحره، إلّا أنّها في ذات الوقت تغذّي فيه الرّفض؛ لا! لن يعود صفر اليدين إلى السّجن! لن تضيع سنوات عمره بين القضبان وقلبه متقطّع على علي، بينما سعادة النّائب خالد عبّود يستكمل حياته سعيدًا باسترجاع ابنه. في النّهاية، هو لم يفعل كلّ هذا للاشيء. يجب أن يغيّر في مجرى الأحداث قليلًا. لقد خاب ما يكفي في تسيير حياته، ومن غير الجائز أن يكون هنا وحده الخائب. بمتناوله ورقة أخيرة بعد، سيلقي بها، قبل أن يلقوا به في الزّنزانة إلى الأبد.

يهبّ واقفًا. تتعاظم بداخله طاقة عجيبة لا يدري كنهها، طاقة هائلة تروح تستنهض أبشع ما فيه. المارد النّائم في قعره منذ أمد يصحو أخيرًا. ها هو يشقّ طريقه إلى جلده، يتلبّسه، ويحيل لون عينيه أحمر. سوف ينتقم.

يستلّ المسدّس من جانبه. يكرج إلى الملجأ. نبض قلبه وحشٌ مفترس.

حالما يلمح وجه آدم، يجده مبتسمًا ابتسامة شامتة، ابتسامة تنقلب رأسًا على عقب لحظة يلوح بين يديه المسدّس.

– بدر تمهّل، ألم تقل إنك لا تريد إيذائي؟ ستُضيع عمرك هباءً في السّجن ولن يدعوك ترى عائلتك. أنت صديق طيّب ومؤمن. لا يا بدر.

– لأنّك صديق، ولأنّ علي قتله صديقه، يحقّ لي...

لا يكمل بدر جملته. يخرطش السّلاح بأصابع مرتعشة، يزمّ جفنيه، يعضّ على لسانه، ويطلق تجاه آدم المسلوب اللون رصاصة عشوائيّة، رصاصة تعطي في التّو الضّوء الأخضر لرصاصات أخرى مدوّية، رصاصات من غير مصدر، من الخلف، تخترق لحمه، تسلبه حواسّه، وتوقعه مترنّحًا على الأرض، عائمًا في بركة من دمٍ، وحلمٍ، ووهم.

---

[1]ألم تتصلي بالإدارة بعد؟ ماذا تنتظرين؟! الساعة يا أمي. أنا أضعها...

6

شيكاغو كلّها حاضرة الليلة. عرب وأجانب مختلفو الجنسيّات يملأون المدرّجات الـتي بيعت مقاعدها بالكامل، أمّا من لم يستطع الاستحصال على تذكرة، فقد بقي خارجًا، قرب المدخل، ليشاهد السّهرة مباشرةً عبر شاشة ضخمة رُكّبت خصّيصًا للمناسبة.

منذ الأزل وهي تحلم بإحياء حفل غنائيٍّ بهذه الضّخامة، حفل تترنّم فيه أمام جمهور حيّ بكلّ ما مات وما يموت فيها من مشاعر. أخيرًا، وبعد بضع دقائق، سيغدو حلمها حقيقةً. من غرفة استراحتها الأنيقة التي خصّصها لها منظّمو المهرجان واضعين على الباب جهة الخارج نجمةً لامعة تؤطّر اسمها، تلتقط صياح الجماهير ملعلعًا بينما الفنّان المغربيّ يشعل بأدائه المسرح. في برنامج الليلة، دورها يأتي رابعًا، مباشرةً بعد ذلك الفنّان. الجميل أن لا أحد سيغنّي بعدها. ستكون هي مسك الختام.

الحادية عشرة والرّبع. خمس عشرة دقيقة ويحين موعد إطلالتها. قلبها الصّغير يكاد يتوقّف. رغم بهجتها العارمة، القلق من الفشل يلوك أعصابها. إنّها فرصتها الأخيرة لتلميع صورتها المتّسخة

في أعين جمهورها، كما هي فرصتها لتنصيب نفسها نجمةً في أعين من يجهلها. لهذا قرّرت الليلة أن تأخذ مسارًا مغايرًا لمن سبقها من فنّاني الحفل الذين يصغرونها عمرًا، ويكبرونها جماهيريّة. قد تكون مخاطرةً منها ألّا تركب موجتهم وتغنّي الشّعبي أو الرّاي أو الدّبكة أو سائر الألوان التي تلهب النّاس وتدفعهم للقفز وهزّ الخواصر، لكنّها على أتمّ الاستعداد للقيام بهذه المجازفة. لقد قرّرت الليلة أن تسلك الطّريق الأصعب لإرضاء النّاس، الطّريق الذي لا تجد نفسها في سواه: الطّرب. الليلة، على مدى ساعة ونصف السّاعة، ستُطرب المستمعين. لا تريدهم أن يتقافزوا أمامها ويحدثوا بصياحهم ضجّة لا طائل منها. تودّ أن تحزّمهم في مقاعدهم، وتطير بهم على متن رحلة جوّية طويلة؛ تودّ لو تسمع صياح أرواحهم، وترى قلوبهم تتقافز. تودّ لو تنكأ جراحهم، وتنبش قصص حبّهم وانكساراتهم. تودّ لو يصيرون مرآتها، وتصير هي مرآتهم، ويصير الانعكاس الوحيد هو انعكاس ما يقبع في الدّاخل، الحقيقة المطلقة الوحيدة تحت كلّ طبقات الجلد الكاذب: الإنسان.

تنظر في مرآتها المستطيلة المعشّقة على الجوانب بنجوم صفراء صغيرة. ترى المرأة التي لطالما أرادت أن تكونها. لا المرأة الأجمل، ولا المرأة الأذكى، ولا المرأى الأهدى بالًا، بل المرأة الحالمة التي تحاملت على آلامها وتجبّرت على قسوة الحياة لتحقّق ذاتها. جميل بعد هذا العمر أن ينبت الورد في أثلام جلدها، والأجمل أنّ جانبها عائلةً صغيرة محبّة ستشاركها فرحة القطاف.

من الخارج يطرق أحدهم الباب مناديًا. لديها خمس دقائق لتتوجّه إلى كواليس المسرح. يتسارع أدرينالين دمها. تكاد تهلع. رغم غنائها أمام صبايا الضّيعة أيّام الطّفولة والمراهقة، وفي ما بعد

أمام مرتادي الملاهي الليليّة أيّام أدهم وهبي، ومن ثمّ أمام جماهير المسارح والمناسبات المحترمة في حقبة كريم حاليًّا، تشعر بأنّ هذه هي المرّة الأولى التي ستغنّي فيها أمام أحد. بعجل تستلّ أدوات الماكياج. تقوم بتعديلات بسيطة على صفحة وجهها الهادئ. الليلة، قرّرت أن تمازج في مظهرها الطّبيعيّ بالأنثويّ. وضعت أحمر شفاه فاتح اللون، ماسكارا سموكي فاحمة، وفون دو تان خفيفاً، سرّحت شعرها الغزير شبه القصير وأسدلته، لبست ثوبًا أسود يبرز عظمتي كتفيها ووركيها ويصل إلى ما دون الرّكبة بقليل، وزيّنت عنقها بقلادة فضّية مرصّعة بحجر فيروزيّ، أهداها كريم لها الشّهر الماضي بلا مناسبة.

تنظر نظرةً أخيرة في المرآة. تبتسم. تطبع لنفسها قبلةً في الهواء. أصعب ما على المرء، مهما بلغ فيه الكمال أشدّه، أن يعترف لنفسه بأنّه راضٍ عنها. لكن هي، في هذه اللحظة بالذّات، ودون معرفة الأسباب، تشعر بأنّها راضية. راضية بما أنجزته، وبما ستنجزه. رغم كلّ ما هو عالق في حياتها الآن، من مرض حياة، وزعل كريم، ومشاكلها مع عمر وأدهم، تشعر بالاكتفاء والهناء، بأنّ كلّ تلك المشاكل مجرّد عقد صغيرة ستُحلّ آجلًا أو عاجلًا. أجل، إنّها راضية؛ تهزّ رأسها إيجابًا وتقف. نحو المسرح تحثّ خطاها.

في الكواليس، تصطدم بالفنّان المغربيّ الذي أنهى توًّا وصلته. إنّه غارق في عرقه. يعلّق قائلًا إنّها تبدو متألّقة الليلة. يتمنّى لها حظًّا سعيدًا. يخبرها أنّه سيتابعها فور تغيير ملابسه. يصافحها ويمضي إلى غرفته الخاصّة. رأيه هذا يعطيها شحنتي طاقة وثقة إضافيتين. مزهوّةً، تسرع إلى الكواليس. يناولها مساعد مدير

الصّوتيّات المايكروفون، ويطلب منها الخروج إلى المسرح فور ذكر مقدّم الحفل اسمها.

ترتعش لِصَدْح الصّوت «في ختام سهرتنا للّيلة، نترككم لتستمتعوا بوصلة طربيّة من أجمل أغنيات الزّمن الذّهبي، بصوت المطربة اللبنانيّة... ندى!». يشتعل التّصفيق. تشتعل معه قلقًا.

المايكروفون مشغّل؟ لا عيب في الفستان؟ القلادة على عنقك؟ شعر إبطيك منتوف؟ لا عرق على جبينك؟ ثدياك غير مرئيّين؟ فوطتك الصّحّية في مكانها؟ مثانتك فارغة؟ هل... ندى! توقّفي! ماذا دهاك؟ كفى تخوّفًا. ستبلّلين سروالك. هيّا تحرّكي. الجمهور لن ينتظر أكثر.

تطرد الوساوس التي دهمتها، وتخرج إلى المسرح.

ما إن تطلّ على النّاس، حتّى تعلو موجة جديدة من التّصفيق.

أهذا اسمها؟ تمطّ رأسها للأمام. أجل، هو! تسمعه ينطلق من حنجرة ما، من حناجر مختلفة، في الصّفوف الأماميّة، أو في تلك الخلفيّة، لا يهمّ من أين، المهمّ أنّ هذا هو اسمها، وها هو يصدح الآن في سماء رحبة ملأى بالنّجوم: «ندى ندى»، مع مدّ النّون.

تقطع المسرح بالطّول. خطواتها متّزنة، بطيئة، هادئة. الليلة الفائتة حلمت بأنّها تعثّرت بكعبها العالي وجعلت من نفسها أضحوكة.

تصل إلى مقدّمة المسرح. يخمد التّصفيق تدريجًا. تلتقط الآن بشكل أوضح، رغم الإضاءة القويّة المواجهة لها، وجوه النّاس في المدرّجات. في الصّف الخلفيّ، يأسرها منظر يكبر له القلب: شابّان وصبيّتان متجاورون، كلٌّ يرفع حرفًا من اسمها بالإنكليزيّة. تتّسع الابتسامة على محيّاها؛ لديها معجبون وهي لا تدري؟ قلبها! تضع

يمناها على صدرها لتتأكّد من أنّه لم يزل في موضعه. جيّد. الآن حان وقت الجدّ.

بسبّابتها تطرق على المايكروفون. تتردّد الطّرقة عبر المكبّرات الصّوتية. الجهاز يعمل. تدنيه من فيها. قبل أن تشرع بالكلام، تتذكّر أن تأخذ نفسًا عميقًا.

– مساء الخير.

يردّد الليل الصّدى. تجري بناظريها مسحًا دائريًّا للمدرّجات، وتردف:

– شكرًا لكم. لا تعلمون كم يشرّفني حضوركم، وكم تسرّ خاطري رؤيتكم.

ثمّ تشخص إلى كريم الجالس جانب حياة في الصّف الثّاني. تبتسم له رغم حياديّة ملامحه:

– اسمحوا لي بأن أهدي هذا الحفل إلى رجل مهما حكيت عنه فلن أوفيه حقّه. رجل صنعني، كبّرني، أخرج أجمل ما بداخلي. إلى من أفتديه بروحي، زوجي، وحبيبي، ونصف عمري. كريم، أحبّك. سامحني.

تترقرق في عينيها دمعة. ليت كريم يراها. ملامحه تظلّ ملتزمةً الحياد. تمنّي نفسها بحقيقة أنّ كريم اسم على مسمّى، عاجلًا أو آجلًا لا بدّ سيسامحها، ولن يبخل عليها الليلة بابتسامة تغبط روحها. تهزّ رأسها آملةً الخير، ثمّ تولي بصرها شطر الصّامتة، المتألّقة بثوب أزرق سماويٍّ انتقاه كريم لها. تتوجّه إليها بنبرة حانية:

– كما أهدي أغاني اليوم إلى أجمل، وأذكى، وأرقّ فتاة على الأرض. إلى التي لم أعرف قيمتها إلّا متأخّرة. أنت قمري. أضعتُني

حين أضعتك، ووجدتُني بعدما وجدتك. لك عمري الباقي. ونبضي الباقي. وكلّ ما بقي من أنفاسي. أتمنّى أن تكوني فخورةً بي الآن، كما أنا فخورة بك. أحبّك ماما. سامحيني.

تشيح بوجهها داريةً دمعة؛ مهما كان ردّ فعل حياة، لا تريد أن تعرف ما هو.

– بالطّبع، لن أنسى أختي الصّغيرة التي لطالما حالت الظّروف بيننا حاجزًا. من أميركا أحلى سلام لك لملوم. أحبّك يا شيطانة، وإلى اللقاء قريبًا.

ثمّ تستدرك:

– أضجرتكم صحّ؟ شكرًا لإصغائكم. كان هذا كلّ ما لدي. Good night!

تعلو ضحكات الجمهور وهي تثبّت المايكروفون على السّتاند المعدنيّ، وقبل أن تعطي إشارة البدء إلى الفرقة الموسيقيّة تقول:

– آن أن أقدّم لكم روحي. داروها رجاءً.

يصدح النّغم عاليًا في الأجواء. كافتتاحيّة، لا أجمل من التّحليق و«طيور» أسمهان. يكفّ الخوف حالًا عن مضغ عروقها. يتلاشى فيها كلّيًا، فضلًا عن سائر المشاعر السّلبيّة، ما إن تعتكف في صومعة الغناء.

تغنّي بكلّ ما أوتيت من إحساس. تشمخ برأسها، تبسط ذراعيها على امتدادهما، وتغنّي. لا قوّة على الأرض قادرة على أن تسلبها مجد حنجرتها. تشعر، كما لم تشعر يومًا من قبل، بأنّها حرّة. حرّة من كلّ قيود الفكر التي تكبّلها. للحبال الصّوتيّة في ذروة رنينها حقل مغناطيسيّ يستنهض في النّفوس مارد الحرّية.

قبل هذا اليوم، كانت منهمكة بالانتقام من ماضيها. لم تدرك سوى الآن أنّ الثّأر يُبقي المرء تعيسًا، يدور ويدور في دائرة مفرغة، كما لو أنّه ينتقم من نفسه فقط. الليلة، اكتشفت عقارًا للانتقام دون أعراض جانبيّة. مجرّد وقوفها على هذا المسرح، امرأةً حرّة موهوبة شهيّة، يعدّ انتقامًا. كريم كان محقًّا. الفنّ وسيلة الأذكياء للأخذ بالثّأر. والليلة، قرّرت أن تكون ذكيّة. حبالها الصّوتيّة هي المشانق التي ستنصبها للماضي. ستغنّي ليُحتضر كلّ شيء خلفها. النّوتة رصاصة في جبين كارهيها. الحاضر يغدو ماضيها؛ أمّها. أخوها. أدهم. عمر. لن تلتفت بعد اليوم إلى أحد. ستُسقطهم عن حبال صوتها، في هوّة حنجرتها، واحدًا تلو الآخر. تشدو وتصدح طربًا. تغنّي احتفاءً بذاتها. بشفائها. الاحتفاء بالذّات هو حبٌّ لها، وحبّها بالمقدار الذي تستحقّ، يشفي الكراهية.

«يا مسافر وحدك»، «أَكْذِب عليك»، «إِنتَ عُمري»، «أنا في انتظارك»، «يا رَيْت مِنُنْ»، «وحدُن»... تتوالى الأغنيات، ويتوالى التّصفيق. تَجاوُب الجمهور معها يدفعها لإخراج كلّ ما يعتمل فيها. تغتبط لرؤية التّأثّر في لمعة عيونهم، في التّمايل الخفيف لرؤوسهم، وفي حركات أياديهم اللاإراديّة؛ كأنّ أداءها يلامس فيهم مطارح لم يمسّها أحد من قبل. في الصّفوف الأماميّة امرأة لم تستطع تمالك نفسها خلال «وحدُن»، أبلغ أغاني فيروز شجنًا. عند «صرِّخ عَلَيْهُنْ بالشّتي يا ديب، بَلْكي بْيِسْمَعوا»، كادت تنهار لولا أن ضمّت رَجُلها، لتفرغ على كتفه ماء حزنها. أليس هذا أعظم ما قد يتمنّى فنّان إنجازه؟

توقيت أغنية الشّحرورة صباح «ساعات ساعات». ترمي ببصرها سريعًا إلى كريم. تعلم كم يحبّ هذه الأغنية، خصوصًا بصوتها.

ساعات ساعات
ساعات ساعات
أَحِبّ عُمري
واعشق الحياة

حتّى اللحظة، ملامحه باردة.

لمَ يا كريم؟ لا يليق بك التّجهّم. وحده الابتسام خُلق لوجهك.

أَحِبّ كُلّ النّاس
وِأَتْمِلي إحساس
واحِسّ جُوّايَ بمية نغم
مية نغم يملوا السُّكات
ساعات، ساعات

حياة أيضًا لا تظهر تجاوبًا.

ابنتي، هل ازددت كرهًا لي، بعد ذلك الشّجار مع كريم، كريم الذي صرت تحبّينه أكثر منّي؟ هل قرّرت الاصطفاف معه ضدّي، ولا سيّما أنّ أوّل وآخر ما قلته لي كان ألّا أجعل كريم يزعل منّي؟ أويعقل أن تكونا حكيتما سرًّا، واتّفقتما على أن تقاصصاني؟ أعرف أنّي لم أتخلّص من كامل أنانيّتي بعد. لا إنسان يا ابنتي معصوم عن الأنانيّة. أفلا تودّين أن تغفري؟

وساعات ساعات
ساعات ساعات
أَحِبّ عُمري
واعشق الحاجات

رغم نبرتكَ التي تغيّرت معي يا كريم في اليومين الماضيين، ورغم تجاهلك لي كحبيبة، واكتفائك بالتّعاطي معي كمدير أعمال، ورغم انكفائك عن ممازحاتك، وحزمك المستجدّ في تصرّفاتك معي، أنا متيقّنة بأنّك ستضمّني إلى ذراعيك عاجلًا، وتسامحني على أخطائي الصّغيرة. حبيبي، ابتسم. عُد كريمي الذي أعرفه. كبرياؤك جميل، لكنّ تسامحك أجمل. أَمُصِرٌّ على ألّا تبتسم؟ قد تكون عنيدًا، لكنّي أعند. خلال إحدى الجمل اللحنيّة للأغنية، تدور ترقص حول نفسها، ثمّ تطبع لكريم قبلةً في الهواء، لا تجعله يبتسم فقط، بل تضحكه من الأعماق. كنت أعلم أنّ هنا مكمن ضعفك. حبيبي أبو الكرم.

لفرط سعادتها، تكاد تقفز عن المسرح ترتمي بين أحضان كريم وتلثمه حتّى الشّبع. لكن عليها أن تكمل، فتكتفي بالابتسام، رغم الشّجن:

وساعات ساعات
أَحِسّ أَدِّه إيه وحيدة
وأَدِّه إيه الكلمة في لساني
ما هيش جديدة

الحبّ. السّماحة. الوداعة. هذا هو كريم. أخيرًا عاد. كانت تعلم أنّه لن يصمد طويلًا في مخاصمتها. عيناك يا كريم. هل أخبرتك أنّ في عينيك أجمل موسيقى؟ عزفًا طوباويًّا، من غير دُنيا؟

رغم كرب الكلام، تترنّم به فرحًا، كشحارير الوادي المغرّدة:

أَحِسّ أَدِّه إيه وحيدة

كلّا، هي ليست وحيدة.

وأَدِّه إيه مانيش سعيدة

إنّها أسعد إنسانة على الأرض.

وِنّ النّجوم، النّجوم، بعيدة

النّجوم تغدو أقرب إليها من نفسها.

وتقيلة خطوة الزّمن

الزّمن بين أصابعها صار كالهواء. بل أخفّ.

تقيلة دقّة السّاعات

ساعات.. ساعات..

وتسكت في أذنيها كلّ السّاعات.

تلوح لها بقعة ضوء تنفغر وسط السّماء. لا ضوء الشُّهرة، ولا ضوءًا لإنارة المسرح. بل ضوء أنصع بياضًا. نور لم ترَ له مثيلًا من قبل. ينفلش في عينيها كقطرة خمر.

ما به الجمهور يصرخ فزعًا؟ لمَ كلّ هذه الجلبة؟ تتلفّت يمنةً ويسرةً لعلّها تفهم. لا تفهم. شكّاتٌ في صدرها تحملها على طأطأة رأسها. تلفح عينيها حرارة السّائل الأحمر الذي يسيل على الفستان. من أين أتى كلّ هذا الدّم؟ ما الذي يخدّر أحاسيسها؟ لمَ لا تستطيع التّنفّس؟ هلّا أفهمها أحد ماذا حدث؟!

خلال ثوانٍ كان أعضاء الفرقة وتقنيّو المسرح حولها. أمارات الصّدمة في ملامحهم المغبّشة.

ألم. ألم لا يحتمل. لكن، ما سببه؟

تضع يدها على صدرها. تشعر كما لو أنّ شيئًا معدنيًّا يستقرّ في الدّاخل. رصاصة؟ بلى. إنّها رصاصة. تستدرك والخَدَر يصل أطرافها.

وها هي تهوي أرضًا.

– الكلّ يبتعد! دعوها تتنفّس!

يصرخ أحدهم والفوضى قائمة.

من أوقف الموسيقى؟ تشاء أن تصرخ. دعوا الموسيقى، أغنيتي لم تنتهِ بعد! لكنّ حبالها الصّوتيّة لا تُطيعها. والنّاس المتحلّقون حولها يتنفّسون كثيرًا حدّ أن كبتوا على أنفاسها. ومن بعيدٍ الآن تترامى إليها دندنة ملائكيّة، آتية والضّوء الأبيض الذي يهاجمها.

أين كريم؟ فليصرخ أحدكم لكريم أرجوكم.

يأتيها خلال لحظات، كما لو أنّه سمع نداء روحها. يهوي فوق رأسها باكيًا.

لا تبكِ يا كريم. لمَ البكاء يا عمري؟ تودّ أن تقول، لكنّ عضلات حنجرتها تنكمش. تعجز عن الكلام. حبّذا لو تستطيع التقاط ما يقول لها. تحدّ بصرها، لعلّها تستطيع قراءة تعابير وجهه وحركة شفتيه. تفهم فقط أنّه ينادي على طبيب الحفل.

كريم، قبّلني للمرّة الأخيرة.

يهوي على شفتيها المطبقتين. يلثمهما. تنزف على خدّها عيناه.

ياه ما أزكى لعابك. كن كريمًا أكثر بعد. دعه يسيل إلى أعماقي. أغرقني طيبًا. إنّي عطشى إليك يا عمري كما لم أكن يومًا.

ترتفع فوقها زرقة حالمة. سماء حياتها. حياة. تثني ركبتيها. تجثو أمامها. مُهرة جريحة صمتها يجرح. تقترب من خدّها. الأغلب تريد أن تقبّله. منتصف الطّريق، تبتعد إلى الوراء. اقتربي يا حياة. تبكي. تدفن وجهها بين يديها الصّغيرتين. تشهق. تفرك عينيها. تعود لتقترب من خدّها. تقبّله. ترويه حبًّا هذه المرّة. أحبّك يا حياة. ينهار

لوح الثّلج أخيرًا. يذوب فوق نار جسدها المرتعش. ماؤه مالح يصلح لِكَيِّ الجروح، ولا سيّما جروح الدّواخل: حياة تتكلّم. تدمع وتتكلّم. أخيرًا؟ أخيرًا كسرتِ حاجز الصّمت؟ آسفة حبيبتي. لأنانيّتي نسيت أنّي عتبة خوفك، وها أنتِ تجتازين العتبة الآن. جودي يا حياة. دعي أمّك تسمع صوتك. لديك خامة جميلة كخامتها، غنّي لها ليسكن ألمها وترتاح. ماذا تقولين؟ ليتني أستطيع سماعك بوضوح. الأصوات في رأسي في فوضى هائلة. سأبذل جهدي لأقرأ شفتيك، عسى أتبيّن من بوحك شيئًا. حسنًا... ماذا؟ آه، فهمت: «بحبّك يا ماما!». أنا أيضًا أحبّك يا حياتي. أنا أيضًا يا حياة.

لحظات وتتلاشى حواسّها. تسلم روحها للنّور الأبيض يحملها إلى عل، إلى الغيم، إلى قبب السّماوات. تغمض عينيها، وتبتسم... سعيدةً، هانئةً، راضيةً عمّا سيأتي، وراضيةً عمّا فات.

7

يتناول النّائب خالد عبّود رشفة ماء، فنفسًا طويلًا، ويقول مستأنفًا تصريحه:

– أين كنّا؟ أجل. الإرهاب لا دين له، ونحن بصفتنا شعبًا تتعدّد فيه الأديان والمذاهب، لا خلاص لنا إلّا برصّ الصّفوف في وجه هذا الوحش الذي يحاول نهشنا. وتكاتفنا لن يكون مكتملًا ما لم نتمسّك بسوريا الأبيّة التي تحمينا، وتحمي أراضينا منذ عقود. وشكرًا.

يتصنّع أنّه يهمّ بالنّزول عن المنصّة التي يعتليها في قاعة المؤتمرات في قصره، لكنّ أحد الصّحافيّين الذين يمون عليهم يعاجله بسؤال آخر:

– كيف تعلّق سعادتك على مقتل المطربة ندى، ولا سيّما أنّكما كنتما مُقبلين على الخوض في دعاوى قضائيّة الشّهر المقبل؟

يهزّ رأسه مقوّسًا شفتيه:

– لقد علمت قبل بضعة أيّام. الله يرحمها. كانت موتة بشعة. أينما هي الآن، أنا سامحتها. لم أكن أرغب صراحةً، رغم افتعالها المشاكل، أن أتخاصم معها. أمر محزن. خسرنا حنجرةً لا تأتي سوى كلّ مئة عام مرّة. خسارة فادحة. أسكنها الله فسيح جنانه.

صحافيّة أخرى من بوطة الصّحافيّين المأجورين تسأل:

– ألقت السّلطات الأميركيّة اليوم على القنّاص الذي أطلق العيار النّاري على ندى من غرفة الأوتيل المجاور. وفي معرض هذا الحديث، أُشيع أنّه اعترف على مدير أعمال ندى السّابق، المدعوّ أدهم وهبي، الذي كانت ندى قبل يوم من الحفل اتّهمته بأنّه متواطؤ معك في فضيحة الصّور والفيديوهات الـمُشينة التي سُرّبت أخيرًا. تعليقك؟

يسلم كلتا يديه حافة المنصّة، ويقرّب فاه من حشد المايكروفونات أمامه:

– نتيجة التّحقيق النّهائيّة لم تصدر بعد، لذا فإنّ أيّ استباق للأمور يبقى في معرض الاستنتاجات والإشاعات. علينا أن ننتظر لنتأكّد من يقف خلف تلك الجريمة الشّعواء. لكن أستطيع أن أسمح لنفسي بالقول إنّ للمرحومة علاقات متشعّبة كثيرة في الوسط الفنّي، ما زاد من عدد كارهيها وأعدائها. أرجّح أن تكون الجريمة تصفية حسابات من نوع ما. أي أن يكون مدير أعمالها الذي لم ألتقِ به يومًا هو مَن قتلها. تعلمون كيف هي حال كار الغناء هذه الأيّام. مافيات وبوطات ووساخة لا يتصوّرها عقل. والعلم عند الله طبعًا. الله يرحمها، يجب ألّا نقول أكثر. كفانا اليوم حديثًا، ولنتفضّل جميعًا إلى الأكل قبل أن يبرد.

– سؤال أخير من فضلك!

– أمرنا لله. هاتي ما لديك.

ترتفع قهقهات.

– غدًا يصل جثمان المطربة ندى من الولايات المتّحدة الأميركيّة. فهل ستكون حاضرًا في جنازتها؟

– كنت أتمنّى أن أحضر شخصيًّا، لكن نظرًا إلى أنّي الليلة مسافر إلى دمشق، سأضطرّ إلى إرسال من يمثّلني. ألم تجوعوا بعد يا عالم؟!

ينزل الدّكتور عبّود عن المنصّة ضاحكًا، إيذانًا بانتهاء أوّل مؤتمر صحافيّ يعقده منذ ظهوره المباشر على التّلفاز قبل اثني عشر يومًا في حلقة من البرنامج الاجتماعي-السّياسي «لسان الوطن». حلقة يبدو أنّها كانت الأخيرة، إذ لم ولن تُصوّر بعدها أخرى.

صحافيّون ورجال دين ورجال أمن وسياسيّون حلفاء وخصوم، كلّهم دُعوا اليوم إلى هذا اللقاء الذي تعقبه مأدُبة دسمة على شرف ابنه آدم الذي لطف الله بسلامته، ونجّاه من الإرهابيّ بدر خولي الذي قيل في الصّحف إنّه فجّر نفسه بحزامه النّاسف خلال عمليّة إلقاء القبض عليه.

إلى القاعة المجاورة، يتوجّه الجميع مالئين أماكنهم.

يمرّ خالد بين الطّاولات ببدلة رماديّة غامقة وقميص نيليّ. يحيّي الجميع بابتسامة عريضة. يثرثر باقتضاب هنا وهناك. ويجلس إلى الطّاولة الكائنة في رأس القاعة، مع عائلته وثلاثة من أصدقاء ابنه، عن يساره آدم المجبّر بالجفصين عند مفصل كتفه (مكان الإصابة بالرّصاصة)، وعن يمينه زوجته المتألّقة بثوب فيروزيٍّ وشَعرٍ فاحمٍ مصفّف.

– أين ألقى امرأةً بجمالك؟

يوشوش في أذن ديانا التي شنّت عليه حربًا حين علمت أنّ آدم أصيب برصاصة، والتي نجح قبل يومين في استرضائها، إثر محاولات متكرّرة منه، تذلّل فيها كثيرًا.

– هنا. (تشير إلى الانعكاس في عينيه). لن تجدها إلّا هنا.

يضحك، فيهوي على شفتيها الممتلئتين بقبلة.

– ماما، بابا، جِدا مكانًا آخر!

يقول آدم مشيحًا بوجهه إلى النّاحية الأخرى، فيصدح الضّحك حول المائدة. ثمّ يقبل الجميع على أصناف الطّعام الكثيرة أمامهم، ينتقون ويتمطّقون منها ما يشتهون.

– بصحّة ابني وحبيبي آدم. حمدًا لله على سلامتك. أحبّك.

يرفع خالد كأس النّبيذ الأحمر، فتتقارع الأنخاب.

أثناء مضغ قطعة السّتايك، يمضغ رأسه الأفكار بلا هوادة: بعد أن تخلّص من بدر، وقتل ندى، واستعان بأسياده لإيجاد ابنه وإبعاد الشّبهات التي حامت حوله أخيرًا بسبب ذينك الأخَوَين، ها هي حياته تعود شيئًا فشيئًا إلى مجراها الطّبيعي. يبقى فقط أن يقفل باب الأحمق أدهم وهبي، وهذا أمر سهل، فتهمته بقتل ندى شبه مؤكدة. لكن، أيمكن اعتبار أنّ الخطر زال تمامًا عنه وعن عائلته؟ لا، كما أخبرته أنيتا، لا بالطّبع. الخطر مشروع قائم على الدّوام، قد ينبت من أيّ مكان، لذا يجب أن يظلّ متيقّظًا ومستعدًّا له، وألّا يأخذ الأمور باستسهال. من يدري ما قد يطرأ على حياته من جديد؟ هذه المرّة كانت على رسغ ابنه السّاعة الدّيجيتال المتّصلة بـ«أفق» – القمر الصّناعي الإسرائيلي. المرّة الثّانية، يمكن ألّا تلطف بابنه أو زوجته أو به صدفة أخرى! هذا الدّرس كان مذكّرًا بوجوب عدم الاستخفاف بأيّ صغيرة. الليلة، في الطّريق إلى دمشق لتحميل بعض الهدايا الوطنية لخصم له في السّياسة يتطلّع جادًّا إلى تغيير النّظام، سيجالس أنيتا وإيهود ويخوض معهما في حديث طويل لاستشراف المستقبل، وإعادة هندسة حياتهم على نحو أكثر أمنًا.

بالطّبع سيحاول وأنيتا مجدّدًا إقناع ابنهما بالسّفر والعمل في الخارج، إذ لا حلّ أفضل من البُعد لحمايته.

في منتصف الجلسة، يرجّ محموله وتَضوء شاشته. رقم المتّصل يبدأ بـالكود 963. الاتّصال المنتظر.

يستأذن. يقوم عن الطّاولة عابرًا الباب الأماميّ إلى الكوريدور. متيقّنًا بأنّه لا أحد في المدى القريب أو البعيد، يضغط زرّ الاستقبال:

– ألو... أسراب الحَمام صارت جاهزة؟ كيف حال أجنحتها؟ وريشها؟ جيّد. غدًا صباحًا سأكون جاهزًا لتسلّمها منكم كما اتّفقنا. صديقنا راغب أن يطير معها أجزاءً أجزاءً في سماء الوطن!

اتّصالٌ ثانٍ يجيئه على جوّاله الآخر، يبدأ بالكود 961:

– تقول إنّ الإرهابيّ استيقظ؟ رائع! لا لن أستطيع القدوم هذين اليومين. ماذا تقصد لا تعرف ماذا تفعل به؟ العمى بقلبك تصرّف! لا، لا تلمس شعرة واحدة منه. تسألني كيف؟ وما أدراني أنا بشغلك يا بهيم؟ قلت تصرّف ريثما آتي. أريده حين تسأله من ربّك أن يجيب باسمي. أتسمع؟ باسمي!

يقفل الخطّ. يبحلق في وسامته المنعكسة على زجاج لوحة الغيرنِكا المعلّقة أمامه. يستلّ نفسًا عميقًا. يشدّ عقدة كرافاته. ويدور على عقبيه مبتسمًا، عائدًا عبر الكوريدور الطّويل إلى قاعة الغداء. في هذه الأثناء، يروح الماضي، كما الحاضر، يتساقط عن جانبيه جثثًا هامدة، ويغدو بؤبؤاه قَدْرَي دمٍ، تغليان على نار هادئة.

إلَهٌ هو. لا إله على الأرض سواه. ليحيا، يجب أن يحصد الأرواح.

8

ترفع أمّ بدر عينيها المتعبتين إلى صورتي زوجها وابنها المعلّقتين أعلى الجدار المقابل في الصّالون، وتتنهّد:

– إلى متى سيظلّ الحزن لنا بالمرصاد؟

عن يمينها، تدمع خديجة. تقول بنبرة لم يقتلها اليأس بعد:

– لا أعرف يا مرت عمّي. يبدو أنّه كُتب لنا أن نظلّ أشقياء؟

– وحّدوا الله يا جماعة.

تقول إحدى الجارات الثّلاث المجتمعات. فترفع خديجة سبّابتها شاخصةً إلى السّقف:

– لا إله إلّا الله.

تودّ أمّ بدر لحظتئذٍ لو تقف على رجليها وتصرخ. لو تخلع حجابها وتقتلع شعرها من بُصَيْلاته. لو تبكي وتبكي حتّى يجفّ نهر عينيها. لكن سرعان ما تتدارك الأمر فتلجم رغبتها، إذ تتذكّر وجوب أن تظلّ قويّةً أمام ابنتها الجالسة إلى يسارها مُخلخلة البُنيان، كمبنًى قديم، آيلٍ للسّقوط عند نفخة هواء. يجب أن تظلّ قويّةً أمامها كيلا يتكرّر ما حدث خلال دفن أشلاء بدر، حين انهارتا معًا، ولم يعد باستطاعة أيٍّ منهما أن تهدِّئ وتسند الأخرى. اليوم، ستبذل

قصارى جهدها لتكون للميا صخرةً، فسكوتها المرعب ينذر بانفجارٍ قريب هائل، هي متوجّسة منه.

– أحيانًا، ينتقي الله أقرب البشر إليه ويرميهم بفاقة تلو فاقة، ليختبر مدى صبرهم وحبّهم له.

تقول جارة أخرى، متوجّهةً إلى أمّ بدر الـمُطرِقة كما لو أنّها مُستغرقة في التّفكير، ثمّ تضيف:

– أعلم أنّ مُصابكم أليم، لكن صدّقيني يا أمّ بدر... الفرج قريب.

تلتقط أمّ بدر آخر كلمتين، فتكاد تُجنّ. لا تشعر بشهيّة للرّد. تجعل تحاكي نفسها: الفرج قريب؟ من يكون فرج؟ من أهله؟ ما طعمه، لونه، رائحته؟ أَلَهُ وجودٌ بالأساس، أم هو، شأن هذه الحياة، محض أوهام؟

– احمدي الله يا أمّ بدر. غيرك خسر كلّ أفراد عائلته. احمدي الله لأنّه ترك لك ابنة وأحفادًا حلوين. لست وحدك في هذه الحياة، وهذه نعمة. الله حين يأخذ من الإنسان شيئًا، لا ينسى أن يناوله شيئًا آخر بالمقابل.

رغم الحزن المخيّم على صفحة وجهها، تروح أمّ بدر تضحك في الأعماق، ومن الأعماق. تضحك بجنون وهي تسأل: علامَ تحمد الله؟ أعلى عمرها الذي ضاع بين الهمّ والغمّ والخيبات والخسارات؟ أم على ما يترصّد أيّامها المقبلة من سواد؟ إنّ الله أخذ منها كلّ ما تملك، كلّ ما تملك، وماذا ناولها في المقابل؟ نَفَسَها؟ إنّها تتنفّس من قلّة الموت. لميا والأحفاد؟ إنّهم تحصيل حاصل! لو يريد الله بالفعل أن يعوّض عليها، فليأخذ روحها أيضًا. عندها فقط، سيغدو بإمكانها أن تحمده وتشكره.

– لا حول ولا قوّة إلّا بالله. لميا، أآتي لك بشيءٍ تأكلينه؟ صفرة وجهك لا تطمئن.

تتبرّع الجارة الثّالثة بالسّؤال، لكنّها لا تلقى جوابًا.

– المسكينة صارت قليلة الطّعام والكلام مذ راح الغالي. فما بالك بعد أن راحت الغالية؟

تتحسّر خديجة. تكفكف دموعها. تردف بشهقات متواترة:

– سبحان الله. فرّقتهما الحياة، فقرّر الموت أن يجمعهما. ما قولك يا مرت عمّي، هل سيجتمعان حقًّا؟

يؤلم السّؤال أمّ بدر. يزيدها يقينًا بأنّ الموت أقوى ما في الحياة. أقوى مِنَ الحياة. كثيرًا ما حاولت أن تجمع بدر وندى ولميا من جديد، لِشَدِّ أواصر العائلة المفكّكة. لكنّ أيًّا من محاولاتها لم تُجدِ نفعًا. واليوم، ها هو الموت يمدّ لها لسانه، بعد أن سلبها وَلَدَيْها بفارق ساعات، كأنّه يناكفها، كأنّه يذكّرها بأنّها أُمٌّ فاشلة لن ينفعها النّدم، وبأنّه هو وحده قادر على ترميم ما هدمته هي بكلتا يديها.

– بالطّبع يا خديجة. الموت سيجمع وَلديَّ أخيرًا. فيا ليته يجمعني بهما أنا أيضًا.

– بعيد الشّر يا أمّ بدر! أنا بحاجتك. ولميا بحاجتك. وخليل وعائشة وسارة وبتول، وهذا الجنين الذي ركل البارحة في أحشائي أولى ركلاته، كلُّنا بحاجتك.

– ماذا أفعل؟ إنّ الشّوق قاتل. لو أنّهم يمدّدونني في القبر قرب ابني...

– لا يا أمّ بدر...

– لو أنّهم يمدّدونني قرب زوجي...

– كفاك يا مرت عمّي! أنا مثلك، أتقطّع شوقًا إلى زوجي وابني. ولكن... الله كريم. لقد عوّضني خسارة بدر وعلي بأن جمعني بك وبلميا. إن شاء الله، نحن الثّلاث سنجتاز كلّ المحن. قولي إن شاء الله يا مرت عمّي.

تضمّ خديجة أمّ بدر باكيةً على كتفها، ولميا ساكتة، بلا حراك، تنظر إلى العدم.

– حفظكنّ الله. نحن وكلّ أهل الضّيعة في خدمتكنّ.

تقول إحدى الجارات، فترمقها أمّ بدر؛ الكلّ؟ أينهم اسم الله؟ الضّيعة تغصّ بالنّاس، ومع هذا لا أحد هنا لاستقبال النّعش. لا الأصدقاء ولا الأقارب، حتّى أختها حسنا لم تأتِ. إن كانت هي، الأمّ، سامحت ندى، فَلِمَ يصرّ النّاس على التّشبّث بموقف أَوْلَم عليه الدّهر؟

ترتفع أصوات زمير في الخارج. تطلّ عائشة برأسها من باب الصّالون. تقول: «وصلوا». تنصعق خديجة وأمّ بدر ولميا للحظات. ثمّ تنتفض خديجة قائمةً، تتبعها أمّ بدر، فالجارات الثّلاث، فيما تظلّ لميا متسمّرةً على الكنبة.

في الخارج على المصطبة، يقف النّساء وأبناء المرحوم بدر يتتبّعون بأنظارهم الموكب المهيب الذي يعبر تحت القنطرة العظيمة على مدخل الضّيعة. تستطيع أمّ بدر عدّ ستّ عشرة سيّارة على الأقلّ، ما عدا السّيّارات التي سبق أن عبرت المدخل وغيّبها منزل الجيران المقابل الذي يسدّ رؤية جزء كبير من جنوب الضّيعة. يخرج النّاس الآن إلى الشّرفات، وبعضهم ينتشر على الأسطُح، مأخوذين بالمنظر. هذا ما يحدو بأمّ بدر إلى الابتسام شماتةً بأهل الضّيعة: ألا يريدون تشريفها بحضور عزاء ابنتها؟

فَلْيَكُنْ! ندى لم تعد بحاجة أصلًا لاستعطاف أيٍّ منهم. صار لديها ناس أرحم، يحترمونها ويقدّرونها ويحبّونها كما هي، بلا أدنى شرط. غريب حال البشر، تفكّر. الله يغفر لهم ما لا يودّون أن يغفروا لأنفسهم. لكن، رغم عزائها هذا لنفسها، ثمّة غصّة تمرمر حنجرتها، غصّة عميقة لكون ندى رحلت يتيمة الأمّ، وأمّها حيّة، تتنفّس ندمًا على كلّ ما اقترفت بحقّها. لو أبقيتِ يا ندى للصّلح مطرحًا، لَلَمَستِ حجم النّدم في قلب أمّك، أمّك التي تحبّك بقدر ما كرهتها وأكثر. أجل أجرمت بحقّك. لكنّها أدركت خطأها. أدركته متأخّرةً ستقولين، لكن، أليس هذا أفضل من ألّا تدركه أبدًا؟ ما عاد شيء يهمّ... فقط ترحّمي على ابنتك يا امرأة، سامحيها، وتمنّي أن تسامحك هي الأخرى.

دقائق ويصل الموكب إلى الحيّ، تتقدّمه سيّارة نقل الموتى التّابعة للبلديّة. يتوقّف على بعد مئة وخمسين مترًا، أعلى النّزلة المؤدّية إلى مدخل الدّار. ثمّ تشرع السّيارات ببصق ركّاب ينفلشون على جانبيها، كقفير دبابير أسود.

هنا، يتوافد إلى المصطبة من البوّابة الخلفيّة بعض الجيران والجارات، حياءً ربّما، يقفون إلى جانب أهل الميّتة ويعزّونهم، متمنّين لهم الصّبر. الصّبر؟ تضحك أمّ بدر في باطنها بمرارة. صدق من أطلق على أمرّ النّباتات اسم الصّبر.

– يا حبيبتي يا ندى. (تقول خديجة والدّمع يصبّ في ثغرها) كم مرّةً بعدُ سيعيد هذا المشهد نفسه؟ قبل بضعة أيّام أخوك، والآن أنت. ما الحكمة في أن ترحلا معًا؟

تلتقط لميا التّابوت محمّلًا على الأكتاف. يقشعرّ لحمها الطّريّ. تتمنّى، كما تمنّت قبل أيّام خلال مشاهدة نعش أخيها المحترق

مرفوعًا على سواعد الشّبّان، لو تُسجّى في ذاك الصّندوق الخشبيّ لتخفّف من وحشة أختها. لكنّها سرعان ما تستدرك: ندى لن تشعر بوحشة بعد اليوم. لا بدّ صارت في السّماء. عند بارئها. لا في ذاك التّابوت الخانق الذي يقترب من الدّار رويدًا. ندى سترتقي إلى مكان أجمل. وأرحب. لن تنزل إلى ظلمة القبر. لن تحيلها ديدان الأرض جمجمة. ندى لن تستوحش بعد اليوم حيث هي. لن تستوحش، لن تستوحش، أليس كذلك؟

تمتلئ المصطبة بالنّاس الغرباء بمعظمهم. ومن لا يتمكّن من صعود الدّرج نتيجة الازدحام، يظلّ تحت، على الطّريق، أو أمام البوّابة. تصخب الجلبة والجثمان يشقّ طريقه إلى صدر الدّار. لأوّل مرّة منذ ثلاثة عشر عامًا، ها هي ندى تطأ عتبة دار العائلة. تطأها للمرّة الأخيرة.

ينقبض صدرا أمّ بدر وخديجة وهما تهمّان بدخول المنزل خلف التّابوت، أمّا لميا فتكبح خَطْوَها حين تلمح كريم وحياة شابِكَي اليدين، بين جموع النّاس أعلى الدّرج. تنتظر اقترابهما أكثر بعد، حتّى يرياها.

– حياتي شو اشتقتلّك.

تضمّ ابنة أختها المتلفّعة بهالة حزن صامت. تلثم خدّيها.

– ماما را... راحت.

– حبيبتي يا حياة. أنا وكريم وجدّتك هنا.

ماما راحت قبل أن تسمع صوتي. قلت لها أحبّك وهي تموت. رفعتُ صوتي عاليًا وأنا أقولها. تراها سمعتني، أم لم تلحق؟ لو لم أتبعها بصمتي، لما قُتلت.

– أ... أنا السّبب. أنا السّبب.

– لا يا حبيبتي. لا دخل لك بما كتب الله لأمّك. إنّها مشيئته، وليس باستطاعة مخلوق أن يغيّر مشيئته. اهدئي. امسحي هاتين العينين لتظلّ روح أمّك سعيدة.

يحوّط كريم الذي يرتدي تيشيرت سوداء وبنطلون جينز عنق حياة:

– أرأيتِ حبيبتي؟ خالتك توافقني الرّأي.

يتحوّل إلى لميا:

– البقيّة بحياتك.

يتحشرج صوت لميا التي ترتعش تحت سواد عباءتها:

– حياتك الباقية.

يستدير الثّلاثة معًا، حياة في الوسط، ويدخلون المنزل.

الجثمان على الطّاولة وسط الليوان. التّكبير والنّواح مرتفعان. يرتفعان أكثر بعد لحظة يكشف غطاء التّابوت عن وجه المغدورة.

يتحلّق الأهل حول الجثمان؛ أمّ بدر تلطم وجنتيها، خديجة تمسك بلحم عنقها، سارة وبتول وعائشة يبكين تأثّرًا بأمّهنّ، خليل يتأثّر بأخواته فيبكي هو الآخر، كريم يشدّ على يد حياة وكلاهما يدمع، ولميا تكبر عشرين سنة لهول الصّدمة، لا تنبس ببنت شفة.

– روحي قلبي وربّي مسامحينك يا بنتي. أرجوك، لا تبخلي عليّ بالسّماح.

تولول أمّ بدر.

– ليتك تعلمين كم كان بدر يحبّك في سرّه؛ لعن الله الكبرياء!

تصيح خديجة.

– ماما، عمّتو راحت عند علي وبابا؟

تسأل عائشة، ابنة بدر الصّغرى.

– إيه يا ماما، عمّتو مع علي وأبيك.
– طب متى نروح نحن عندهم؟
– لا أعلم يا عائشة، متى شاء الله أن نلحقهم، سنفعل.
– إن أردت الذّهاب إليهم، يجب أن أموت برصاصة؟
– لا يا حبيبتي لا...
لا تتمكّن خديجة من تمالك نفسها؛ تنتحب.
– ترحّموا يا جماعة عليها.
يقول أحدهم.
– رحمها الله وأسكنها جنّاته.
يجيب أحدهم.
تقترب خديجة من ندى. تمسح على وجهها الذي ازرقّ خلال وجود الجثمان في أميركا وبعدها في شحن الطّائرة.
– لا تقلقي ندّوش. حبّنا لن يموت. أشكرك لأنّك أبقيت لي حياة أشتمّ عطرك فيها.
يقول كريم وهو ينحني فوق التّابوت مقبّلًا رأس ندى.
– ماما، ها قد استطعت الكلام أمامك، فهل ترجعين؟
تحاول حياة الاقتراب برأسها من أمّها لتزرع قبلةً على وجهها الباسم، لكنّ قصر قامتها لا يسمح لها بالوصول. فيرفعها كريم من وسطها عن الأرض، حتّى تلتحم شفتاها بوجنتي أمّها.
سامحي عجزي يا أمّي. لم أقصد أن أكون أنانيّة. لطالما وددت أن أحكيك لكنّ شيئًا ما كان يربط لساني حين تلتقي عينانا. شيء كالخوف، كالقلق، لكنّه ليس بخوف، وليس بقلق. لا أعرف كيف أفسّره. كلّ ما أعرفه أنّي كنت فخورة بك، ولكن لحماقتي جهلت دومًا التّعبير عن ذلك.

– كان وجهك ورديًّا يا أمّي. ماذا حلّ بلونه؟

يعيدها كريم إلى الأرض لحظة تنفجر بالبكاء. يضمّها. يواسيها.

– ندى، قومي يا أمّي. قومي وأطربيني. ابصقي في وجهي. افعلي بي ما أردت دومًا أن تفعليه، لكن قومي!

يشقّ صراخ أمّ بدر سماء كفرشوبا المتّشحة بسحب بيضاء كأنّها أكفان. رغمًا عنها، تفقد أعصابها وهي تصرخ، فتضمّها خديجة وبعض الجارات، ويطلبن منها أن تهدأ وتتجلّد:

– أمّ بدر، ما تفعلينه حرام. لا يجوز. ابنتك صارت بين يدي ربّها. لا تعذّبي نفسك وتعذّبيها. فقط ادعي لها بالجنّة، بأن يُنزل بها الله خير حساب.

في هذه الأثناء، تنزل من لميا – بصمت – دمعة، فدمعتان، فسيل دموع. تبدأ بالهمهمة، فالشّهيق، فالزّعيق:

– لا يا الله لا... سوسن وعلي وبدر والآن... ندى؟ أختي يا الله؟ أختي التي لم أصدّق أنّي اجتمعت بها بعد فراق، لتفرّقنا أنت مجدّدًا؟ يا حبيبتي يا ندى. قولي لي ماذا أفعل في غيابك؟ ما طعم الحياة إن غادرها من يضفون عليها طعمًا؟ مرمرتِ قلبي يا إختي. أنا مع مين بدّي إحكي وإمزح بعد اليوم؟ من شاني يا حبيبتي تقومي، من شاني يا الله.

تتهالك لميا، بكيلوغراماتها التي هبطت إلى ثلاثةٍ وأربعين في اليومين الماضيين، منتحبةً فوق التّابوت. تهزّ جسد أختها ذات اليمين وذات الشّمال. يحاول الجميع منعها.

– اتركوني! إبتعدوا! لم أنتنّ هنا أصلًا؟ أنت يا أمّ عزيز. وأنت يا أمّ محمود. وأنت يا أمّ فادي. أما كنتنّ تصفن أختي بالعاهرة؟ أما كانت سيرتها شغلكنّ الشّاغل؟ امسحن دموع التّماسيح هذه فندى لا

تحتاج إليها! أتعرفن لم؟ لأنّها كانت دومًا أحسن منّا. حالمة، وصادقة، وصريحة، والأهمّ من هذا... حقيقيّة. ندى كانت أجمل من فينا، وأصدق من فينا، فاجتمعنا على التّخلّص منها مدفوعين بغيرةٍ منها دفينة. كلّنا قتلنا ندى. كلّنا. أنا، وأمّي، وأبي، وأخي، وأنتنّ، والنّاس جميعًا! كنّا معها قضاةً، وشرطة، وجلّادين، حتّى دور الله لم يسلم من أيادينا. آخ على النّار التي تكويني يا أختي، ولك آخ يا الله من يبرّدها لي؟!

يغلظ الظّاهر من عروقها وهي تصرخ وتبكي. وما إن تنحني على جبين أختها لتقبّله، حتّى يثقل رأسها، فتفقد توازنها، وتترنّح...

– أحضروا لها كأس ماء!

يهرع كريم وشابّان نحوها أثناء هُوِيِّها، يتعاونون على حملها، ويأخذونها إلى غرفة نومها المجاورة.

– يا حبيبتي يا لميا، الحقّ عليّ. ما كان يجب أن أفقد أعصابي.

تلطم أمّ بدر خدّيها وهم يمدّدون ابنتها على السّرير.

– دعوني أسقِها.

تأتي خديجة بكأس ماء، ترفع بيمناها رأس لميا قليلًا، وتقرّب بيسراها الكأس من فمها. لكنّ لميا تضغط برأسها إلى الخلف، آبيةً الشّرب. تقول بنبرة خفيضة، مستسلمة:

– بدّي موت. خلّوني موت.

تجثو أمّ بدر أمامها. كريم وحياة وخديجة وبتول متحلّقون حول السّرير.

– وأمّك؟ لمن ستتركينها؟ أنا يا عمري لم يبقَ لي أحد غيرك.

– لقد تعبت يا أمّي. صرت أكره أن أتنفّس. الموت. لا بدّ أنّ طعمه أجمل.

تقول لميا وهي تفتح عينيها وتغمضهما، تفتحهما وتغمضهما.

– كلّنا تعبنا ويئسنا. لكن يجب ألّا يمنعنا شيء من مواصلة حياتنا. لا الموت ولا غيره. ألست أنت يا عمري من قلت لي هذا؟

بابتسامة ساخرة، لا تكاد ترى:

– بلى... أنا...

– لمَ تريدين الموت إذن؟ وبهذه الطّريقة؟ ماذا حدث بالّتي حدّثتني عن الجنّة؟ بالّتي بشّرتني بأنّ الله يحبّ عائلتنا ويبشّرها بسعادة أبديّة؟ ماذا حدث بالّتي عادت تصلّي إيمانًا واحتسابًا؟ ألم تقولي إنّك تريدين أن تبدئي حياةً جديدة، أن تدرسي الشّريعة في بيروت، وتنسي الماضي والحزن والوجع؟ أنا يا ابنتي أستمدّ إيماني وقوّتي منك. لولاك، لكنت الآن انتحرت.

تتنهّد لميا بمشقّة. بئر عينيها تفيض رويدًا:

– هِه. جنّة؟ كنت أكذب عليك يا أمّي. على نفسي. اختلقت كذبةً وصدقتها. وأنت يا أمّي، صدّقتِ أنّي زرت... الجنّة؟ بعد كلّ ما حدث، بتُّ أشكّ في وجودها. نحن البشر نخترع أيّ شيء لنشعر بالسّعادة. السّعادة التي هي أحد اختراعاتنا. قد نكذب ونحتال ونبتدع المستحيل لنتذوّق طعم وهمها. الجنّة كانت حلمًا يا أمّي، حلمًا طويلًا، جميلًا، ليس إلّا... (قحّة هادئة، فأخرى جارحة، وتستأنف) لقد قرأت عن الموضوع. الغائب في كوما ينسج في دماغه أحلامًا كثيرة، ينسجها ممّا تلتقطه حواسّه في غرفة العناية. ويبدو أنّك كنت تشغّلين كاسيت خالتي لتلاوة القرآن، وكم من آيات في القرآن تصف الجنّة!

تتّسع عينا أمّ بدر. تنسرب تحت عباءتها ريحٌ تستنهض شعيراتٍ في جسدها منسيّةً. تعود بالذّكريات أشهرًا إلى الوراء، إلى يوم

سمعت لميا تتحدّث عن زيارتها للجنّة خلال الغيبوبة. طبعًا لم تصدّقها في البداية، خالتها مُسَّت، فأرسلت إلى الجارة أمّ محمود لترقيها. لكن لاحقًا، غصبت نفسها على تصديق الأمر، فكلام لميا عن تلك التّجربة كان جادّ النّبرة، واعتناقها الدّين كان جادًّا كذلك. هذا، فضلًا عن خوفها من أن تغادر ابنتها المنزل وترحل إلى حياتها الخاصّة، ما دفعها إلى وضع الحجاب والصّلاة بانتظام، لعلّها تنال رضى لميا. لكن، للأمانة، عندما فقد هلال بصره، تمامًا كما بُشّرت لميا في الغيبوبة، كاد إرغام نفسها على تصديق التّجربة يستحيل إيمانًا حقيقيًّا، لولا أن قُتل ولداها وحفيدها وغدت حياتها أكثر جحيمًا. أمّا الآن، فليس كلام لميا ما أثار دهشتها. المدهش أنّها أدركت للتّو حقيقةً إنسانيّة مرّة، أنّ ابنتها ظلّت متمسّكة بقرار الإيمان عن تجربة، حتّى بعدما تأكّدت من زيفها. ما يعني أنّ لميا كانت تتخبّط في صراع داخليّ هي كأمٍّ غير دارية به، صراع بدأ بكذبة جرّت معها لاحقًا أكاذيب على النّفس أخرى، ها هي اليوم تنفجر عمّا يصطرع حقيقةً في أعماقها.

– لا يا لميا اسمحي لي. الجنّة ليست كذبة. المؤمنون موعودون بها. وحمدًا لله أنّك أنت آمنت أخيرًا.

تقول خديجة بأسف ظاهر، فتزدرد لميا ريقها، باذلةً الجهد لتردّ:

– أتعرفين يا خديجة لمَ وضعت الحجاب؟

– لأنّك أدركت أخيرًا أنّ الدّنيا فارغة، لا تساوي قشرة بصلة. وأنّ ثمّة حياةً أخرى تنتظرنا، أبقى وأجمل.

تحاول لميا الابتسام. عضلات وجهها المتأكّلة لا تُطيعها. تقول بعينين خابيتين، يتلاشى منهما اللون:

– أرغمت نفسي على تصديق هذا السّبب. لكن لا. لم يكن هذا هو السّبب. اكتشفت أنّي تديّنت لأهرب. لأنّي خائفة. جبانة. لم أرَ جحرًا آخر للفرار من الألم. (وبعد نفس طويل تزفره في تنهيدة أطول) لو بحث الإنسان في عمق الدّوافع، لأدرك أنّ كلّ ما يفعله في حياته يُعدُّ هروبًا. هروب من شيءٍ ما. من أحدٍ ما. وأنا يا خديجة هاربة من الألم. هاربة، لا أعرف إلى أين...

تفيض عيناها. يضيق نفسها. تحاول تحريك لسانها لقول المزيد. لا تستطيع.

– خديجة أحضري لي كأس ماء وسكّرًا. بسرعة أرجوك!

يقول كريم، فتسرع خديجة خارج الغرفة، شاقّةً طريقها بين النّاس المتحوّمين حول الجثمان.

– خالتو، ما بك؟

تسأل حياة بحنوٍّ، لكنّها لا تلقى جوابًا.

– تقبريني يا إمّي.

تشهق أمّ بدر.

– عمّتو ما تروحي وتتركينا.

تبكي بتول.

– اسكتي. عمّتو ما رح تتركنا.

تردّ سارة.

– وعلامَ أنتِ متأكّدة؟ بتول لديها حقّ. بابا قال إنّه لن يتركنا، لكنّه فعل. علي تركنا أيضًا. وعمّتو ندى. الكلّ يتركوننا ولا أحد منهم يسأل.

يقول خليل مقطّبًا.

– تقبرني انشالله، عمّتو ما رح تتركنا.

تهرع أمّ بدر نحو حفيدها. تضمّه بقوّة.

– أرجوكِ اشربي.

تعود خديجة بالماء والسّكّر. تحاول أن تسقي لميا. لكنّ الأخيرة تطبق شفتيها، وتشخص إلى السّقف بعينين تائهتين، كأنّهما تستقبلان ملك الموت.

– ما تفعلينه بنفسك يا ابنتي انتحار!

تستسلم خديجة مُردّدةً أنظارها بين أولادها وحياة وكريم وأمّ بدر. الكلّ خائف، لا يدري ما العمل.

– أمّ بدر، هل من طبيب الآن في الضّيعة؟

يسأل كريم.

– لا بدّ من أنّ حفيدة جيراننا الدّكتورة سماح موجودة. لحظة. سأنادي عليها.

تحثّ أمّ بدر خطاها خارجةً، ولميا تحت العباءة تهمهم وتتعرّق.

– يا عمّ، لا يصحّ أن نتأخّر أكثر من هذا. سيحين موعد أذان العصر ولم نغسل المرحومة بعد.

يقترب أحد الشّابّين اللذين حملا لميا إلى السّرير هامسًا في أذن كريم. فيشعر كريم بوخز في صدره؛ صار اسمك المرحومة يا عمري؟

– ماذا تريدني أن أفعل؟ أنا أجهل إجراءات الدّفن لديكم.

يصمت الشّاب متفاجئًا. ثمّ يجيب:

– علينا الآن أوّلًا أخذ الجثمان إلى الصّالة تحت الجامع، قبل أن نغسله ونكفّنه ونصلّي عليه.

– ومتى تصلّون عليه؟

– بعد صلاة العصر. لذا يجب ألّا نتأخّر. فليبقَ أحدكم مع الأخت لميا، وليرافقنا أحد آخر. أقترح أن ترافقني أنت.

يهزّ كريم رأسه:

– بالطّبع أنا سأرافقك، لكن...

هنا، تعود أمّ بدر برفقة الدّكتورة سماح المتمرّسة حديثًا في المهنة.

– منذ متى وهي على هذا الوضع؟

– منذ عشر دقائق أو أكثر قليلًا.

تقول خديجة.

– هل أكلت شيئًا؟ هل شربت شيئًا؟

– يا عمري، لم تأكل شيئًا منذ ليل البارحة.

– هل تتناول أيّ أدوية؟

– اكتشفت قبل مدّة أنّها توقّفت عن تناول أدوية الأعصاب. الحقّ عليّ. كان يجب أن أقنعها بالعودة إليها. لكنّي لم أفاتحها بالأمر.

تهزّ الدّكتورة رأسها وهي تلصق ميزان الحرارة على جبين لميا البارد.

– حمدًا لله، لا حرارة.

ثمّ تستمع إلى ضربات قلبها، وتقيس ضغط دمها:

– 10 على 8. ضغطها لا بأس به، لكنّي سأعطيها دوبوتامين لضربات القلب.

– لكنّها يا دكتورة تأبى أن تفتح فمها. قالت إنّها تريد أن تموت.

– لا بأس يا أمّ بدر. هذا الدّواء يُحقن بالعرق. (تلتفت إلى لميا) لا حول ولا قوّة إلّا بالله. أتفهّم أنّك حزينة، لكن أن تداوي حزنك بتمنّي الموت؟ اسمحي لي. هذا ضعف.

تشيح لميا بناظريها نحو الحائط إلى يمينها.

– دكتورة، يعني حالتها ليست خطرة؟

– مبدئيًّا لا. قلبها متعب فقط. ستتحسّن على الحقنة.

– يعني لا داعي لنقلها إلى المستشفى؟

– لا، لا تحتاج إلى مستشفى. سأراقب وضعها. إن ازداد سوءًا لا قدّر الله، عندها ننقلها إلى المستشفى. بالإذن منك، سأذهب بسيّارتي إلى المستوصف لأجلب الحقنة.

يعتري أمّ بدر شيء من الاطمئنان. تقول خديجة:

– مرت عمّي، لقد تأخّرنا على النّاس. اذهبي أنت وكريم. أنا سأنتظر الدّكتورة هنا.

تومئ أمّ بدر إيجابًا:

– لكثرة الصّفعات يا خديجة، نسيت نفسي. لا أريد أن أوصي حريصًا. انتبهي على لميا. وسمّي عليها، ربّما تتحسّن.

يذهب الجميع خلف الجثمان، إلّا خديجة وعائشة تبقيان في المنزل مع لميا.

بعد سير ما يقرب من كيلومتر، يصل النّاس الصّالة المقسومة بجدار وباب إلى نصفين، واحد للرّجال وآخر للنّساء. يوضع النّعش في الصّالة النّسائيّة، حيث أمّ بدر وحياة وسارة وبتول يجلسن في الصّف الأماميّ يستمعن إلى آيات من القرآن الكريم بصوت إمام الضّيعة الجالس جوار كريم وخليل في صالة الرّجال.

ثلاثة أرباع النّساء اللائي يقتربن من أمّ بدر لتعزيتها هنّ عنها غريبات. من هندامهنّ، تتبيّن أنّهن صبايا ونساء مرموقات، ذوات قيمة في المجتمع. التّأثّر صادق في عيونهنّ. واحدةً تلو أخرى يصافحنها، ويقبّلنها، ويعرّفن لها عن أنفسهنّ؛ بعضهنّ صديقات

مقرّبات وصديقات عبرن في حياة ابنتها، وبعضهنّ من عائلة كريم أو صديقات له، وبعضهنّ مغنّيات وصحافيّات وإعلاميّات وعازفات التقين بالفقيدة مرّةً أو اثنتين بحكم ظروف العمل، أمّا البعض الآخر، وهو قسم هائل، فمجرّد معجبات، لا يعرفنها شخصيًّا، ولم يحدث أن التقين بها مرّةً واحدة، كلّ ما في الأمر أنّهنّ مولعات بصوتها وشخصيّتها. جميع هؤلاء يَرُحْن يتحدّثن باقتضاب عن شمائل ندى، عن روحها الجميلة وصوتها الأجمل، جميعهنّ يخبرنها أنّ خسارة هذه الإنسانة الفنّانة لا تُعوّض. كلامهنّ هذا يخجلها، يصبّ الملح على جرحها، يُحني رأسها أكثر بعد. لا تجد شيئًا تردّ به على كلامهنّ الخارج من القلب. تهزّ لهنّ برأسها فقط. تهزّ لهنّ برأسها وتبكي. على ندى؟ لا. تبكي على حالها، على أمومتها الضّائعة. ندى لم تخسر شيئًا. هي التي فعلت. خسرت كلّ شيء، لحظة خسرتها ابنةً.

في صالة الرّجال، الوضع لا يختلف كثيرًا. معظم المعزّين ليسوا من الضّيعة. هم إمّا من عائلة وأصدقاء كريم وندى، وإمّا شخصيّات من الوسطين الفنّي والإعلامي. جميعهم راحو يعزّون كريم ويتمنّون له الصّبر والسّلوان في محنته، فيما كريم مصدوم، يحاول قدر الإمكان أن يلعق جرحه.

بعد حوالى ثلث ساعة، يُحمل التّابوت إلى المغسل المجاور. يتعاون ثلاثة شبّان على إخراج ندى منه، يمدّدونها مغطّاةً بشرشف أبيض من الرّأس حتّى القدمين فوق الحوض الرّخاميّ العالي، ويخرجون تاركين غاسلة الموتى تتولّى مهامّها، فيما أمّ بدر مستندة إلى الجدار، تراقب المشهد، وتمدّ يد العون حين تطلبها الغاسلة.

الغسل والتّكفين. المشهد المروّع الذي يصرّ على تذكير الإنسان بأنّه لا شيء. مجرّد حبّة تراب هاربة، مصيرها العودة لعناق الأرض. ليست هذه هي المرّة الأولى التي ترى أمّ بدر فيها المشهد. سبق أن حضرته ثلاث مرّات أو أربعًا. يوم غسل أمّها، وحماتها، وابنة حميها، وجارتها. وفي كلّ مرّة، لا مناص من أن تعود لتسأل: من سيقف مطرحها يوم تُغسل هي؟

تنهي المرأة السّتّينيّة عملها المتقن، وتنادي على الشّبّان المنتظرين خارج الباب مع جموع من النّاس، ليضعوا الجثّة المكفّنة على الحمّالة. يُلبّي الشّبّان النّداء بهمّة، ويسيرون بالحمّالة إلى الجامع، وسط بكاء حياة وأمّ بدر وسارة وبتول.

في الجامع، ينتحي كريم بالحمّالة في إحدى الزّوايا الخلفيّة، فيما يظلّ أخوه وأصدقاؤه وأقرباؤه من الرّجال خارجًا في السّاحة، برفقة من لا يصلّون. أمّا النّساء والصّبايا فيعُدن إلى الصّالة، بعد أن يُلقين على ندى نظرة الوداع ما قبل الأخيرة.

متربّعًا في جلسته، يُبقي كريم بصره ملقًى على الحمّالة الخشبيّة التي يعلوها غطاء أخضر وأسود فيه كلام خُطّ بخيوط ذهبيّة. في هذه الأثناء، يروح الإمام يؤذّن لصلاة العصر، فيخرّ الجميع ساجدين، إلّا كريم يظلّ متسمّرًا مكانه كالمحنّط، يفكّر، يسترجع الماضي، ويبكي... بصمت.

موعد الصّلاة على روح الميتة.

يقترب رجلان من الحمّالة يهمّان برفعها. يتنبّه كريم للأمر فيتبلبل كما لو أنّ خطرًا دهمه. يخال أنّ ندى ستسرق منه.

– أين تأخذانها؟

يطمئنه أحد الرّجُلين أنّ الجثّة يجب أن تُنقل للأمام وتتقدّم صفوف المصلّين، كي تصحّ الصّلاة عليها.

– هكذا تجري الأمور عندنا.

يقول الرّجل الآخر بنبرة فظّة، لا تداري خوفه البريء. حينها، يقرّر كريم أن يشارك النّاس صلاتهم. لا يهمّ إن لم يكن يعرف الخطوات. سيصلّي على طريقته هو. كلّ همّه أن يفعل أيّ شيء قد يريح ندى.

في منتصف الصّف الثّاني يأخذ مكانه بين المصلّين. قبل الشّروع بالصّلاة يخمد توتّره، إذ يُفاجأ بالإمام يشرح الخطوات. يعتقد أنّ الشّرح موجّه إليه هو، إذ لا بدّ انتشرت بين سكّان الضّيعة حقيقة أنّه مسيحيّ.

يمتثل الجميع لتعليمات الشّيخ؛ عند التّكبير الأوّل، تُقرأ الفاتحة. عند التّكبير الثّاني، تُقرأ الصّلاة الإبراهيميّة. عند التّكبير الثّالث، يُتلى دعاء للميّت. وعند التّكبير الرّابع والأخير، يُسبغ الدّعاء على الأمّة الإسلاميّة. يمتثل الجميع لهذه التّعليمات، إلّا كريم الذي يردّد عند التّكبير الأوّل «بحِبِّك» عشر مرّات، و«سامحيني»، عند التّكبير الثّاني، عشر مرّات كذلك.

يحين وقت الدّفن.

يرفع الحمّالة أربعة شبّان ويخرجون بها. حشود المصلّين عن جوانبهم وخلفهم. يهبطون الدرجات السّبع المؤدّية إلى السّاحة. ترتفع جلبة الرّجال المنتظرين هناك. تخرج النّساء من الصّالة، تتقدّمهنّ أمّ بدر الممسكة بأيدي حفيداتها الثّلاث. يتجمّعن على طرف السّاحة الأيسر.

تغشى عينا حياة بطبقة كثيفة من الدّمع وهي تشيّع أمّها للمرّة الأخيرة. تسمع نفسها تردّد بصوت خفيض، يئنّ: «حكيتك يا ماما. ما بدّك تحكيني؟». تشدّ أمّ بدر على يدها. تقول سارة: «عمّتو، سلميلنا على علي». تردّ عليها أختها الوسطى بتول: «ما فيها تسلّم على علي يا هبلة. علي بالسّعوديّة. فيها تسلّم بسّ على بابا». تشعر أمّ بدر كما لو أنّ يدًا خفيّة تملخ عنقها. كيف للطّفولة أن تزهر في أرض لا يبذرها سوى الموت؟

تواصل حمّالة الموت بلامبالاة مسيرها. تبلغ أعلى النّزلة المؤدّية إلى الجبّانة. تودّ أمّ بدر لو ترافق الرّجال إلى مثوى ابنتها الأخير، لكنّها تكبح جماح رغبتها. تشدّ حفيدتها إليها. تبكيان معًا.

الوداع الأخير؛ ترفع حياة كفّها عاليًا. تروح تلوّح لأمّها. تظلّ تلوّح حتّى يهبط الرّجال بالحمّالة، ويختفوا عن أنظارها. وسط التّكبير والنّحيب وتحيّات الوداع، تنزل كفّها إلى صدرها. تشعر بأنّ قلبها الصّغير هبط هو الآخر.

في مقبرة الضّيعة المطلّة على أودية خضراء، يقف كريم قبالة القبر. هنا، في هذه الحفرة السّوداء، سيدفن أعزّ ما امتلكته يداه. على الشّاهِد الرّخاميّ فوق القبر، يقرأ: «الفاتحة/ كلّ نفسٍ ذائقةُ الموت/ ثمّ إلينا تُرجعون/ ضريح المرحومة/ ندى خليل خولي/ تُوفّيت في 14 آب 2004». تغدره الدّموع. لا يستطيع حبسها والشُّبّان ينزلون ندى إلى مسرحها الأخير. لقد أبكرتِ الرّحيل يا حبيبتي؛ أبكرتِ الرّحيل.

بعد تلاوة الشّيخ دعاء الميّت، وإيصاد باب القبر الحديديّ بقفل، يجتاح كريم شعور بأنّه لم يدفن ندى فقط. لقد دفن معها قلبه.

قرابة الثّامنة مساءً، بعد انقضاء فترة استقبال المعزّين الرّجال في صالة الجامع، والمعزّيات النّساء في دار العائلة، يجتمع كريم وحياة وأمّ بدر وخديجة وسارة وخليل وعائشة وبتول على المصطبة، في ضوء شمعتين أُقيمتا متباعدتين على حافة حوض الزّهور الأماميّ.

– كيف حال لميا؟

يسأل كريم، ماسحًا العرق عن وجهه الشّاحب.

– الحمد لله أحسن. إنّها نائمة الآن. (تقول خديجة بصوت يشي بأنّه سيُبحّ) الدّكتورة سماح أجبرتها على الأكل. لكنّها نصحتني بأن نعرضها على طبيب أعصاب. حسبما فهمت، انقطاعها عن الأدوية أضرّ بصحّتها.

يهزّ كريم رأسه ملقيًا نظرة طويلة على الأفق المعشّق بالبرتقاليّ والأصفر. ليست الشّمس وحدها التي تغرب الآن. شيء ما في أعماق أعماقه، لا يدري ما هو، يغرب كذلك. إلى غير رجعة.

– طوال السّنتين الماضيتين، حلمت بأن ألمّ شملنا كعائلة. أخيرًا الحلم تحقّق. على مائدة الموت التممنا. كم هو طريفٌ الأمر.

تترقرق على أهداب أمّ بدر دمعة.

– الحمد لله يا مرت عمّي. كلّ شيء من الله حلو.

تبتلع أمّ بدر ريقها بمرارة. تحين منها التفاتة إلى كريم. تقول محتارة:

– كريم، ابني، ماذا ستفعل الآن؟

– ليتني أعلم يا حجّة.

– أقصد... ماذا ستفعلان أنت وحياة؟ هل ستعودان إلى أميركا، أم إلى بيروت؟

يسكت كريم لحظات قبل أن يجيب:

– حياة ستتابع العلاج لنتأكّد من استدامة شفائها. لكن هنا. لن نعود إلى أميركا.

– وبعد أن ينتهي العلاج؟

يقول كريم متنهّدًا، متألّمًا:

– لديها حرّية الخيار. إمّا أن تبقى معي، أنا والدها غير البيولوجي. وإمّا أن تعود إلى جدّتها.

تدخل خديجة على الخطّ:

– أعلم يا كريم كم تحبّ حياة. لكنّ الشّرع لا يجيز لك أن تبقي البنت معك.

يهزّ كريم رأسه مداريًا دموعه. في هذه الأثناء، كانت حياة تنصت مطرقةً إلى الحديث، فتقرّر التّدخّل، بصوت خفيض:

– جدّتي، أنا أحبّك، وأحبّ خالتي. لكنّي أحبّ أبي أيضًا، ولن أستطيع أن أتركه. لا شيء سيمنعني من أن أعيش معه. قبل أسابيع سمعت أمّي خلسةً تقول لخالتي على الهاتف إنّها تأتمن كريم على حياتها. وأنا أوافقها الرّأي.

تطرق أمّ بدر وخديجة في خجل، فيما يسدّد كريم لحياة نظرة حبٍّ عميقة، كتلك التي كان يسدّدها لأمّها.

– مساء الخير يا جماعة. العوض بسلامتكم.

أعلى الدّرج، تطلّ امرأة جميلة، من جيل ندى أو أصغر قليلًا. تتعرّف إليها أمّ بدر حين تقترب من الجمع بتنّورة قصيرة وقميص أسودين، وشعر طويل مربوط.

– الله يسلّمك يا دلال.

– لا تؤاخذيني يا أمّ بدر. وصلتُ لتوّي من المطار. اضطررنا للنّزول أربع ساعات في إسطنبول لعطلٍ في الطّائرة. ليتني وصلت قبل الدّفن.

– لا بأس حبيبتي. المهمّ وصلتِ بالسّلامة.

تستدير دلال نحو كريم وتضمّه. تبكي فوق كتفه:

– حبيبي يا كريم. رائحة ندّوش عالقة في ثيابك. البقيّة بحياتك صديقي.

– تسلمي صديقتي. كلانا فقد أغلى النّاس إلى قلبه. أين فيليب لا أراه معك؟

– ما زال في باريس. كان بودّه أن يحضر، لولا أمّه المريضة. أخبرني أن أبلّغكم تعازيه الحارّة.

تحين منها التفاتة إلى حياة. تسرع تضمّها:

– تقبريني كم تشبهينها. لم تكن لها سيرة غيرك. أتعلمين ما قالت في آخر اتّصال لها بي، قبل يومين من رحيلها؟ قالت إنّها سعيدة لأنّها أُمُّ أهمّ كاتبة في الوطن العربي. أنا على يقين بأنّك لن تخذليها، تمامًا كما لم تفعلي في آخر لحظاتها، عندما سمعتك تحكين.

– طانط دلال، أتعتقدين أنّها سمعتني؟

– أنا متأكّدة.

– كيف؟

– من تلك البسمة العريضة على شفتيها وهي تفارق الدّنيا. رأيت الصّورة في الصّحف. من غيرك يا حياة رسمها؟

لا تلبث دلال أن تقبّل وجنتي حياة وتستدير لتعزّي خديجة وباقي الأولاد، حتّى تنطلق صرخة مزلزلة من الدّاخل.

– لميا!

تقفز أمّ بدر عن كرسيّها رأسًا إلى المنزل. يتبعها الجميع.

– ما بك؟

تصرخ أمّها عن عتبة الغرفة. تجدها متربّعة في السّرير، تتصبّب عرقًا وتحادث نفسها:

– سوسن... سوسن تحتاج إليّ... النّار... سوسن تحترق يا أمّي... يجب أن أراها... حبيبتي... سوسن ليست بخير.

يدخل الجميع الغرفة، إلّا كريم، يبقى خارجًا في الليوان، لأنّ خديجة تخبره أنّ لميا لا تضع الحجاب.

– اهدئي يا حبيبتي. اهدئي. لا بدّ رأيتِ كابوسًا.

تجلس أمّ بدر جوارها على السّرير. تحتضنها.

– مرت عمّي، أأنادي على الدّكتورة سماح؟

– لا أريد دكتورة! خديجة، لا تندهي لأحد!

تبعد لميا أمّها صارخةً وسع حنجرتها.

– حسنًا حسنًا لا داعي لأن تغضبي. لن أنده لأحد.

تقول خديجة شاهرةً كفّيها بموازاة بطنها، كأنّها تتوقّى هجومًا.

– أتريدين أن تأكلي؟ أن تشربي؟

تقول أمّ بدر. فتومئ لميا سلبًا برأس يرتعش، وعينين شديدتي الاحمرار.

– ما رأيك بأن نصلّي المغرب معًا؟

لا تجد خديجة ما يقال لتهدئة أخت زوجها سوى هذا. لكن هذا أيضًا لا يفلح. فيتسيّد الغرفة صمتٌ مطبق، تكسره لميا عندما تحين منها التفاتة إلى حياة التي تفرك عينيها، وتقول:

– اطمئنّوا. أنا بخير. لا أريد أن آكل ولا أشرب ولا أصلّي ولا أرى طبيبًا. أريد فقط أن تتركوني مع حياة. وحدنا.

يحتاج الجميع إلى بضع لحظات لِيَعوا مطلب لميا، قبل أن ينصاعوا له ويخرجوا من الغرفة تباعًا.

– تعالي حبيبتي. اجلسي جنبي.

تقول لميا بصوت خافت، مستغرقةً في النّظر إلى حياة المتسمّرة على بعد خطوات منها في ثوب أسود أنيق، قصير الكُمّين، يصل عند الرّكبتين، وشعر طويل فاحم تلوح منه شعرتان بيضاوان في فَوْدها الأيمن.

– خالتو، أأنت بخير؟

تقترب حياة من السّرير بخفر، شابكةً كفّيها.

– لا يا حياة. لست بخير. سأكون كاذبة لو قلت إنّي كذلك.

تصعد حياة إلى السّرير:

– هل بيدي شيء أستطيع فعله لأرى ابتسامتك من جديد؟

تبتسم لميا رغمًا عنها. تحتضن حياة بين ذراعيها.

– أنا آسفة على كلّ ما سبّبته لك. لو كنت متيقّظة أكثر، لما وصلت بك الحال هنا.

تغرورق عينا حياة:

– لا تقولي هذا. أنا أحبّك.

– هل تسامحينني؟

– طبعًا أسامحك.

تشدّ لميا العناق:

– رأيت سوسن في حلم بشع، بشع جدًّا. كانت تصرخ وتستنجد بي. خفت كثيرًا يا حياة. ولم أزل. أتنامين جنبي قليلًا؟

ترنو حياة إلى عيني لميا الفزعتين هازّةً رأسها علامة الإيجاب. تهمّ بإخبارها أنّها هي الأخرى لا ترى سوسن سوى في كوابيس مرعبة، لكن سرعان ما تعدل عن رغبتها، إذ تدرك أنّه لا ينبغي أن تزيد خالتها رعبًا؛ يكفيها الرّعب الذي تعيشه الآن.

هكذا، تستلقي الاثنتان متجاورتين، وتشخصان إلى السّقف.

– بما أنّ كلتينا تشتاق إلى سوسن وندى، ما رأيك بأن نلعب لعبة؟

تقول لميا بنبرة تداري حزنًا عميقًا. حزنًا عقيمًا.

– اتّفقنا.

تبتسم حياة في شيء من الأمل.

– سأخبرك أنا كلّ ما لا تعرفينه عن ندى، وبعدها يحين دورك لتخبريني كلّ ما لا أعرفه عن سوسن. اتّفقنا؟

ثوانٍ وتغطّ الاثنتان في بحر من الذّكريات، يصطخب شوقًا، لهفةً، وحنينًا.

قبيل الفجر، تفيق خديجة من نومة قلقة على ألم في حنجرتها. تحاول التّكلّم، لكنّ صوتها لا يُطيعها. لقد بُحّت. تنظر حولها تطمئنّ على الأولاد. خليل وسارة وبتول وعائشة مستغرقون في نوم عميق. تحسدهم. تودّ لو تعود طفلةً لتنام كما ينامون، بسرعة، بلا أرق، وطويلًا. تلقي نظرةً إلى ساعة الحائط المعلّقة فوق سريرها. وسط إضاءة الهزيع الأخير من الليل، تستطيع تحديد الوقت بصعوبة: ساعة لأذان الفجر. لن تحرز إذن العودة إلى النّوم. تقوم من الفراش منهكة. تنتبه لموطئ قدمها خشية أن تدعس طرف أحد أولادها النّائمين على الأرض. تتناول منديلًا تلفّه عشوائيًّا حول رأسها. تفتح باب الغرفة الأكّورديون على مهل. غصبًا عنها، يصدر الباب صريرًا

مزعجًا. تعبر إلى الحمّام مداريةً خطوها، كيلا توقظ كريم النّائم على فراش في غرفة المؤونة في المطبخ المجاور. تقضي حاجتها، وبالماء البارد تروح تتوضّأ. ستقرأ في غرفتها الآن عن أرواح ندى وعلي وبدر وأخيها الشّهيد جزأين أو أكثر من القرآن، ريثما يحين موعد الصّلاة.

أذان الفجر.

تخرج من غرفتها بهدوء نحو الغرفة الأخرى، حيث تنام كلٌّ من أمّ بدر وحياة ولميا. لقد وعدت أمّ بدر بأن توقظها لتصلّيا معًا. تفتح باب الغرفة الخشبيّ المهترئ. إلى يساره يقع فراش أمّ بدر أرضًا بمحاذاة الحائط. تقترب منها. تلكزها:

– مرت عمّي، أذّن الفجر.

تنهض أم بدر قائمةً، فيما تتوقّف خديجة قبل الباب بقليل قائلةً بصوت خفيض، أقرب إلى الهمس:

– أين لميا؟

تحملق أمّ بدر في سرير ابنتها لحظات قبل أن تعي السّؤال. وعندما تفعل، تضغط زرّ الإنارة. السّرير خاوٍ.

– ماذا هنالك؟

من فراشها المحاذي سرير لميا، السّرير الوحيد في الغرفة، تفتح حياة عينيها.

– لعلّها في الحمّام؟

تسأل أمّ بدر ناظرةً برعب إلى المشجب، حيث عباءة لميا وحجابها ليسا مُعَلَّقين. إلى الحمّام، تطير خديجة. تعود بعد قليل مزدردةً ريقها، وقد بدأ صوتها يرتفع:

– ليست هناك!

لا تدع الثّلاث زاوية في الدّار إلّا ينفضنها بحثًا عن لميا. واحدًا تلو الآخر، يفيق النّيامُ على جلبتهنّ. يتبادلن نظرات صامتة، فزعة، حائرة. مرغماتٍ، يستسلمن أخيرًا للحقيقة؛ لميا ليست في البيت. وحده الله يعلم أين اختفت!

كلّما خطت إلى الأمام، ازدادت تلك الأصوات وضوحًا. أصوات عميقة ذات صدى، تتقافز في أروقة دماغها ككرات مطّاطيّة مجنونة. الطّريق مُضاء بألوان فجر بكر، وخالٍ إلّا من قطط وكلاب ضالّة. ثمّة نسيمات باردة، تندفع الآن من جهة الشّمال لتعابث أطراف عباءتها. منذ دقائق وهي هائمة على وجهها، تسير لا تدري إلى أين. كأنّ ثمّة مغناطيسًا مزروعًا في مكان ما يجذبها إليه. رأسها يكاد ينفجر، وعيناها تؤلمانها. تشاء لو تتوقّف وتدور على عقبيها عائدةً إلى البيت، لكنّ الصّوت اللعين يأبى أن يستكين، يستمرّ يضرب بمطارقه على أذنيها. لا تجد سبيلًا آخر سوى الانسياق خلفه لمعرفة ماذا يريد بالضّبط. لحظات، وتسكن الأصوات. تبدأ باسترجاع حواسّها تدريجًا.

تتبيّن تفاصيل المكان، فتعي أنّها وقوف على رأس درج طويل، طويل جدًّا، جهة الغرب الأقصى من كفرشوبا. عن يسارها الأراضي المحتلّة، وأمامها تنحدر هضاب خضراء، مغروسة بالسّرو والزّيتون والصّنوبر. وبين تلك الأشجار، ثمّة ما عاشت شهورًا تتلافاه. ثمّة أسِرّة من تراب، يضطجع فيها... الموتى.

إنّها الجبّانة؛ تستدرك. تتسمّر مكانها بمشاعر متبلبلة. ترنو برأسها إلى السّماء. تبكي وتضحك.

– ماما!

تلتقط صوتًا ينادي:

– تعالي...

تجيل نظرها بحثًا عن الـمُنادي. تقع عيناها على فتاة شاحبة الوجه أسفل الدّرج، تلبس ثوبًا أبيض باهتًا، عند منتصفه بقعة كبيرة حمراء. كأنّها آثار دماء. تكرّر الفتاة النّداء وتبدأ بالسّير إلى الخلف.

سوسن ؛ تستدرك، فتهبط الدّرج بخفّة. لكن ما إن تصل إلى العتبة السُّفلى، حتّى تختفي ابنتها. تتلفّت ذات اليمين وذات الشّمال بحثًا عنها. لا تجد لها أثرًا. ترتمي على الأرض. تئنّ:

– أينك يا عمري؟

تمسّد التّراب بأصابعها. تغرف منه. تنثره حولها مختلطًا بدموعها.

– يا سوسن ردّي عليّ!

تعود إلى رأسها الأصوات أحدّ من ذي قبل. تضغط بكلتا يديها على أذنيها. أقنية سمعها تتمطّق. الألم لا يُحتمل. تهبّ وقوفًا. تصيح وتنتحب. تغزل في أرضها ضاربةً بيديها الهواء، كما لو أنّها تصارع شبحًا. تشاء لو تقتلع أذنيها وعينيها من جذورهما. تلطم رأسها، وبحركة فجائيّة، تنزع عنه الحجاب. ترميه أرضًا وهي تدور وتهمهم بكلام ليس له معنى.

من بعيد، يسترعي انتباهها ظلٌّ يتنقّل مسرعًا بين الأضرحة. تطلق ساقيها وشعرها الطّويل للرّيح وتتبعه. تجتاز مسافةً طويلة بين القبور والشّجر والحشائش البريّة، قبل أن يختفي الظّل عند مقابر عائلتها.

مقابر آل خولي.

تقرأ الأسماء على الشّواهِد اسمًا فآخر: خليل، سوسن، هلال، بدر، ندى. ينهكها المنظر. يشعرها بالعجز. بالهوان. تقتعد الأرض، تكوّر يديها، وتشرع بقراءة سورة الفاتحة. لكن، عند منتصف

السّورة، تنسى الآية، فتروح تدندن أغنيةً للأطفال. تنفرط سبحة دموعها. تشدّ شعرها. تكزّ على أسنانها وتشهق. كلّ ذرّة جنون رابضة في أعماقها تتحرّك. تهبّ واقفةً، وتزعق:

– سوسن!

تشقّ أكفان السّماء بعلوّ الصّرخات. ومن ثمّ، تظهر سوسن. تظهر من العدم جالسةً على باب قبرها. تهرع لميا نحوها. تشتهي منها قبلة، ضمّة، لكن ما إن تطأ باب القبر، حتّى تعانق السّراب.

تتلفّت مذعورةً حولها. تدور أصوات رأسها، وتدور بها الأرض.

– ولك سوسن! سوسن! كسرتيلي ضهري يا إمّي... طلّي عليّ... طلّي عليّ يا روحي!

لكنّ سوسن لا تردّ. تراها نزلت إلى القبر؟

تنظر لميا إلى باب القبر الموصد بقفل تحت قدميها. تستحيل عيناها حفرتين مظلمتين، لا شيء فيهما سوى عظام بالية، ورغبة مُلحّة في الموت.

تحسد أباها وبدر وهلال وندى لأنّهم نيام قرب ابنتها.

على الأرض جهة اليمين، يقع نظرها على حجر صوّان كبير. تلتقطه. تشدّ عصب يديها النّحيلتين، وتهوي به على القفل. ضربة، فأخرى أقوى، وينخلع. تستلّ نفسًا عميقًا. تقبض على مسكة الباب. ترفعها. سواد شهيّ يلوح لها. سواد يحاكي حداد قلبها. أبوها وبدر وهلال وندى لم ينتقوا قبورهم. لا أحد ينتقي قبره. لكن اليوم سيكون لها وحدها شرف ذلك.

تنحني وتجلس على حافة القبر المفتوح مسبلةً قدميها. كلّ صوت مزعج في رأسها يستحيل الآن موسيقى هادئة. ووسط

الظّلام في الفراغ تحت، تتفتّح عينان، تتلوّنان، ويسطع وميض على شكل ابتسامة.

اليوم، وللمرّة الأولى منذ زمن، ستنام هانئةً؛ لن يعكّر صفو جنّتها أحد. ستكسو عظام ابنتها قليلًا من لحمها، ستغنّي لعينيها الزّرقاوين تهويدة، وتتمدّد جوارها... إلى الأبد.

شكر

الشكر واجب لكلّ من ورّطني بطريقة أو بأخرى في جريمة الخيال، عائلتي الصغيرة والكبيرة، أمي، أختي، صباح، صائب، والرّوائيّة هدى عيد: لولاكم لما حفرتُ هذه الأنفاق.

الأديبة يمنى العيد، والغائب الحاضر السّيد هاني فحص: العمر رواية عبثيّة، لكنّ المعنى بالأشخاص. مع امتناني.

لرانيا قصب وتالا الخطيب: شكر خاصّ على الإستشارات الطّبية والقانونيّة.

الأصدقاء والصّديقات وكلّ من كان له دور في إيصال القصّة للقرّاء، مودّتي.

أخيرًا، سأرسم قلبًا كبيرًا وأضمّ إليه الدّار التي تفرد ذراعيها للتّجارب الجديدة: إلى «نوفل» وسيّداته، كلّ الحبّ.

للموت عيون ملوّنة — للموت عيونٌ ملوّنة – أيلول عائدٌ، وأنتِ لستِ هنا كي تستقبليه. الشّوقُ يا سوسن... لم أكن أعلم أنّ الشّوق مرضٌ مميت. كلّ الجروح فيَّ يمكن رتقُها بغُرَز النّسيان، إلّا فقدك، لن يني هذا الجرح يتّسع كلّما تذكّرتُ أنّي سأحيا العمر من دونك. قلبي يا سوسن يصطلي بالشّوق إليكِ، وهذا الحبر الذي خاصمتُه منذ مدّة، لم أكن لأعود إليه لولاك. من سيترنّم بأغنية شهر ميلادك حال عودته قريبًا؟ هل كانت فيروز تعلم حين غنّت ورقه الأصفر أنّ أيلول سيرجع وإنتِ بعيدة بغيمة حزينة قمرها وحيد؟ سيُبكيني شتاء أيلول يا قمري السّعيد. سيُبقيني وحدي في العتمة والبرد، أحاول إنارة الشّموع سُدَى. أسقمني البحث في العيون الملوّنة عن أثرٍ لعينيكِ يا سوسن. أحيانًا، أتمنّى لو أنّ الرّصاصة اصطفتني أنا لا أنتِ. أنا التي كان يجبُ أن أُقتَل. الرّصاصة كانت ستكون الخلاص ممّا أعيشه الآن، وأنا الآن في عداد الأموات.

«نسقٌ سرديّ وتوليف حكائيّ يقتربان قليلًا من تقنيّة بناء مشاهد سينمائيّة، ويكتملان معًا في تشييد عمارة روائيّة تؤكّد أنّ صانعها مقبل على حرفيّة كتابيّة»

— نديم جرجوره. جريدة السفير 2015

عبد الحكيم القادري — من مواليد بلدة كفرشوبا جنوب لبنان (1994). حائز شهادة ماسترز في علم أدوية القلب والشّرايين من الجامعة اللبنانيّة، دفعة 2017. يشارك حاليًّا في كتابة سيناريوهات أفلام ومسرحيّات من إنتاج طلّابي. «للموت عيونٌ ملوّنة» هي روايته الثانية عن دار نوفل بعد «الخلدان الصمّاء» (2015)، وهي الجزء الثاني منها.

instagram: abedkadiry
facebook: /abedkad
twitter: @abedkadiry

مكتبة نوميديا

ISBN 978-614-438-935-5

9 786144 389355

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان